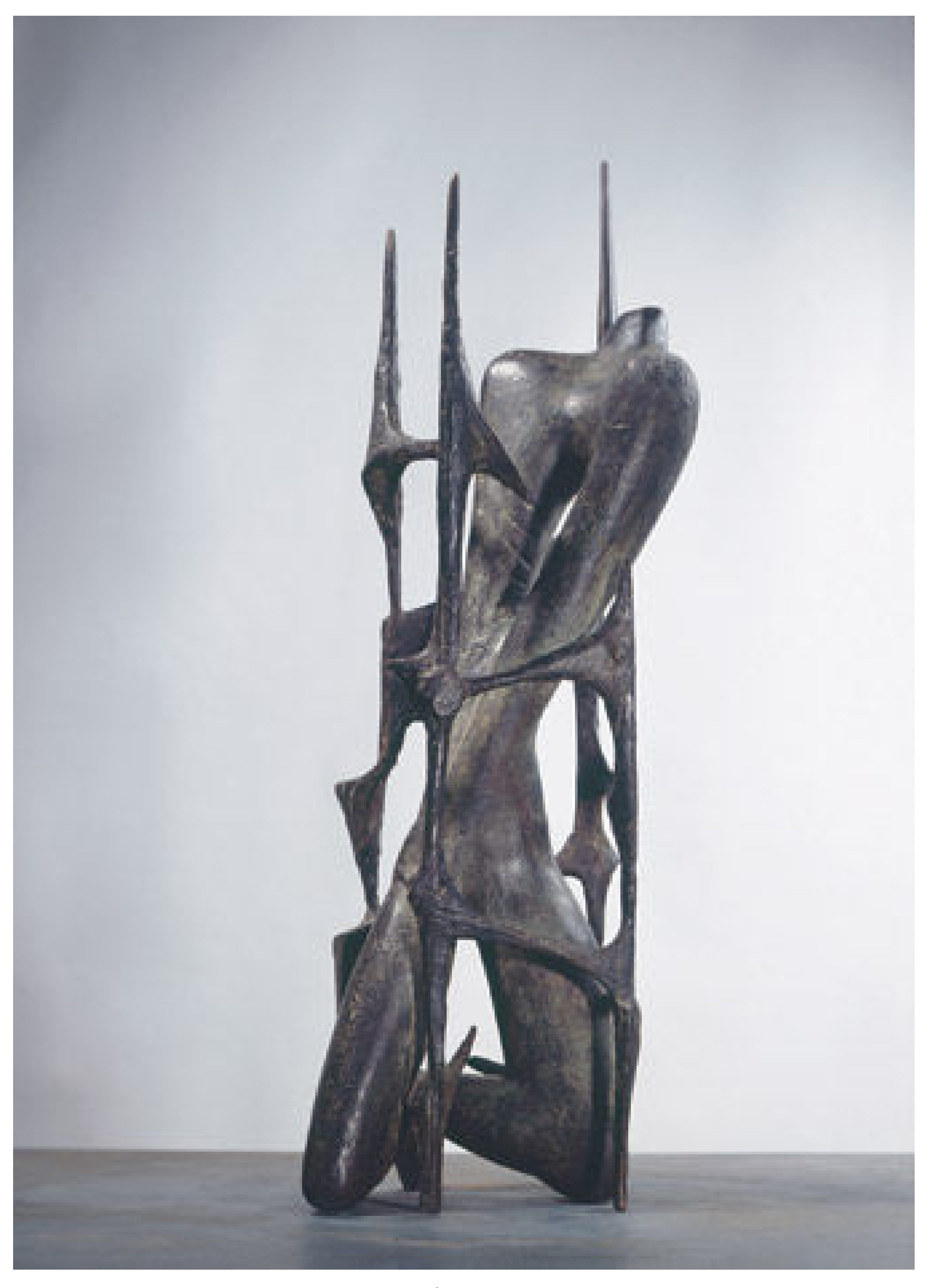
قمر أبو غريب كان حزيناً

وقائع سجن أبو غريب .قسم الأحكام الخاصة

1987 - 2002



د. ضرغام الدباغ

برلين

2003

قمر أبو غريب كان حزيناً

وقائع سجن أبو غريب ـ قسم الأحكام الخاصة :1987 - 2002

تحرير : **ضرغام الدباغ**

الطبعة الثانية 2020
المركز العربي الألماني / برلين : الرقم 16

النسخة مجانية





فهرس

لوحة الغلاف: عمل فني للنحات الألماني بيرنهارد هايلغر (1915 / 1995) تاريخ العمل 1952

إهداء

عبر المسيرة النضالية الطويلة، فارقنا رفاقاً مناضلين، قادة بواسل، أخوة أعزاء، أصدقاء رائعين، كانت قضايا الأمة والوطن هاجسهم اليومي... مبدأ أخلصوا له، ناضلوا من أجله، وقضوا في سبيله، ورحلوا بكبرياء تليق بالأبطال... صعد معظمهم أعواد المشانق، وكان آخرون هدفاً لرصاص الاغتيال، أو صموداً، حتى الموت، تحت سياط التعذيب، أو استشهدوا دفاعاً عن هذه الأمة في ساحات القتال...

إن عدد هؤلاء الأبطال كبير، ولكن هذا الإهداء، بصفة خاصة، إلى كوكبة منهم. وإلى ذكراهم، التي لن تنسى أبداً، إلى الذين كانوا فخر جيلنا وشعبنا.

المجد والخلود لجميع شهدائنا، وشهداء الحركة الوطنية والقومية، في العراق وفي ساحات وطننا العربي الكبير.

عبد الكريم مصطفى نصرت	عميد ركن مظلي	اغتيل 1969
سليم عيسى الزئبق	قائد حزبي	توفي 1969
عبد الودود عبد الجبار	ضابط درع	استشهد تحت التعذيب 1970
ريحان كريم	ضابط	أعدم 1971
سمير زينل	مقدم طيار	استشهد في الجولان 1973
حسين نايف	ضابط درع	استشهد في الجولان 1973
حاكم الخزاعي	ضابط درع	استشهد في الجولان 1973
أحمد العزاوي	قائد حزبي	اغتيل 1977
وليد محمود سيرت	لواء ركن	أعدم 1979
شوكت دهام	ضابط	أعدم 1980
ريحان خزعل	ضابط	أعدم 1988
ثجيل جديع الشحماني	ضابط	أعدم 1988
محمد عبد الطائي	قائد حزبي	أعدم 1993
معن وهيب	قائد حزبي	أعدم 1993
صبحي محمد داؤد	ضابط درع	استشهد نتيجة التعذيب 2000
عبد العزيز حميد السامرائي	ضابط	أعدم 2000
عبد الحسين عبد الأمير	رائد طيار	أعدم 2002

مقدمة

ابتسم... ابتسم... بعد شويه... ابتسم... هكذا كان المصور يصدر تعليماته إليّ كمصور محترف ومشهور في بغداد، كونه مصور اللقطات الجميلة والسعيدة. وكان ذلك بعد أيام قليلة فقط من خروجي من السجن، صورة تصلح لجواز سفر، للذكرى، أو تلبية لرغبة العائلة بوصفها الصورة الأولى في الحرية. ولكن هذا المصور الماهر كان يجهل بالطبع ما الذي يعانيه إنسان مثلي، يتعرض للتهشيم من دون هوادة منذ عشرين عاماً! ومن عذابات لا يمكن حتى تخيلها، منها: أنه لم يشاهد زوجته وأولاده طوال هذه المدة، ستة عشر عاماً يرزح في سجن أبو غريب، لم يتسلم فيها سوى رسائل معدودة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة.
ستة عشر عاماً، على وجه التقريب، هي، تحديداً:-

189	شهراً
813	أسبوعاً
5960	يوماً
13560	ساعة
8193600	دقيقة

أفقت من أفكاري على صوت المصور... ابتسم ...ابتسم، وتذكرت، من فوري، الجملة الأخيرة، التي بها أنهى كونستانتان جورجيو روايته الشهيرة "الساعة الخامسة والعشرون"، عندما طالب المصور بطل الرواية يوهان مورتيز بالابتسام لكي تكون الصورة جميلة، كأن ما ينقصه هو فقط أن يبتسم لكي تصبح الصورة جميلة Smile …. Just smile، تلك الجملة كانت الخاتمة في رواية جورجيو، ها أنا أضعها، جملة أولى، في هذا العمل، الذي أقدمه إلى القراء في بلادنا بدرجة رئيسة... ولكن لماذا هذا الكتاب؟

باديء ذي بدء، أقول إنني لم أكن أريد أن أدون يوميات أو مذكرات عن تجربة سجن أبو غريب العميقة، وهي مؤلمة، قبل أي وصف آخر، مرحلة وتجربة طالت واستطالت حتى بلغت ستة عشر سنة، هي من أكثر مراحل سجن أبو غريب ظلاماً وقهراً. (قبل أن يزيدها الاحتلال الجائر ظلماً وسواداً أضعافاً مضاعفة) لم أكن أشأ أن أكتب عن تلك السنين إذ لا شك أن ذاكرتي تحتفظ بذكريات مريرة... والمسيرة كانت تنطوي على صور مؤسفة، إلى جانب الصور المشرقة، ولكننا نريد، هنا، تجاوز الصور المؤسفة لنركز على الصور المشرقة، على الطيبين من أبناء شعبنا، وهي الصورة العامة الغالبة.

إنـي لم أشأ أن يكون هذا العمل من أدب السجون، فأنا لم أتناول الموضوعة على نحو يوميات أو مذكرات، بل جوهر التجربة إنسانياً وسياسياً وثقافياً. لقد توخيت الدقة في المعلومات التي أوردتها، فما أؤكده فهو أكيد، أما تلك المعلومات المسموعة والمنقولة، التي تدور في إطار الشائعات، فهي تسيء، (برأيي) إلى التاريخ أو تقلص من الحقيقة أو تعمد إلى المبالغة في الوقائع والمعطيات، التي لا تفيد بلادنا ولا قضية الحقوق الأساس للإنسان العراقي.

إن الرفاق والأصدقاء والأخوة والزملاء الذين عاشوا تجربة سجن أبو غريب، في الحقبة ما بين 1987-2002، وأقدر أعدادهم بنحو 13000 - 13500، واحتمالات الزيادة والنقصان قليلة. وهناك نزلاء حصلوا على مراسيم عفو خاصة وعددهم بسيط، ومن توفي في السجن لأسباب صحية، وهم بين عشرين وخمسة وعشرين نزيلاً، كانت وفاة بعضهم مفاجأة كبيرة مثل الرفيق العزيز سالم حسن، والأخ عبد اللطيف والمرحوم نجم عبد الله السعدون، واستشهاد الرفيق معن وهيب، الذي أعدم لمواصلته النضال داخل السجن، وإعدام الشاب عوده ديوان والي، وانتحار المرحوم أحمد الغزي، ولن يفارقني، إلى الأبد، منظر شقيقته، التي جاءت إلى السجن للمواجهة ففوجئت بوفاة شقيقها، ولا يمكنني مطلقاً أن أصف منظرها، وتغالبني الدموع كلما تذكرتها. وهناك

حادثة إعدام سبعة عشر من النزلاء في العام 1991 كما أن عدداً محدوداً من النزلاء تمكن من الفرار من السجن.... إلى الجميع تحية وفاء.

هناك حشد كبير جداً من الرفاق والأصدقاء والأخوة الذين يستحقون التحية، وعددهم كبير جداً، وأخشى أن تخونني الذاكرة في بعضهم، لذلك وتجاوزاً لهذه الحالة.... تحية محبة إليهم جميعاً.

لا أريد أن أشيد بأحد، أفراداً أو جماعات، كما أنني لا أريد أن أدين أحداً كفرد، همنا اليوم أكبر من ذلك بكثير، بكثير جداً، وما شهدته بلادنا، بعد الاحتلال، يفوق بأضعاف مضاعفة ما كان يحدث قبل ذلك، أريد القول كفى للحكام والمحكومين، كفى.... فقد تحطم الإناء، الذي يجمعنا، وصرنا بفضل سوء تقديرنا للأشياء أعداء بعضنا، فلنرغم أنفسنا على احترام أرادة الآخر وفكرته، فليس سوى ذلك يجنبنا العذاب المستطير.

أردت من تسجيل هذه الأحداث لتكون مصدراً موثوقاً لما جرى، لكي لا تضيع التجارب، صغيرها أو كبيرها هباء.

كل تضحية رخيصة من أجل بلادنا وشعبنا

ضرغام

1

كل إنسان له الحق في المجازفة بحياته من أجل الحفاظ عليها

جان جاك روسو

الاعتقال ـ المحاكمة ـ الحكم

الأحد - 5/ كانون الثاني/ 1987

عندما فتحت عيني، حيث كان أخي وسام يبذل جهده لإيقاظي بصفة يخفف فيها الصدمة إلى أقصى قدر ممكن، ولكن أنى له ذلك، فقد فتحت عينيّ على جندي يرتدي الثياب المرقطة يصوب بندقيته الآلية صوبي ولا تبعد فوهتها أكثر من متر واحد عني، وكأنني عصفور نادر يخشى أن يفلت من يديه، بل من مرمى بندقيته.

والغرفة، التي لا يمكن عدّها فسيحة، كانت مليئة بالجند المدججين بالسلاح، وهناك شاب، ربما في الثلاثينات من عمره يصدر الأوامر بصوت رزين، مما لا يدع مجالاً للشك أنه قائد هذه المجموعة أو لنقل المأمورية.

لم تكن بنا حاجة إلى برهة طويلة لمعرفة كيف حدث هذا الأمر، فهناك خرق ما في مكان ما من عملية لم تكن منسقة كما ينبغي، برغم أن أطرافها جميعا كانوا على درجة من الوعي والتجربة السياسية.

كانت السلطات قد منعتني من السفر للعودة إلى ألمانيا حيث تقيم عائلتي، وكنت، قبل ذلك، قد قدمت استقالتي من وزارة الخارجية احتجاجاً على سوء المعاملة، وبذلك قطعت كل صلة لي بأي دائرة من دوائر الدولة، كما حرمت أيضاً من راتبي التقاعدي وباءت الجهود كافة للخروج من البلاد بصفة شرعية بالفشل، بما في ذلك محاولات بذلها أصدقاء لي، وحصولي على عقد عمل ممتاز في إحدى دول الخليج. وكانت السلطات تصر على إبقائي في بغداد وتعمل على كل ما يضايقني ويؤدي إلى هذا الهدف: البقاء في العراق والعمل في دائرة حكومية تعينها هي، بما يؤدي إلى وضعي تحت أنظارها وسيطرتها، وكان أفضل ما توصلت إليه بهذا الصدد هو العمل في الجامعات العراقية، فيما كانت عائلتي: (زوجتي وطفلان) ما يزالون يقيمون في ألمانيا في ظروف صحية ومعيشية ونفسية يصعب فيها الانتقال إلى العراق، ثم تحول الأمر برمته إلى موقف مهين يصعب احتماله.

أما بالنسبة إليّ، فقد أتضح بصفة مؤكدة، أن الإقامة والعمل في بغداد أصبحت ضرباً من ضروب المغامرة ومجازفة لا حدود لها، فقد كانت الثقة في أوطأ درجاتها. وإذ لم تكن السلطات تمتلك معلومات مؤكدة عن نشاطي السياسي، ولكنها كانت واثقة أنها تعاملت معي بقسوة وفظاظة بما يكفي ليضعني في صفوف المعارضة الناشطة في الخارج، وتلك السلطات لم تكن تريد أن تهديها شخصاً مثلي.

والواقع، فأن السلطات كانت قد تعاملت معي طوال سنوات بريبة، فبالنسبة للسلطات، ليس سوى العمل الحزبي والتعاون، وعدا ذلك يوضع المرء في دائرة الريبة والشك، وكنت، أساساً، شخصية غير مرغوب بها، إذ كنت من القلة القليلة من موظفي وزارة الخارجية، خارج إطار عمل الحزب الحاكم، فيما كانت مواقفي وأرائي تبدو مزعجة، كما أنني لم أكن من هؤلاء الذين يحرقون البخور ويطلقون المدائح والتزلف للقيادات. فقد كنت أريد العمل على وفق مقاييس العمل والكفاءة العلمية والوظيفية، لا أكثر ولا أقل... ولكن ذلك كان صعباً، بل يكاد أن يكون مستحيلاً.

بعد مضي ثلاث سنوات ونصف، كانت جهودي لمغادرة العراق، بصفة نظامية، قد ذهبت أدراج الرياح. وكانت عائلتي ما تزال في برلين (ألمانيا) وأظهرت السلطات إصراراً متزايداً على إبقائي في العراق خلافاً لإرادتي فعينتني مدرساً في جامعة المستنصرية (معهد دراسات آسيا وشمال أفريقيا)، وكنت قد فقدت الأمل نهائياً في نيل معاملة عادية، بل أنني كنت أتوقع المزيد من تدهور موقفي حيال السلطات، وحتى العمل الجامعي الأكاديمي لم يكن ليخلو من احتمالات سلبية، ذلك أن العمل الجامعي كان مشحوناً بالفعاليات الدعائية والتحريض، وزج الكادر التدريسي في أنشطة لا علاقة لها بالتقاليد الجامعية الرزينة، بل وتتعارض معها في معظم الأحيان.

ومن نافلة الكلام القول إنني لست معادياً للاتجاه القومي الاشتراكي، ولكن هناك تباعداً في مواقعنا الفكرية والسياسية ضمن هذا التيار في مفردات وتفاصيل عديدة ابتدأت منذ العام 1963،

واستمرت في التفاعل حتى العام 1968 فغدا تناقضاً وتنافراً، ثم تطور إلى ملاحقات وتصفيات، حتى طغت المفردات والتفاصيل لتصبح أولويات وشعارات رئيسة، ثم تعاظم دور الفرد في مصير الشعارات الرئيسة.

والاستطراد بعيداً في عرض هذا الموضوع، يقتضي سرد تاريخ الانشقاق، الذي جرى في الحزب، منذ الستينات، وكان لي فيها موقف واضح بتفاصيل لا مجال لذكرها هنا، ولم أكن أشأ أن أوظف تلك المواقف 1963 - 1974 في المراحل اللاحقة. وعلى هذا الأساس، ولكن السلطة كانت لا تقبل إلا بالعمل الحزبي والتعاون وهو ما كان يتعذر عليّ القبول به، فغدت الحياة في بلادنا والعمل في مؤسساتها أشبه بالسير في حقل مليء بالألغام شديدة الانفجار، أو كالتعايش مع نمر كاسر في قفص واحد لا تدري متى ينقض عليك فيلتهمك. وباختصار فأن الأمن والأمان والثقة كانت شيئاً مفقوداً، هذا بالإضافة إلى المتراكم التاريخي وموروث الذكريات المؤلمة، وفقداني شخصياً ونضالياً لعدد من الرفاق والأصدقاء أمراً يبعدني عن مواقع حزب السلطة، فعدا ذلك كله فأن تراكماً جديداً قد تحقق بفعل وشايات وتقارير عناصر تافهة كانت تناصب العداء كل شخصية تظهر الاستقلال في آرائها واحتراما لذاتها. وفي نهاية الأمر فأني لم أكن مستعداً للتراجع عن مواقفي الفكرية والسياسية والقبول. فإن ذلك أمر يفوق قدرتي، ذاتياً وموضوعياً.

إذن لابد من مغادرة البلاد، نعم، وبأي ثمن. وحسبي قول أحد ملوك إيطاليا في القرون الوسطى: "إنني أفضل الحرية مع الخطر على السلم مع العبودية"، لذلك قمت عن طريق صديق موثوق، هو صديق طفولتي وصباي، الأخ بيرود الطالباني بالاتصال بشخصية قيادية كردية معروفة وهو صديق قديم لي، لتسهيل انتقالي إلى شمالي الوطن، إذ أن هناك مناطق خارجة نسبياً أو كلياً عن سيطرة السلطة، ومنها السفر إلى ألمانيا سواء عن طريق تركيا أو الاتحاد السوفيتي.

أما الآن، وقد اتضحت خيوط المسألة، فيما بعد، وكان الشخص، الذي كلفته الشخصية القيادية الكردية، للأسف عميلاً للأجهزة الأمنية، وقد كشف اعتقالنا أمر خيانته، كما كشفت الأجهزة (الاستخبارات العسكرية) عمالته، إذ أنها اعتقدت أن الصيد كان ثميناً يستحق معه إشهار شخصية هذا العميل وافتضاح أمره. وهكذا علمنا خيانة عمر علي جرمكا، وذلك هو اسمه الحقيقي، ولكن ثمن تلك الخيانة كان باهظاً، بل باهظاً للغاية.

أركبونا جميعاً في سيارة واحدة، كل الرجال الموجودين في دار صديق آخر، الشخصية الكردية المعروفة الأستاذ كمال الشالي، المدرس في كلية الزراعة/ جامعة السليمانية، حيث كنا نبيت في داره استعداداً للسفر صباح يوم 5/ كانون الثاني، ألقي القبض علينا. أقول علينا، نحن الثلاثة المتوجهين للخارج، أنا وأخي وسام وصديقنا سلام مدلول، بالإضافة إلى الصديق بيرود الطالباني وصاحب الدار صديقنا الأخ كمال الشالي، وصديق آخر هو الأخ آزاد كان رفيق رحلتنا من كركوك إلى السليمانية. ثم أننا حاولنا، من فورنا، برغم أن عيوننا كانت معصوبة وأيدينا مقيدة إلى الخلف بالإضافة إلى تأثير الصدمة، حاولنا أن ننسق بيننا موقفاً نواجه به التحقيق.

وفي غرف توقيف مكثنا فيها، ربما لساعة أو أقل في مركز استخبارات السليمانية، تخلصت من بعض الأشياء كانت في جيبي، مادية ومعنوية، جرى تسفيرنا، بعدها، تحت حراسة مشددة، إلى كركوك حيث أودعنا موقف استخبارات الفيلق في معسكر كركوك. والتحقيق، الذي كان ابتدائياً، لم يكن القائم به يحرص على سماع تفاصيل، إذ اكتفوا بمعرفة هوياتنا معرفة دقيقة، وبعد التأكد منها جرى تسفيرنا، بعد مبيت لليلة واحدة فقط، إلى بغداد، مديرية الاستخبارات العسكرية في الكاظمية. وقد تمكنت من معرفة الطرق والشوارع، التي نمضي فيها، برغم أن عيوننا كانت معصوبة، فبغداد هي روحنا وكيف لا يعرف المرء شرايين روحه.

الوقت كان ليلاً، واستغرقت الرحلة من كركوك إلى بغداد ردحاً من الزمن، وتمت عملية تسلمنا في ظروف لا يمكن وصفها أنها اعتيادية، ولا تخلو من ضربات عشوائية لا معنى لها، مع شلال من السباب والشتائم، التي تفتقر، بصفة تامة، إلى الأدب والأخلاق العامة، ناهيك عن القانون الغائب ذكره وتطبيقه. والحقيقة أنني لم أكن أفهم مغزى ذلك فقد نكون مذنبين من وجهة

نظر السلطات (بهذا القدر أو ذاك)، وقد نستحق المحاكمة والعقاب، ولكني لا أفهم معنى الشتائم والضرب، الذي لا ينطوي إلا على معنى واحد، هو أن هؤلاء الحراس اعتادوا الإهانة، أخذاً وعطاء، وفقدوا حتما الكثير من صفات البشر المحترمين، ولكن من يهتم؟... فالأمر لا يدور عن احترام هنا، بل أنني كنت في كثير من الحالات أتطلع بعمق إلى وجوه المضطلعين بعمليات الضرب والتعذيب وحفلات الشتائم والإهانات، ترى هل كنا نسير وإياهم في شوارع هذه المدينة، هل يضمنا جميعاً هذا الوطن الحبيب؟.. أم ترى، ويا للفزع، ربما دخلنا مطاعم ومقاهي مشتركة. الأمر به حاجة حقاً إلى علماء في الهندسة الوراثية.

وإن شئت أن تطلق العنان لأفكارك وتتذكر روايات ومسرحيات وأفلام سينمائية، عن بشر تتقمصهم، إلى حد غريب وخيالي، شخصيات وأخلاقيات حيوانات كاسرة، ذئاب، كلاب متوحشة، أو جرذان كبيرة الحجم مميتة في قرضها، وتصيب من تقرضه بعدوى حيوانية... ولطالما تذكرت مسرحية "الرجل الذي تحول إلى كلب" وهي باختصار شديد، تراجيديا إنسان عاطل عن العمل تضطره الفاقة إلى العمل ككلب حراسه بدل الكلب، الذي نفق في مخزن يملكه صناعي بورجوازي، ويدفع له ما كان يكلف الكلب من نفقات، واندمج الرجل بدور الكلب فصار ينبح بمناسبة ومن دونها، ويستخدم أطرافه، وتفاصيل مؤلمة أكثر مما هي ممتعة، كنت أتذكر أشعاراً جميلة وموسيقى وأعمالاً فنية تحلق بنا بعيداً عن الواقع السخيف ولنهرب من الصورة البشعة، ولكن سرعان ما نستيقظ على وقع ضربة أو صراخ تعذيب وشتائم، وإياك أن تضحك أو تبدو عليك ملامح السخرية.

وموقف مديرية الاستخبارات العسكرية (السياسي) والذي يطلق عليه الشعبة الخامسة، هو أسوأ موقف شاهدته في حياتي، وأنا أمتلك تجربة طويلة بالمواقف والمعتقلات، فهو أسوأها لجهة المكان والإدارة، وتضيف الصرامة العسكرية مزيداً من الظلال القاتمة حتى ليغدو حالكاً وقاسياً. فالزنزانات الصغيرة، التي لا تتسع منطقياً (وأي منطق!)، إلا لثلاثة أشخاص، كانت تضم ما لا يقل عن 12 شخصاً. ولا يمكننا الحديث عن الراحة أو النظافة أو عن طعام مشبع، فتلك مصطلحات على المرء أن ينساها نهائياً.

ابتدأ التحقيق، بعد يوم أو يومين، واستغرق وقتاً طويلاً معي بالذات، لسبع مرات وعلى يد ثلاث محققين. وقد ابتدأ المحقق، في مستهل الجلسة الأولى، قائلاً إنه يعرفني، بصفة جيدة جيداً، ويمتلك المعلومات كافة عن تاريخي السياسي... وأضاف أنه متأكد أنني أمين سر القيادة القطرية للحزب... حزب البعث العربي الاشتراكي (الجناح اليساري للحزب ومقر قيادته في دمشق)، وهم يطلقون على هذا التنظيم (المنشقين) فيما نطلق نحن عليهم... اليمين.

ومن هنا تأكد لي أنهم سيواصلون الإلحاح على هذه النقطة بالذات، فتلك تهمة خطرة، وليس المهم مآل هذه التهمة بقدر ما هو الضغط ألبدني والنفسي، الذي سوف يسلط عليّ، كما سوف يطلب مني الإجابة عن أسئلة لا أعرف أجوبتها، لأنني كنت قد قطعت الصلة التنظيمية مع الحزب منذ العام 1974، بل وأني منذ العام 1970 وحتى 1974 كنت أمارس واجبات حزبية لا علاقة لها بتنظيمات الحزب في العراق، إذ انحصرت مهماتي الحزبية، على متابعة العراقيين القادمين والمقيمين في سوريا، بالإضافة إلى واجبات قومية. ولكن من البديهي أن يبقى ولاء المرء وإخلاصه لحزب تفانى في خدمته، وهو حي في قلب الإنسان وعقله. وقد يختلف المرء مع أفراد ولكنه لا يختلف مع أهداف الأمة وشعاراتها.

فقلت للمحقق بكل برود، إن تصوره هذا غير صحيح، وإني منصرف، بصفة تامة، إلى البحث العلمي والكتابة والترجمة، وإن مؤلفاتي وأعمالي تشير بوضوح كاف إلى هذه الفعاليات، وإن قدرة الإنسان ووقته لا يسمح له بأكثر من ذلك. فحدث انفراج بسيط عندما قال، نعم إنه لا يملك دليلاً مادياً واضحاً على ذلك، ولكنه، وبناء على الأدلة الحسية (كانت هناك تقارير كثيرة قد كتبت ضدي في ألمانيا وبغداد)، فأنه سيظل على قناعته إلى أن يتوصل إلى إثباتها.

ثم أن التحقيق استغرق وقتاً طويلاً بسبب ضيق أفق المحققين أو سخافتهم. فأكثر من مرة كان يشتد فيها حنق المحقق فينتفض قائلاً إنه هو أيضاً مثقف ولست أنت فقط. ولعل أن المحقق شعر

بشيء من الهزل والسخرية في أقوالي، وأنا لا أنكر أنني كنت أحاول أن أحافظ على الفارق في المستوى: سياسياً، بين مناضل ومحقق، أو بين دبلوماسي وأستاذ جامعي وكاتب (كنت في ذلك الوقت عضواً في اتحاد الأدباء والكتاب، وقد نشر لي حتى ذلك الوقت خمسة كتب وثلاثة تحت الطبع، وعضواً في الجمعية العراقية للعلوم السياسية)، وبين ضابط غاوي ثقافة مهنته الرئيسة الحرب والضرب. ولكن ضرب أعداء البلاد، وليس إخضاع الناس إلى تحقيقات سياسية مهينة. نعم، كان يحاول إهانتي ولكنه لم يبلغ ذلك قط، وكنت أبين له أنه أقل من أن يقدر على ذلك، أقل بكثير... فأنا ممتليء كبرياء واعتزازاً بنفسي وبما فعلت، وهذه ليست سوى خربشات على جدار عالٍ، وأنا حريص على إبقائه عالياً.

وعندما حاول أن يجرحني بشتم التنظيم، الذي انتميت إليه وسب أبرز شخصياته: الأمين العام للحزب، أو الرفيق أحمد العزاوي والرفيق باقر ياسين، كنت أتعمد تحويل الموضوع وأجيب عن أسئلة كان قد طرحها علي، فقد سألني عندما وجد بين أوراقي مخطوطة لعمل مسرحي بعنوان (الناس والأمل والمستقبل) وجوهر الأحداث والعقدة الدرامية للعمل كانت تدور في مرحلة حرب حزيران/ 1967، وإن كانت تنطوي على رموز كثيرة. وبدا أن المحقق بالغ العصبية والضيق، ولم أكن أفهم معنى ذلك. فهو يسأل، مثلاً، بجدية تامة: لماذا أكتب مسرحيات، وكانت أي إجابة يمكن أن تؤدي إلى أسئلة أخرى، فأجيبه مثلاً: قتلاً للضجر والملل. ولكن الأمر لم يكن لينتهي بهذا الجواب كما كنت أتوقع، فيسأل مجدداً: هل تعتقد أنك كاتب مسرحيات جيد؟.. فأقول له، لا أعلم فذلك أمر يقرره القراء والمشاهدون. فينتفض قائلاً: وهل كنت تنوي نشرها أو عرضها على خشبه المسرح؟.. فأجيبه بكل برود: لا أعلم، فالأمر يتعلق، أولاً وأخيراً، بنشر العمل وتسويقه تجارياً.

كما أنهم عثروا بين أوراقي على مشاريع أعمال ذات طابع استراتيجي مثل: أخطاء استراتيجية فادحة، والبحث يدور عن أخطاء القيادات المتصارعة خلال الحرب العالمية الثانية. ولم يكن يسرهم وجود مثل هذه الأعمال، ولكني كنت أواصل اللعب معهم، معصوب العينين.

ذات ليلة طلبني المحقق، وكانوا يفعلون ذلك، بصفة مهينة (لمن يشعر بالإهانة)، بتوثيق الأيدي إلى الخلف وتعصيب العيون والسير حافياً مرتدياً دشداشة آية في القذارة. وفور وقوفي أمامه، سألني، بلهجة جادة تماماً: من يكون العقيد هشام؟. ولبرهة وجيزة جداً، أذهلني هذا السؤال، ولكن أذني التقطت صوت تقليب أوراق، فأدركت، من فوري، أنهم يعبثون بمحتويات حقيبة الأوراق التي كانت معي. وأن هناك ظرفاً كبيراً كتب عليه العنوان باللغة الإنكليزية هكذا: Coll. Hesham، وهكذا فإن السيد المحقق أعتقد (خطأ بالطبع) أن .Coll هي مختصر كلمة عقيد، ولم يكن يعلم، وما أكثر الأشياء التي لا يعلمها، أن مختصر كلمة العقيد هو .Col.

ووجدتها فرصتي للعب بأعصابه، فقلت له متسائلاً: عقيد؟. قال نعم عقيد. فقلت، بعد برهة تفكير، كان فيها محققي يحرق فيها أعصابه، فقد أعتقد أنه وضع يده على سر خطر، قد يقوده إلى تنظيم عسكري. فقال بنفاذ صبر: عقيد أو غير عقيد، من هو، أعترف حالاً. فقلت له هناك مقدم فطار شوقاً وقال: ومن يكون. قلت له شقيقي هشام وهو مقدم في الجيش. فأصيب بخيبة أمل شديدة، ولكنه مع ذلك أعاد الكرة بغباء: لا، أنه عقيد فمن هو؟. فأدركت أن لابد من وضع نهاية لهذه المهزلة، وإلا فإن إثارة أعصاب المحققين بشدة، عملية غير محمودة العواقب، فقلت له بصوت تعمدت أن يكون هادئاً جداً: أنت تقلب أوراق حقيبتي أليس كذلك؟ وهناك ظرف كبير الحجم باللغة الإنكليزية؟ فقال بضيق نفس، نعم، وهل تتصور إننا نجهل الإنكليزية؟. فقلت له: بالتأكيد لا، ولكن مختصر عقيد هو .col وما مكتوب على الظرف هو .Coll وهو مختصر كلمة زميل، وهشام هو أستاذ في كلية التربية البدنية، والرسالة هي لي تتضمن الموسم المقبل للدراسات العليا في جامعة بيتسبيرج في الولايات المتحدة الأمريكية، وفرصة المشاركة في كورسات الدراسات العليا.

ومن أهم ما عثروا عليه، بين أوراقي، مشروع مقال بعنوان "النداء الأخير قبل غرق السفينة" وهو لما يكتمل بعد، أشير فيه إلى أزمة النظام العربي (هذا الكلام في العام 1986!)

بصفة عامة والمشكلات التي تواجهها، وضرورة إتاحة سقف أعلى للحريات الفردية والثقافية. وبرغم رصانة المقال وعدم تحديده لجهة معينة أو نظام معين، إلا أن المحقق (وفيما بعد الحاكم) عدّ أن المقال يقصد القيادة في العراق، وعلى هذا الأساس بنى قناعاته اللاحقة وبموجبها أحلت على وفق المادة 208 المتعلقة بالمطبوعات أو الكتابات إلى محكمة الثورة وحكم علي بموجبها.

مناقشات طويلة ومجادلات، ربما لم يكن لبعضها علاقة بالتحقيق، فقد كنت أشعر وكأنني حيوان جميل، نادر أو ثمين بين أيديهم. لسبع جلسات طويلة اشترك فيها عدد من المحققين، بينهم ضباط كبار من الاستخبارات العسكرية، وكان الحديث فيها يدور حول أشياء سخيفة أحياناً، أو في محاولات بائسة لاستعراض (ثقافتهم). أما أنا، فقد كنت أدرك أن نهاية مهزلة التحقيق هذه ليست هنا، على الأقل بالنسبة لي، وإن مصيري سوف يحسم في مكان آخر، ولا قيمة، البتة، لأراء هؤلاء المحققين، وعلى الأرجح فإن مصيري سيكون الإعدام، إذ هي فرصة للتخلص مني، وإن كانت الأسباب الداعية إلى ذلك لا تستحق ذلك، بل تسديداً لفواتير قديمة بعضها يعود إلى مرحلة 1964 وما بعدها، ثم مرحلة السبعينيات في سورية، وأخيراً مرحلة 1974، إذن، فالمستحقات قديمة وجديدة، ولا علاقة لها (تقريباً) بموضوع مغادرة البلاد وما يدور من تحقيق أو ما سيسفر عنه من نتائج هو أمر ليست له قيمة كبيرة.

وفي ختام جولات التحقيق السبع، أرغمني المحقق على توقيع إفادة كنت معصوب العينين خلالها بما لا يسمح لي بالإطلاع على مضمونها وما يمكن أن يكون مدون فيها، وكانت هذه آية في العدالة والأصول القانونية! ولا أستطيع أن أفهم، إلى الآن، لماذا كانت هذه الأساليب معقدة وسخيفة إلى هذا القدر؟ على كل حال، وقعت تحت التهديد، إلا أني قلت له، إنني أعلم أن هذا التوقيع يعني الإعدام وهو ما لا يهمني مطلقاً. فاعتقد المحقق إنني أبالغ في قولي مبالغة لا داعي لها، فسخر من كلامي. فقلت له: إن هذا ليس مهماً، المقابر مليئة بقبور البشر، ومن المؤكد أن الإنسان يموت لأسباب مختلفة معظمها لا دخل لكم بها.

كان موقف الشعبة الخامسة في مديرية الاستخبارات العسكرية محطة، تسفر الموقوفين، بعد انتهاء التحقيق معهم، إلى جهة أخرى. وعلى هذا الأساس فقد كانت الزنزانات تشهد تبدلاً سريعاً في الوجوه، ولكن هناك وجوهاً لن تنسى، منها الشاب مصدق، الذي كان مثالاً للنبل والأخلاق، ومع الأسف، فقد حكم على هذا الشاب الطيب بالإعدام .

كانت ليلة 2 – 2 – 1987، وبعد انقضاء التحقيق بيوم واحد، جرت فيه عملية نقلنا. وعملية التسفير كانت زاخرة بالشتائم والضرب العشوائي، الذي لا معنى له، وكانت التسفيرات تعني أيضاً سرقة واضحة لما يمكن أن يكون في جيوب أو متاع الموقوف، فقد تم، بهذا المعنى، سرقتنا حتى من أبسط حاجاتنا... وكم كانت هذه الأشياء مخجلة قبل أن تكون محزنة.

عندما وصلنا إلى بوابة السجن العسكري رقم واحد، وبرغم أن عيوننا كانت معصوبة، وأيدينا مقيدة إلى الخلف ووضعنا مزر، كان نسيم الليل البارد منعشاً ويتسلل إلى أعماق القلب، ولكن ما كان بانتظارنا أمام بوابة السجن كان شيئاً فظيعاً، فقد وضعونا وسط دائرة، تحلق الجنود حولنا وانهالوا علينا بالضرب بكل ما في أيديهم: عصي، أعمدة خيام، توصيلات كهربائية (كيبلات)، أنابيب مطاطية (صوندات)، بل كان الحماس الوحشي ومتعة التعذيب قد أوصل بعضهم إلى خلع النطاق العسكري واستخدامه في الضرب.

والآن، وبعد انقضاء ذلك كله، أليس في هذا مدعاة للخجل؟... ترى ألا يخجل، اليوم، الذين اقترفوا هذه الأعمال؟... لست مبالغاً على الإطلاق فيما أذكر من حقائق، بل على العكس، فأنني أتجاهل الكثير من التفنن في الإهانة والسرقات... ترى هل يصعب علينا، إلى هذه الدرجة، أن نخلق مؤسسات محترمة يقوم عليها رجال محترمون؟ لا يأخذون الأمر على أنه أمر شخصي وعداوة بين المواطن والدولة؟ وإذا كان هناك رجال غير محترمين أو مجرمون، فلتكن الدولة ومؤسساتها محترمة، لا يلجأون إلى الشتائم واستخدام الأطراف العليا والسفلي. إنني أسجل هذه هنا للعبرة فقط... ترى هل نستفيد؟

كنت أعرف هذا السجن بدقة، فقد سبق لي أن كنت هنا نزيلاً في العام 1962، أي قبل خمسة وعشرين عاماً بالضبط. لذلك كنا نسير معصوبي العيون، إلا أنني كنت أعرف ممرات السجن وطرقه الداخلية. وهكذا يعيد الزمن نفسه، فقد أودعونا بالضبط في القاطع نفسه الذي كنت فيه العام 1962، ولكن في الزنزانة المقابلة تماماً. وبرغم فظاظة الحالة، إلا أنني كنت في يقظة ذهنية تسمح لي تذكر تلك الأيام والرفاق، الذين قاسمونا تلك الزنزانات، التي كنا فيها، بكل روح نضالية، رفاقية وأخوية صادقة، فتذكرت فؤاد عبد الله عزيز ورياض محمد يحيى، وخضير عباس وعدنان الجبوري، وصباح عبد الغني عرب، وطالب حمودي، وإبراهيم سلمان القيسي وكثيرين غيرهم من الرفاق من تنظيمنا، وكان هناك أيضاً الرفيق محسن الشيخ راضي عضو القيادة القطرية للحزب (الأستاذ الدكتور في كلية الزراعة فيما بعد).

وفي اليوم التالي، تكررت مهزلة تعصيب العيون وشد الوثاق، لنقلنا إلى مكان آخر تبين، فيما بعد، أنه معتقل خصص للاستخبارات العسكرية، وهو تابع، أصلاً، لقسم الأحكام القصيرة في سجن أبو غريب العام. وهو عبارة عن قاعتين تضم كل منها عشرين زنزانة، كل واحدة منها بحجم 4,5 ×5 متر، وهذا المعتقل كان مخصصاً لمن انتهي التحقيق معه، وهو بانتظار المحاكمة، فهو، إذن، محطة نهائية وبوابة إلى محكمة الثورة (سيئة الصيت) ومنها يتفرع الموقوفون إلى ثلاثة ترع، أو جداول:

الأول: وهو الأكبر، إذ كان يحكم بنسبة تتراوح بين 70 - 80% من الموقوفين بالسجن، وعلى الأغلب بالحبس المؤبد (20 سنة)، أو بالإعدام وهو بنسبة10 %من الموقوفين، وأخيراً تذهب نسبة 5 - 10% إلى السجون الجنائية لأن قضاياها لا تمت إلى السياسة بصلة ولكنها كانت تعرض أمام محكمة الثورة مثل السرقات الليلية، التزوير، انتحال الصفة، إيذاء النفس، الرشوة والعمولات... الخ.

وتنطوي أنظمة هذا المعتقل على قسوة شديدة تهدف إلى إبقاء المعتقل في خوف ورعب دائميين، وعندما يمثل أمام المحكمة، سيكون في حالة يرثى لها من الإرهاق النفسي والمعنوي، بعد تعرض طويل (لا يقل عن أربعة شهور) للإهانة والضرب والضغوط من الأصناف كافة، بحيث يكون وقع الإعدام ليس مؤلماً، بدرجة فظيعة، كما هو متوقع (وإن كان الصمود والصلابة قضية نسبية ومتفاوتة بين الصلابة التامة والانهيار)، أما الحكم بالسجن، حتى المؤبد 20 سنة، فيعدّ هدية تستحق القبلات والتهاني. ومن بين مئات القضايا، التي تعرفت عليها، لم تكن هناك أحكام تقل عن المؤبد، إلا نادراً.

الوضع الغذائي في هذا الموقف كان أفضل من موقف الشعبة الخامسة، وكذلك شروط النظافة (إلى حد ما) ولكنه ما يزال بعيداً عن الحد الأدنى. وبالطبع فأن مواجهة الموقوفين لذويهم كانت مستحيلة، وليس بالإمكان معرفة ما يدور خارج هذا الموقف، وفي انقطاع تام عن الحياة الخارجية، والأخبار كانت محصورة بالقادمين الجدد وهي تدور غالباً حول أمر واحد رئيس: أخبار الحرب مع إيران، وكذلك المؤشرات إلى صدور عفو، إذ كان هذا هو الهاجس الدائمي للموقوفين، وكذلك للسجناء، فيما بعد.

وصرامة الموقف وتشدد الحراس، لم يكن يحول دون قيام علاقات إنسانية ومن غير الممكن نسيان الشاب سامي. وكان شيوعياً من العاملين في الوسط المسرحي، القي القبض عليه خلال عملية عسكرية في الشمال، لذلك كان الحكم عليه بالإعدام أمراً متوقعاً، ولكنه مع ذلك كان محباً للحياة، متمسكاً بها حتى آخر لحظة. وفي ظهيرة يوم كان قد ابتدأ فيه القيظ في العراق، كان أخي وسام في الزنزانة المقابلة لزنزانتي تماماً رقم (4)، يشير إليّ بالاقتراب من القضبان، تناهت إلى سمعي أغنية كنت أحب سماعها، وكانت تلك متعة تفوق التصور في تلك الصحراء البادية، وتصورت أن أحداً من الحراس قد رفع صوت المذياع من دون قصد منه، على أية حال، كانت هذه هدية رائعة، وما لبثت أن علمت أن هذا الصوت الجميل ما هو إلا غناء سامي، الذي ما إن أنتهي من الغناء حتى كلمني من وراء القضبان من دون أن يراني، أنه فعل ذلك لأجلي. أين أنت يا سامي لكي أحتضنك اليوم؟

سامي أعدم مع رفيقه حسين نهاية العام 1987 فآه ثم آه.
وباستثناء يوم الجمعة، كان الموقف يشهد، معظم أيام الأسبوع، احتفالية مؤلمة، يأتي الحراس وبأيديهم القيود الحديد، ثم يبدأون بمناداة الأسماء، أسماء من جاء دوره للمحاكمة، وهنا فالاحتمال قائم، بل مرجح، أن تنتهي المحاكمة في جلسة واحدة، في محكمة الثورة، والذاهبون يودعون، ما أمكنهم ذلك، الأصدقاء والزملاء من الذين تعرفوا عليهم، هنا، غالباً، في الموقف.. والباقون ينتظرون إلى ما بعد الظهر، نحو الساعة الرابعة عودة المأمورين من الحراس ليستعلموا منهم مصير زملائهم.. كانت مذبحة عواطف رهيبة..
كان يوم 6 – 4 - 1987 الاثنين، من أيام النحس، كذلك أيام الخميس لأنها أيام القضايا الصعبة، والتي يُحكم فيها (غالبا) بالإعدام، نودي علينا وكنا أربعة، أنا وأخي وسام وصديقي بيرون الطالباني، وصديقنا سلام مدلول. وفي محاكمة لم تستغرق ربما أكثر من 20 دقيقة أمام محكمة الثورة ورئيسها عواد البندر، هي عبارة عن إهانة للعدل والقانون ولأي نظام سياسي يقيم مثل هذه المحكمة المهزلة... وإنه لأمر غير مفهوم مطلقاً، أن يلجأ أي نظام مهما كانت شعاراته، طبقية كانت أم دينية أم قومية إلى تصفية خصومه، وأضع كلمة (خصومه) بين قوسين، لأنها مسألة نسبية للغاية، ولا أستطيع أن أفهم لماذا يتحايل المحقق وحاكم التحقيق والحاكم على أحكام قانون وضعته الدولة بنفسها، وتتجاهل المبادئ الأولى للعدل والحق، وأن أي محاولة للتذكير بالعدالة والحق والقانون سيكون بمنزلة نكتة سخيفة.
لا يمكن بلوغ الخير بوسائل الشر: هذه قاعدة ذهبية في السياسة والحياة.
لكن التطرف يدفع إلى التسويغ ويستخدم مصطلحات براقة: محاربة الفساد ـ أعداء الثورة ـ إقامة الحد ـ (في هذه يعلقوتها على شماعة الشريعة) وبذلك فأنه يطلق العنان لمنجله، مع الاعتذار الشديد لهذه الآلة المقدسة، التي تأكل العرق وتطعم الخبز!.. (أعتذر والأمثال تضرب ولا تقاس)، لحصد رؤوس الناس وإذا أهتاج لمنظر الدماء وأعتاد عليها، يتحول الأمر كله إلى مأساة، و(الثورة) أي ثورة، إلى حفلة مجازر.
كانت محاكمة قصيرة كما أسلفنا، محاكمة فريدة من نوعها المتهم فيها مدان، قبل بدء المحكمة. وأول حديث للحاكم مع المتهم بعد سماعه لأقوال المدعي العام، التي هي في معظم الأحوال افتراضات وخرافات وتخيلات، يطرح الحاكم سؤالاً: هل أنت متهم أم برئ. وإذا أجاب المتهم أنه برئ، يرد الحاكم عليه: أثبت لنا براءتك؟... وهو يتجاهل، بصفة غريبة، قاعدة قانونية رئيسة ومتفق عليها في فقه القانون تنص على أن: **المتهم برئ حتى تثبت أدانته**، ولكن في محكمة الثورة كان الأمر معكوساً! وكانت محاكمتنا تتم من دون شاهد! محاكمة من دون شاهد، أعدم في نهايتها أربعة رجال!! ترى هل يمكن مسح هذه من الذاكرة والتاريخ؟.. إذا كان في نسيانها خدمة للوطن... سنمسحها لأجل العراق....
توصل الحاكم والمدعي العام إلى تفصيل مدهش لنظرية الشروع البائسة، وقد فندت، ويستطيع غيري أن يفعل ذلك أيضاً، إذا كان مطلعاً على القانون، بسهولة ويسر. ولم يكن بالإمكان مطلقاً تطبيق نظرية الشروع، والمدخل العام لتفسيرها هو التعريف الآتي: فعل خاب أثره بسبب خارج عن إرادة الفاعل. وهو وإن تحقق فيعاقب بالحبس لمدة لا تزيد على الخمس سنوات، هذا إذا كان شروعاً بالقتل!! أما نحن فقد ألقي القبض علينا فجراً في بيت أستاذ جامعي، فحكم علينا على وفق المادة 157– 175 ومادة إضافية بالنسبة إليّ هي 208 (بسبب مقال: النداء الأخير قبل غرق السفينة) والمادة الرئيسة، التي حكمنا بموجبها 157 تنص على أن: " كل من قاتل قوات الجمهورية العراقية مع قوات أجنبية خارج العراق" .
لن أزيد، فالزيادة كالنقصان!...

بدا لي أن الأحكام كانت جاهزة وليس لرئيس المحكمة (إن صح تسميتها بذلك) إلا شرف تلاوتها! وهذه الفكرة كانت شائعة بين المتهمين، تعززها سرعة المحاكمة، وخفة يد الحاكم واتخاذ القرارات، فقد حكم علينا نحن الأربعة بالإعدام شنقاً وعندما غادرنا قاعة (المحكمة)، كان هناك

عدد من الذين حكموا بالإعدام قبلنا، منهم على ما أذكر فائز، وهو رئيس عرفاء في شرطة البصرة، والسيد فرج من القرنة، وشباب آخرين، فبلغ عددنا في ذلك اليوم تسعة.

ومن المدهش أن الحراس والمأمورين يصابون برعب وهلع يعادل أو يفوق ربما في بعض الأحيان رعب المحكومين أنفسهم وهلعهم، وكانت عملية تكبيل الأيدي إلى الخلف تتم في ظروف يعلو فيها الصراخ، والعصبية البالغة من الحراس، ويدهشهم كثيراً من يخرج من قاعة (المحكمة) وقد حكم عليه بالإعدام وهو هادئ الأعصاب متزن الخطوات. أما أنا، فقد كنت مستعداً أتم الاستعداد لمثل هذا اليوم الذي طالما تخيلته، وقد رضيت به دوماً، فأنت عندما تريد التغيير، لابد أن تضع في حسابك رد فعل الآخرين.

أدنُ مني واسمع ندائي
يا شعباً روته نفس الصدور
يا شجرة شدتني إليك الجذور
أقف هنا للدفاع عنك...
عنك أدفع كل الشرور
بأقوى سلاحين...
الكلمة والدم الطهور

مايكل هرماندز
من شعر الحرب الأهلية الأسبانية

قاطع الإعدام ـ سجن أبو غريب ـ قسم الأحكام الخاصة ـ النزلاء: العدد ـ المهن ـ التحصيل الدراسي ـ المحافظات ـ الديانات والقوميات

وصلنا إلى قسم الأحكام الطويلة (أو ما يطلق عليه الثقيلة) في سجن أبو غريب، حيث يكون قسم الإعدام (ويسمى أحياناً المغلق)، كما أن هناك دائرة خاصة بالمحكومين بالإعدام يطلق عليها (القلم السري) تتولى تسلم المحكوم عليه بالإعدام، وتعد أضابير خاصة به حمراء اللون، وهناك

استمارات تملأ تضم تفاصيل عن هوية الأفراد، تفاصيل غير عادية، العلامات الفارقة، منعاً لأي التباس عفوي أو متعمد. وبعدها يتم تسلم كل شيء من المحكوم عليهم، وكل شيء يشمل أي شيء عدا منشفة صغيرة، ودشداشة أو بيجامة، وبطانية واحدة، ومصحف ومسبحة.

وهناك ثلاثة أقسام للمحكومين بالإعدام يكون إشغالها حسب الاكتظاظ، والمحكومون بالإعدام في القضايا الجنائية ينتظرون زمناً أطول من السياسيين بسبب إمكانية تميز الأحكام، أما القضايا السياسية وأحكام محكمة الثورة فقد كانت غير خاضعة للتمييز. وكل قسم هو عبارة عن قاعة واسعة مؤلفة من طابقين يحتوي كل طابق على نحو 15 زنزانة في صفين متقابلين يفصل بينهما ممر بعرض نحو 10 أمتار والطابق الأعلى يطل على الطابق الأسفل، وهناك ممر ضيق ربما بمتر واحد في الطابق العلوي أمام زنزانات الطابق العلوي، أما المدخل إلى القسم فهو في وسط القسم تماماً بحيث يفصل صف الغرف إلى شطرين ليشكل مدخلاً إلى القسم بعرض وطول زنزانة له بوابتان. لفتحهما وغلقهما وقع عجيب يصعب وصفه.

أما الزنزانات، فهي صغيرة جداً 2x2,5 متر مخصصة لفرد واحد، أو اثنين، ولكنها كانت تزدحم بما لا يقل عن 10 أفراد في كل زنزانة، بالإضافة إلى وجود مرافق صحية وحنفية ماء في ركن الزنزانة مكشوفة لا يسترها ساتر، لأجل المراقبة، ولكن النزلاء كانوا يقيمون ساتراً من البطانيات في أوقات محددة من اليوم لقضاء الحاجة والاستحمام.

وزعنا على الغرف، وكنت في الزنزانة رقم 24 ، وقصتي مع الرقم أربعة، مفارقة عجيبة، فجميع الغرف والزنزانات، التي مكثت فيها، كانت تحمل الرقم أربعة أو أربعة عشر، وآخر زنزانة مكثت فيها سبعة سنوات متواصلة خرجت بعدها إلى الحرية، كانت تحمل رقم أربعة، ولكن بعد 16 سنة.

استقبلني الأخوان في الزنزانة أفضل استقبال وكانوا: كريم، وهو جندي في القاعدة البحرية في أم قصر، وشقيق فائز، الذي حكم عليه بالإعدام معي في اليوم نفسه، طراد نصر الله، وهو من رفاقنا القدماء الرائعين من الناصرية، والرفيق وداد، وهو من رفاقنا أيضاً من سوق الشيوخ، كان لي بمنزلة الولد أو الأخ الصغير، كريم، وهو من الأخوان المسلمين، من أهالي الرمادي، أبو مقداد، وهو معلم مدرسة، إنسان رائع الأخلاق والشهامة من أهالي المدينه قضاء القرنة/ بصرة، ومعنا شاب كردي من أهالي السليمانية وأخوان آخرون، رحمهم الله جميعاً.

لقد تعرضت مرات كثيرة جداً لأسئلة ملحة، عن أعداد المحكومين بالإعدام وأوضاعهم، وها أنا أورد الأرقام كما عايشتها بنفسي، لم تؤسس على أحكام الهوى، بل هي مشاهدات ومعايشات شخصية. فعندما دخلت قاطع المحكومين بالإعدام في سجن أبو غريب يوم 6 – 4 - 1987 (وأريد هنا التأكيد أنه كان المكان الوحيد، الذي يتم فيه تنفيذ أحكام الإعدام شنقاً الصادرة من المحاكم السياسية، محكمة الثورة ومحكمة الأمن ومحكمة المخابرات والأخيرة لم تكن تتعامل إلا مع بعض القضايا وأغلب القضايا كانت تعرض على محكمة الأمن) كان الموقف فيه كما يأتي:

كان تنفيذ أحكام الإعدام متوقفاً منذ 1– 10 – 1986 ماعدا وجبات ثلاثة صغيرة وواحدة كبيرة، وعدد المحكومين بالإعدام الذين ينتظرون التنفيذ يناهز الـ300، وعلى وجه الدقة، نحو 280 شخصاً. أما الحالات الثلاث الصغيرة، ثم الكبيرة، فهي كما يأتي:

- تنفيذ الإعدام بالفريق الركن عمر هزاع وولديه وثلاث آخرين بينهم امرأة، بتهمه التهجم على رئيس الجمهورية.
- تنفيذ الإعدام بالمهندس عبد الوهاب المفتي أمين العاصمة ومجموعته (نحو خمسة أفراد) بتهمة الفساد المالي (الرشوة والاختلاس).
- تنفيذ الإعدام بشخص واحد من السماوة لمحاولته اغتيال محافظ المثنى.

أما الحالة الكبيرة، فكانت كبيرة بكل المعاني: ففي يوم 29 – 12 – 1986 نودي على مجموعة من شباب الكوفة، وكانوا قد شكلوا مجموعة سياسية/ عسكرية لتنفيذ تفجيرات واغتيالات، وعند اقتيادهم إلى قاعة التنفيذ، وتوديع زملائهم، أخذ بعضهم يردد هتافات معادية،

رددها المحكومون من بعدهم، وبعد أن اقتيد هؤلاء الشباب، تصاعد الهتاف وفعاليات أخرى مثل سد ثقوب أقفال الزنزانات بالصابون، وقذف الحراس ورجال الأمن بقطع الصابون ومسحوق الغسيل، وقذف بقايا الطعام والماء وما تيسر(وهو قليل بالطبع) بأيدي النزلاء على حراس السجن ورجال الأمن. ودفع تصاعد حدة الهتافات السلطات إلى استخدام عناصر من قوات الطوارئ للتدخل، كما حضرت لجنة من مديرية الأمن العامة، وربما شخصيات حكومية أخرى حاولوا تهدئة الموقف من دون جدوى. ثم تدخلت قوات الطوارئ فدخلت إلى القسم وأطلقت النيران فقتلت نحو 15 فرداً في زنزاناتهم. ساد الهدوء على أثرها، ثم تنظيف ممرات القسم، وأبتدأ التحقيق مع المحكومين كافة فرداً فرداً، جرى، بعدها، تنفيذ الإعدام بكل من يعتقد أنه أسهم في الأحداث، لاسيما الإسلاميين منهم وعناصر قليلة من كل تشكيلة، حتى بلغ عدد الذين نفذت فيهم أحكام التنفيذ 156 فرداً، وقد جرى تنفيذ الإعدام بأعداد لا أعرفها من السجناء الاعتياديين (الأحكام الجنائية) الذين سمعوا الهتافات في القسم السياسي، وأراد بعضهم المشاركة، لذلك جرى تنفيذ الإعدام بعدد منهم.

لم أكن موجوداً في تلك الواقعة في قسم الإعدام، إلا أن الرفيق الشهيد البطل ثجيل جديع الشحماني (أبو شاكر) والرفيق طراد نصر الله والرفيق وداد، حدثوني، تفصيلاً، عن تلك الأحداث بدقة تامة، وهنا لابد أن أذكر، بصفة خاصة، رفاقنا ومنهم الرفيق ريحان خزعل (أبو لؤي) والرفاق خالد وسكران والآخرين كلهم كانوا قمة في الشجاعة والبطولة، بل أنهم كانوا يصافحون الموت بكل رجولة ولم يفقد أي منهم اتزانه، وكانوا يتداولون الأحداث بموضوعية... إنني أقف تحية لهم ولذكراهم التي لن تغيب عن البال... فلن أستطيع أن أنسى لحظة دخولي إلى قسم الإعدام، وكان بعضهم يعرفني، فهب هؤلاء الرفاق الأبطال لاستقبالي، وكان الشهيد البطل وداد يأبى أن أؤدي أي عمل فكان لي هذا الرفيق بمنزلة الولد أو الأخ الصغير في ذلك المكان...

المجد والخلود للأبطال.

كان ورود المحكومين بالإعدام من محكمة الثورة مستمراً، وبمعدلات غير بسيطة، 10 أفراد كمعدل أسبوعياً، وربما أقل من ذلك أو أكثر بقليل بحيث يكون الموقف وفقاً للمعطيات الآتية:ـ

ـ كان تنفيذ حكم الإعدام قد توقف ابتداء من 1 – 10 – 1986 (باستثناء الحالات، التي ذكرناها) والقادمون الجدد المحكومون بالإعدام يشكلون تراكماً في الأعداد.

ـ في الحالات الثلاث المار ذكرها نفذ الإعدام بنحو 11 فرداً.

ـ بعد التظاهرة، التي حدثت بتاريخ : 29 – 12 – 1986 تم تنفيذ الإعدام بـ: 156 فرداً.

ـ عندما دخلت قاطع الإعدام بتاريخ: 6 – 4 – 1987 كان الموجود يناهز 280 فرداً.

ـ عندما غادرت قسم الإعدام بعد ثمانية وثلاثين يوماً بالتخفيض إلى السجن المؤبد، كان الموجود الكلي هو 301 فرداً، بما في ذلك نحن الأربعة الذين خفضنا إلى الحبس المؤبد.

ـ في شهر شباط/ 1988 تم تخفيض محكومية أحد الأصدقاء من الإعدام إلى المؤبد، وهو شخص دقيق يعتمد على أقواله، أخبرني عن عمليات التنفيذ، التي كانت قد استأنفت بتاريخ 2 – 6 - 1987 ، شملت ربما 200 – 250 فرداً من الاتجاهات السياسية كافة أو ذات الطابع السياسي، فعلى سبيل المثال، كان معي في زنزانة الإعدام مدير تربية إحدى المحافظات، بتهمة بيع أسئلة الامتحانات وقبض رشوة، كما تم تنفيذ الإعدام بالمرحوم العقيد الركن المتقاعد رافع الحمامي، وقد عقدت أواصر صداقة بيني وبينه وكان إنساناً رائعاً، حكم عليه بتهمة إقامة دعوة غداء في مطعم فاخر كلفت، في حينها، 500 دينار! تحية إلى أبي ليث.

وبعبارة أخرى، فإن جناح المحكومين بالإعدام كان يضم القضايا كافة التي تدخل ضمن باب الأحكام الخاصة من قانون العقوبات العراقي من المادة 156 وحتى المادة 198 ، كما كان يضم المحكومين بالإعدام على وفق مواد كثيرة المادة الشهيرة 225 وهي مادة التهجم على رئيس الجمهورية، وتصل عقوبتها القصوى إلى الإعدام، وقد حكم فعلاً على العديد من المواطنين على وفق هذه المادة وأشهر تلك الحالات: الفريق الركن عمر هزاع وولديه وكذلك اللواء الركن فالح

أكرم فهمي وهو قائد عسكري ورياضي لامع، أعدم للأسف ومثله آخرون لأسباب تافهة لا تستحق الإعدام مطلقاً، ومنهم أيضاً العميد عبد الرسول، وهو ضابط مهندس وهو صانع مدفع الهاون العراقي فائق الجودة، أعدم لسبب تافه، لكلمة قيلت من دون قصد.

وقد دققت كثيراً عن اتجاهات المحكومين بالإعدام، والحقيقة أنها كانت موزعة على الفئات السياسية والدينية والعرقية كافة من الشعب العراقي من دون تمييز. وكانت على الأغلب كما يأتي:-

35% أكراد من مختلف الاتجاهات والقضايا.

35% حركات إسلامية وحسب التسلسل (حزب الدعوة، وحزب العمل، والأخوان المسلمون)

10% شيوعيون وبعث يساري.

10% تهجم، تجاوز حدود، قضايا متفرقة.

10% تجسس، فساد إداري، قبض عمولات.

أما لجهة توزيع الأفراد حسب المستوى الدراسي، فلم يكن هناك من حملة الشهادات العليا، ولكن كان هناك أعداد من خريجي الكليات، ولكن بعدد بسيط، بما في ذلك الضباط، والسواد الأعظم من المحكومين كانوا من أفراد الشعب البسطاء وباستثناء المنتمين إلى الأحزاب السياسية المعروفة مثل البعث اليساري والشيوعي، فأن المستوى الثقافي للأفراد كان بسيطاً، وأحياناً بسيطاً جداً ولكن مقابل عاطفة دينية متأججة.

على أن موجود قاطع الإعدام، الذي كان في ذروته في العام 1985، بدأ يتراجع تدريجياً ثم انخفض بشدة بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية، ولكنه ما لبث أن بدأ يتصاعد مرة أخرى، مع أحداث الكويت إلا أنه لم يصل قط إلى معدلات الثمانينيات، وقد علمت من مصادر موثوقة أن معدل الإعدام كان 100 فرد سنوياً حتى1995، ربما تصاعد في 1997 ولكنه انخفض، مرة أخرى، وبقي كذلك طيلة التسعينيات.

كانت مواجهة المحكوم عليهم بالإعدام من السياسيين مع ذويهم محظورة تماما، وكميات الطعام، التي كانت تقدم بائسة، بالطبع كانت الزنزانات مقفلة بصفة مستمرة وكانت حلاقة الذقن غير ممكنة، بل أن أدوات الحلاقة لم تكن متوفرة وكذلك فرشاة ومعجون الأسنان، وبداهة الأقلام والأوراق وأدوات الطعام، وحتى قلامة الأظافر. وفي الواقع فأن الزنزانات لم تحتو إلا على عدد معين من البطانيات، ولكل نزيل صحن وقدح من البلاستك، ولكن كمية وافرة من الصابون ومسحوق الغسيل، الذي يوضع في كيس نايلون، كان هذا هو كل شيء، وهو في الواقع لا شيء... لا شيء البتة قي انتظار الموت.

كيف يأتي الموت؟...

كان تنفيذ أحكام الإعدام للسياسيين يتم يومي الأحد والأربعاء، وكان النزلاء يتحايلون لمعرفة ما إذا كان هناك في ذلك اليوم تنفيذ أم لا، بدفع مبالغ (لا أهمية للنقود إطلاقاً في زنزانات الإعدام، وهي مجرد ورق لا يمكن الحصول بها على أي شيء.. لأنه لا يوجد أي شيء) للعامل، الذي كان يجلب الطعام ويوزعه على الزنزانات، وهو نزيل من قسم الأحكام الطويلة (الأحكام الجنائية)، وهو الذي كان يقوم بتهيئة قاعة التنفيذ، التي تشتمل على ثمانية زنزانات وستة مشانق، يفصل بين كل واحد منها جدار من السلك المشبك B R C، ويتم تحضير القاعة والحبال، منذ الصباح الباكر، وفي نحو الساعة الثانية ظهراً يحضر المأمورون وبأيديهم القيود الحديد، ويبدأون بالمناداة على الأسماء، التي ورد التصديق على الأحكام الصادرة بحقهم من المحكمة.

يودع المغادرون زملائهم وترتفع الأصوات بالدعاء وكلمات الوداع، وتقيد أيديهم ويغادرون القسم في موكب مؤلم، وإذا أقام المحكوم مدة طويلة هنا، فأن المنظر قد يصبح مألوفاً بعض الشيء، ويتناقل الناس أخبار رجال اقتيدوا من هنا إلى الموت، وكانوا في صورة رائعة من البطولة، إذ روى لي الأخ محمد الجبوري، الذي أمضى خمس سنوات في قسم الإعدام ثم خفض إلى المؤبد، وكان قد شهد تنفيذ الإعدام بنحو 500 فرد تقريباً، أي بمعدل 100 سنوياً بين الأعوام 1991 – 1995، وكان الأخ محمد قد تقاسم الزنزانة مع الرفيق البطل الشهيد محمد عبد الطائي،

إلى لحظة المناداة للتنفيذ. قال لي أنه لم يشهد رباطة جأش وشجاعة واستخفاف بالموت وبعبارات بليغة، كنت أطلب من الأخ محمد الجبوري أن يعيدها عليّ مراراً وتكراراً، ربما لعشرات المرات، وكم اشعر بالفخر والاعتزاز بهذا الرفيق والأخ والصديق، شعوراً بالفخر يغطي على مشاعر الحزن العميق. كان صديقاً لي منذ 1960 وقد عملنا معاً في منظمات حزبية مرات عديدة، وبعث إليّ الشهيد محمد بتحياته من موقف المخابرات (الحاكمية) مع الأخ عبد العزيز الكبيسي، الذي كان معه في زنزانة واحدة، وحكم عليه بالسجن لمدة 40 سنة.

كما روى لي أحد ضباط الدائرة، الذين حضروا تنفيذ الإعدام بالمناضل علي عليان، أنه كان قمة من قمم البطولة والرجولة الفذة عندما واجه حبل المشنقة، رافضاً تعصيب عينيه، وقال مخاطباً الحاضرين من مكانه المرتفع (منصة الإعدام)، إنه غير مكترث أبداً لما يحصل له، بل هو يأسف لأجلهم إذ ينفذون بوعي أو بلا وعي أحكاماً بحق عراقيين مخلصين للوطن، ولا بد من القول أيضاً إن بعض المحكومين، وهم قلة قليلة، كان يصاب بانهيار يتخذ ألواناً مختلفة، فإما أن يفقد القدرة على الكلام أو السير. كما من المؤسف القول إني شاهدت ثلاث أو أربع حالات من الجنون في زنزانات الإعدام، وربما هناك من مارس تمثيل الجنون، لاعتقاده أن ذلك قد ينجيه من الموت، كما حصلت حالات محدودة من الوفيات داخل قسم الإعدام، والمتوفون كانوا شباناً وأسباب الوفاة هي، على الأرجح، سكتة قلبية أو دماغيه.

وقسم الإعدام تجربة رهيبة، ليس فقط بسبب الموت المرتقب مع كل طرقة على الباب، لا سيما يوما الأحد والأربعاء (وتلك أيام التنفيذ للسياسيين، بصفة عامة، ولكنها لم تكن قاعدة نهائية)، بل بسبب صرامة النظام والإغلاق المستمر لأبواب الزنزانات، وكانت النوافذ قد أغلقت بصفائح، مثبتة باللحام على الشباك وكان عسيراً معرفة حتى الوقت، ناهيك عما يدور خارج القسم، الذي كان يبدو لنا وكأنه في كوكب آخر. وكانت هناك إشاعة تقول إن هناك ثقباً في إحدى نوافذ زنزانات الطابق الأسفل، ومنها كان نزلاء تلك الزنزانة يحاولون رؤية لمحات مما يدور قرب قاعة التنفيذ، ولكن الرؤية والتمييز كانتا ضعيفتين، لذلك لم يكن بالإمكان الحصول على معلومات دقيقة عن الأحداث، التي تدور خارج قسم الإعدام، أو في قاعة التنفيذ.

والنزلاء المحكومون بالإعدام، ينطبق عليهم القول (في معظم الحالات) إنهم متفائلون إلى أقصى حدود التفاؤل، ويصل هذا التفاؤل إلى حدود محزنة. فإن وقوف عصفور، وأكثر من ذلك إذا كان بلبلاً على الشباك العلوي لقسم الإعدام قد يعني للكثيرين أنه إشارة الفرج! أما إذا ابتسم أحد الحراس أو المأمورين، فإن الإشارة تكون أكثر قوة، أما الرؤية الصالحة في المنام، فإنها إشارة قوية للفرج. ولكن ما هو الفرج؟..

المحكوم بالإعدام كالغريق في بحر متلاطم الأمواج، لا قعر له ولا ضفاف، فهو، إذن، على استعداد نفسي أولي لتقبل أي إشاعة أو إشارة مهما كانت ضعيفة، والفرج قد يكون صدور قرار عفو لأي سبب من الأسباب، وهو الأكثر رجحاناً، أو تخفيض من حكم الإعدام إلى الحبس المؤبد (لاسيما إذا كانت القضية غير مهمة)، ويذهب بعض المحكومين إلى أن تغير النظام السياسي في البلاد يؤدي بهم إلى الخروج من هذا المكان.

وقد يبدو حكم الإعدام شيئاً رهيباً، وربما هو كذلك فعلاً، بيد أن المحكوم بالإعدام يعتاد على ذلك، أي أنه يألف فكرة أن حياته قد انتهت (مع فسحة قليلة أو كثيرة من الأمل كما أسلفنا)، ولكن التفاوت هنا يكون في سرعة تقبل فكرة نهاية رحلة العمر على هذه الصورة (مع أن أي صورة أخرى غير مفرحة أيضاً!) فبعض المحكومين كان يتقبل الفكرة بسرعة كبيرة، دقائق أو ساعات بعد صدور الحكم، وربما عند آخرين تستغرق أكثر من ذلك، وقد تبقى الفكرة تتصارع في وعي الإنسان حتى اللحظات الأخيرة، والعوامل المهمة، التي تؤدي إلى تماسك الفرد، هي: شدة إيمانه بالقضية النضالية، والتأهيل الثقافي والنضالي، والإيمان الديني.

سمعت أن الكثيرين من المحكومين بالإعدام، من الذين يبقون متماسكين حتى اللحظات الأخيرة، ينهار بعضهم لدى رؤيته حبل المشنقة، وقد ينتاب آخرين ضرب من هستيريا الصياح

والهتاف (يسقط أو يعيش) أو إطلاق الشتائم أو التوسل، والهتاف بحياة فلان من الناس، وقد يعمد بعضهم إلى إيهام لجنة التنفيذ (مدير السجن، ضابط الأمن، المدعي العام، المأمورين، الطبيب) أن لديهم معلومات مهمة أو خطرة يودون الإدلاء بها، من أجل الإبقاء على حياتهم ولو لبضعة أيام، ولكن مذكرة الإعدام، إذا وردت، تحمل ختم وإشارة التصديق والتنفيذ، فأن ذلك على الأرجح لم يكن يحتمل التأجيل، فقد سبق السيف العذل .

أما أنا فقد كنت قد استعددت لهذا اليوم أتم الاستعداد، ومنذ زمن بعيد جداً، منذ انتمائي لحزب البعث العربي الاشتراكي في العام 1958. ومن مصادفات القدر، أنني كنت قد قرأت بتأثر شديد وعميق مذكرات العقيد الركن صلاح الدين الصباغ، أحد قادة حركة مايس 1941، وقد نفذ فيه حكم الإعدام ولكن بعد سنوات من الهروب والاختفاء في إيران وتركيا، حتى وقع بأيدي السلطات البريطانية، التي سلمته إلى الحكومة العراقية، فحكمت عليه بالإعدام، فكتب في وصيته مخاطباً أولاده: أنه يعز عليه مفارقتهم من دون أن يراهم، ولا بد أن أشكال وجوههم قد تغيرت. كنت اشعر بالضبط بالمشاعر نفسها، إذ مضت علي قرابة تلك المدة، التي أمضاها صلاح الدين الصباغ من دون رؤيته لأولاده، وأنا لم أرَ ولديّ فراس وفواز، ولكنني كنت على استعداد لتقبل تلك التضحية، فقد تنازلت عن حياتي، منذ زمن بعيد، وكنت مقتنعاً أني سألقى وجه ربي اغتيالاً أو إعداماً أو شهيداً في معركة وطنية أو قومية، وبرغم أني لم أكن قد فعلت شيئاً يستحق هذا الحكم الأخير، إلا أنني أدركت أنني أدفع فواتير ومستحقات قديمة، وقد وجدت السلطات أنها فرصة سانحة للتخلص مني (قبل صدور التخفيض إلى الحبس المؤبد)، ثم أني علمت، فيما بعد، من مصادر لا يرقى إليها الشك، أن السلطات كانت تعتقد أنني غير منتم حالياً إلى تنظيم، مع قناعة بعض الجهات، أنني ما زلت منتظماً مع البعث اليساري، وأنني سأنضم، عند أول سانحة، إلى أي فعالية معادية، ثورة أو انقلاب، أو حركة داخل حزب السلطة، كما حدث غي العام 1979، لذلك كنت قد أعددت كلمة قصيرة مرتجلة، بالطبع، ولكنها بليغة ساعة التنفيذ.

كان شهر رمضان قد حل علينا، وتنفيذ أحكام الإعدام تتوقف، عادة، خلال هذا الشهر، إلى ما بعد العيد، وبعد مرور مناسبة الثامن من شباط، وعيد تأسيس الجيش، و28 نيسان، مولد الرئيس صدام، مرور هذه المناسبات من دون صدور العفو المنشود، أيقن النزلاء لاسيما العقلاء منهم، أن تنفيذ أحكام الإعدام سيتواصل حال انقضاء أيام عيد الفطر.

ومع إيقاف التنفيذ في شهر رمضان إلا أن ذلك لم يكن قاعدة نهائية، وكل شيء ممكن. وفي قسم الإعدام يوصف من يمضي على قدومه 21 يوماً فأكثر، أنه مرشح للتنفيذ في الوجبة المقبلة، وباللهجة البغدادية (طابك على السرة)، أي أنه ينتظر الدور.

كانت الساعة قد قاربت الثانية من يوم 3 أيار 1987، الأربعاء، أي أن المؤشرات المشؤومة كافة متوفرة: الأربعاء (وهو يوم مشؤوم في عائلتنا)، اليوم 13 الساعة الثانية، عندما سمع صوت المفتاح يدور في باب قسم الإعدام، الباب الأول، يترك النزلاء كل شيء، وآذانهم تستعد لالتقاط أي شيء حتى همس الذباب، وبعد فتح الباب الثاني، كان يسود الصمت المطبق، وآذان المحكومين بالإعدام وأنظارهم تتطلع إلى المأمور، الذي يتوسط ممر القاعة في الطابق الأسفل، بيده ورقة بيضاء، رفعها وشرع بقراءة الأسماء.

كانت الأسماء أربعة: هي أسمي ومن معي في القضية. وبعد أن أتم قراءة الأسماء أستدرك قائلاً وبسرعة: إنها... إنها ... مرسوم تخفيض. وبالطبع يحق للكثيرين عدم تصديق قصة التخفيض، إلا إنني كنت لا أفكر بشيء، ولم يصدق ذلك الكثير من النزلاء، بمن فيهم أخي وسام المشمول بالتخفيض طبعاً.

وقفنا في الردهة بين البابين، وقرأ علينا أحدهم مرسوم التخفيض من الإعدام إلى الحبس المؤبد... ومن لم يصدق منا نحن الأربعة (لأن نزلاء القسم لا يسمعون ولا يشاهدون شيئاً)، أيقن، الآن، أن شبح الموت ابتعد... نعم أن سيف الموت الحاد قد ابتعد ولكن من دون أن يختفي نهائياً. فبيننا وبين الموت ورقة!!

والغريب أن الكثير من حراس قاطع الإعدام كانوا متعاطفين معنا، بل أن أحدهم انخرط في نوبة بكاء، وكاد أن ينهار على الأرض، فجلس متكئاً إلى الجدار، وطفق يبكي كالأطفال!!

نقلنا إلى قسم الأحكام الخاصة، وقد أخذتنا إلى هناك سيارة لاند كروزر، وها نحن أمام قلم التسجيل في قسم الأحكام الخاصة (السجن السياسي) بلحى طويلة، حفاة، مرضى، وقد أصفرت وجوهنا من جراء سوء تغذية طويلة الأمد، وعدم التعرض لأشعة الشمس، وبالنسبة لي كانت الأورام والقروح تملأ أجزاء جسمي كافة من قمة الرأس وحتى أخمص القدمين. ولكننا نستعيد أنفاسنا وأنفسنا، بعد حلولنا فيما يسمى بزنزانات قسم الاستقبال، التي يودع فيها النزلاء ريثما يتم توزيعهم على قاعات السجن وأقسامه الكثيرة الغاصة بالسجناء، الذين يطلق عليهم رسمياً، تسمية النزلاء.

*　　　　*　　　　*

قسم الأحكام الخاصة

يجهل الكثير من العراقيين وغيرهم أكثر، ما تنطوي عليه كلمة سجن أبو غريب، وهي تسمية غير رسمية ولكنها شائعة جداً.

يتألف هذا السجن واسمه الرسمي: المديرية العامة لإصلاح الكبار، يتألف من مستطيل ضخم له واجهة أمامية مطلة على الطريق القديم بغداد ـ الفلوجة ـ الرمادي، (الطريق الزراعي) طولها 600 - 700 متر، وعمقها يمثل الضلع الطويل لهذا المستطيل يمتد إلى الداخل بنحو 1500 - 2000 متر. وهذه الأرقام، ليست دقيقة ولكنها أقرب إلى الواقع، وهكذا ينشأ مستطيل هائل فسيح بسور شاهق، يرتفع إلى ثمانية أمتار من الاسمنت البلوك شديد المتانة. والسور بارتفاعه وسمكه ومتانته، لا يدع مجالاً للتفكير بمحاولة اجتيازه. وداخل هذا المستطيل الهائل يقع مجمع أبو غريب للإصلاح الاجتماعي، وهو مكون من: ـ

ـ خمسة أقسام (سجون) موزعة بانتظام وبأحجام متفاوتة داخل هذه المساحة.
ـ دائرة أمن أبو غريب.
ـ مخازن الأرزاق.
ـ دائرة المدعي العام (وقد أنشأت مؤخراً).
ـ المديرية العامة للإصلاح الاجتماعي.

يتوزع القسمان الرئيسان: الأحكام القصيرة (الخفيفة)، والأحكام الطويلة (الثقيلة) في أقصى زوايا المستطيل العليا والقصيرة إلى الزاوية اليمنى، والطويلة إلى الزاوية اليسرى.

قسم الأحكام القصيرة، ويعني أنه يختص بالمحكومين بين أكثر من سنه حتى خمس سنوات، وهي أحكام الجنح في القانون، وهذا القسم هو أكبر أقسام (سجون) أبو غريب.

- قسم الأحكام الطويلة، ويعني أنه يختص بالمحكومين بين أكثر من خمس سنوات حتى الإعدام، وهي أحكام الجنايات في القانون، وهو يلي قسم الأحكام القصيرة في الحجم.
- قسم الإفراج، وهو يختص بالمحكومين بالمخالفات في القانون، للمحكومين سنة واحدة، وهو قسم صغير لا يتسع إلا لبضعة عشرات من النزلاء، ربما 100 – 120 فرد. وبناية هذا القسم تقع بين الأحكام القصيرة والطويلة.
- المديرية العامة للإصلاح الاجتماعي، وهذه تقع في الزاوية السفلى اليمنى للمستطيل وهي بناية ليست كبيرة الحجم ولكن يليها مباشرة جدار فاصل عن سائر أقسام المجتمع، ولكنه لا يضاهي في ارتفاعه وسماكته جدار السجن الخارجي.
- ومقابل قسم الأحكام القصيرة، كان قسم الأجانب ويطلق عليه (قسم غير العراقيين) متوسط الحجم إلا أنه الأكثر بين الأقسام نظافة وترتيباً (هكذا كنا نسمع) وهناك تسهيلات لهذا القسم

في الإدارة. وهذا السجن كان يضم كل محكوم غير عراقي بصرف النظر عن جريمته والمدة التي حكم بها وإدارة هذا القسم خاضعة إلى رئاسة المخابرات.

- ومقابل سجن الأحكام الطويلة، هناك هذا القسم الشهير، قسم الأحكام الخاصة، وهو السجن المخصص للمحكومين بمواد الأحكام الخاصة.
- مخازن الأرزاق، كانت قرب قسم الأحكام الطويلة، وليس بعيداً عن المكان نفسه، كانت دائرة المدعي العام.

الآن لنعد إلى قسم الأحكام الخاصة، ماذا تعني تلك اللفظة:
القانون العراقي يعدّ، أن ليست هناك جريمة سياسية، حتى لو كان الباعث عليها سياسي ولكنها ليست جرائم سياسية، لذلك أطلق عليها المشرع لفظة: خاصة. وقد وردت في نص أحكام القانون العراقي هكذا: الأحكام الخاصة. وهي تبدأ من المادة 156 حتى المادة 198، وبعدها تبدأ مواد الأمن الداخلي وهي نحو 40 مادة، منها أحكام اغتيال رئيس الجمهورية والتهجم والمنشورات والكتب الممنوعة وتوزيعها وما شابه ذلك. ونزلاء هذا القسم هم من حكموا في محكمة الثورة، أو ما تلاها من المحاكم الخاصة بعد إنهاء أعمال تلك المحكمة سيئة الصيت، والمحكومون بمواد الأمن الخارجي محرومون من الإفراج الشرطي (وتبلغ 25% من مدة الحكم). أما المحكومون بمواد الأمن الداخلي، فيتمتعون بهذا الحق، ولكن بعد استحصال موافقة جهات الإحالة، الأمن، المخابرات، الاستخبارات!

وكان قسم الأحكام الخاصة قد صمم، بالأساس، ليكون موقفاً للمتهمين المحالين إلى المحاكم، وربما استخدم لمدة وجيزة سجناً للنساء، قبل ترحيلهن، بصفة نهائية، إلى سجن خاص بهن في الرصافة، وفي النصف الأول من السبعينات تحول إلى سجن سياسي، على أن سجن أبو غريب نفسه وضع قيد الاستخدام في مطلع السبعينات 1971، بعد أن أستغرق بناؤه أكثر من 6 سنوات، أي منذ أن كان سكان العراق 6 مليون نسمة وقد اعتمدت خرائط متقدمة في تشييده. ويضم المرافق الخدمية الممتازة كافة، بما في ذلك التدفئة والمياه الساخنة. ولكن تباطوء الصيانة والاكتظاظ والاستخدام الكثيف وسوء الإدارة والفساد، أوصله إلى حالة مزرية.

الجزء الأساس في القسم هو جزء الإدارة، ثم ممر طويل، تقع الردهات والأقسام على جانبيه، وربما يبلغ طول الممر قرابة 250 متراً، والأقسام على نحوين، إما أن تسمى (ق)، والقاف الواحد هو قاعة طويلة تضم 20 غرفة، 10 غرف منها في كل طابق، وكل غرفة (زنزانة) حجمها 5 ,4×5 وهناك مرافق صحية يمكن استعمالها كحمام للاغتسال أيضاً، وهو ما كان غالباً يستعمل لهذا الغرض حصراً، ويضم القسم أيضاً حماماً عمومياً ومرافق صحية عامة ومخازن تحولت إلى غرف، وغدت امتيازاً يمنح لمن تريد السلطات إعطاءه وضعاً مميزاً، وهكذا كان على الأغلب.

والصنف الثاني من الأقسام يدعى (م) وهو بناء ذو طابقين لا يطل فيه الأعلى على الأسفل، بل هو ردهتان مستقلتان لا تحتويان غرفاً، بل الواحدة منهما ردهة مفتوحة يشاهد من كان في آخرها من هو في أولها.

ثم أن هناك عدداً من المرافق تحولت إلى أقسام مثل: المطعم والمسرح والمدرسة، كما حاولت إدارة الإصلاحية (حسب تسميتها الرسمية) تدارك الاكتظاظ ببناء قسمين ضخمين سميا (الجملون) الأول والثاني، وهما ذوا سقف من الألمنيوم وسقف ثانوي من الفلين الصناعي (ستايربور)، وفي فصل الصيف تتحول الحياة فيه إلى فرن بشري، أو ربما أسوأ، وكان هناك مستشفى لا بأس بحجمه وقدراته، كانت خدماته تفوق إمكاناته، بسبب تفاني الأطباء في خدمة المرضى، سواء الموظفين منهم أم النزلاء. كما أن ثمة مكتبة كانت تضم قدراً لا بأس به من الكتب كماً ونوعاً، إلا أنها تعرضت لموجات من السرقة على يد النزلاء والموظفين، وهناك مطبخ ومخازن للأرزاق، كانت مرتعاً للجرذان البشرية وبنسبة اقل للجرذان الحقيقية، وهناك حقائق مذهلة عن السرقات، التي اقترفها إداريو السجن، بل وعدد من النزلاء سواء بسواء.

وكان السجن يديره، رسمياً، المأمورون المرتبطون بالمديرية العامة للإصلاح الاجتماعي، التابعة إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، وهناك مأمورون يرتدون بدلة رسمية، ويضعون رتباً وعلامات على أكتافهم، إلا أنها ليست عسكرية، كما يحظر عليهم ارتداءها خارج السجن، والأقل مرتبة منهم يسمى حارس إصلاحية، ومنهم من يسمى حرس مفاتيح، وهؤلاء يتولون فتح أبواب الأقسام وإغلاقها. أو حرس برج، وصفاً لواجبه في الأبراج، التي تراقب أسوار السجن.

وقسم الأحكام الخاصة، وكذلك سائر الأقسام، محاط بسياج شاهق قد يصل إلى ارتفاع 8 أمتار بما يجعله في عزلة تامة عن سائر الأقسام، وهو بمنزلة الجزر في مساحة مجمع أبو غريب، إن جاز التعبير، ولكن أي جزر!..

كان مجمع سجن أبو غريب قد ورث سجن بغداد المركزي، الذي كان موقعه في باب المعظم، وقد بوشر بتشييد سجن أبو غريب الحديث، ربما في العام 1964، وهو يقع في منطقة أبو غريب، غربي بغداد باتجاه الفلوجة، ومنها أكتسب اسمه الشهير، وقد جلبت أحدث الخرائط لتشييده، إذ كان السجن القديم (بغداد المركزي)، قد تقادم به الزمن، وأبنيته متهالكة ولا يلبي المتطلبات الحديثة. وهكذا فقد تعاقدت الحكومة مع شركات أجنبية بالتعاون مع مقاولين عراقيين لتشييد السجن الجديد، كما تبدل اسم مديرية السجون العامة إلى مديرية الإصلاح الاجتماعي. وقد استغرق إنشاؤه سنوات طوال، ويشاع أن مقاولين عدة تتابعوا عليه، ودارت عمليات رشاوى وعمولات، برغم أن الشائعات لا يعول عليها في العراق مطلقاً. وكان سكان العراق آنذاك 6 – 7 مليون نسمة.

وقد تم إلغاء السجن القديم في مطلع السبعينات، (ثم هدم وشيد بدلاً عنه مبنى وزارة الصحة، ومنشآت صحية تابعة لمدينة الطب وجامعة بغداد)، وأغلب الظن أن الانتقال إلى السجن الجديد قد جرى على عجل وحتى قبيل إكمال اللمسات الأخيرة فيه، (والعجلة والفوضى وكثرة المتدخلين هي عادة سائدة، للأسف)، ولكن لابد من ذكر أن البناء كان ممتازاً والمواد المستخدمة فيه كانت من الدرجة الأولى، ومن أحدث الطرز (في وقته)، ولكن للأسف كانت نظم مجاري المياه الثقيلة غير منجزة بعد (ولم تنجز لحد الآن)، ومثلت مصدر إزعاج للنزلاء والإدارة على حد سواء، وكذلك تمديدات المياه النقية والكهرباء كانت ممتازة، ولكنها غير مصممة لاستيعاب الأعداد الكبيرة من النزلاء، بالإضافة إلى سوء استعمال المعدات، الذي أدى إلى استهلاك متسارع الوتيرة، مقابل تباطؤ في الصيانة، لذلك كان مجمع أبو غريب في حالته النهائية في وضع يرثى له، وقد جرت عمليات صيانة في أواخر التسعينات أعادت إليه شيئاً من الجاهزية.

وفي ظروف الضخ المستمر للنزلاء إلى السجن (وسوف أتناول، هنا، قسم الأحكام الخاصة بصفة رئيسة)، تعرض السجن ومرافقه إلى التآكل المستمر والتدهور في مستوى مرافقه الخدمية، وفي المراحل اللاحقة، بعد الحصار الشامل على البلاد، وقلة الموارد المخصصة للسجن، حدث تسارع في تدهور الموقف، لولا جهود كبيرة، كان المصدر الرئيس فيها عمل النزلاء وتبرعاتهم ومواردهم، ما أمكن معه إيقاف التدهور السريع.

وكان الموقف الغذائي والصحي وأوضاع السجن، بصفة عامة، معقولاً وتحت السيطرة حتى وقوع الحصار، الذي قلص، إلى درجة كبيرة، مستوى الإمكانات الغذائية بدرجة رئيسة، ولا أريد أن أذكر أرقاماً وإحصائيات لست متأكداً من دقتها، ولكن، على سبيل المثال، الاعتماد على ما يقدم من غذاء، والكمية كانت جيدة جداً والنوعية جيدة، وفي بعض الأحيان جيدة جداَ، ولكن في مرحلة الحصار، انحسر هذا المستوى إلى درجة لم يعد فيها بالإمكان الاعتماد على الطعام، الذي تقدمه الإدارة لذلك فقد ضوعف عدد مواجهات النزلاء وأصبحت أسبوعية، بدلاً من مرتين في الشهر، وذلك من أجل تغطية حاجة النزلاء من الطعام والمواد المعيشية.

والطعام، قلت كميته وتراجعت جودته، ودخلت عناصر جديدة على الخط، فحراس السجن صاروا خلال الحصار يتناولون وجباتهم من كمية طعام النزلاء، ناهيك عن طول يد مأموري السجن، الذين صاروا ربما يمونون بيوتهم من طعام النزلاء، وهكذا فأن القليل المتبقي، لم يكن سوى نزر يسير لا يسمن ولا يغني من جوع. لذلك كان هناك اتفاقاً غير مبرم، (كالعرف الدستوري!...)، بل

لم يجر حتى اتفاق عليه، أن النزيل، الذي يتمتع بأوضاع مالية جيدة يترك طعام الدولة لغيره من النزلاء، بل وأن النزلاء، الذين كانت أحوال ذويهم تسمح لهم بجلب أطعمة، كانوا يشركون معهم زملاء آخرين، وهكذا يمكن القول آن تكافلاً وتضامناً على مستوى طيب بين النزلاء على اختلاف قدراتهم الاقتصادية والمالية أمكن معه تجاوز محنة قلة الطعام.

على أن مستوى الخدمات الطبية، بقي على درجة جيدة، بل جيدة جداً، برغم أن هناك أعداداً من النزلاء ومعظمهم من غير السياسيين،(وكانت إدارة السجن قد وضعت في أعوام التسعينات مئات من العاديين في قسم الأحكام الخاصة تداركاً للزحام الشديد في قسمي الأحكام الطويلة والقصيرة)، وكان من جملة المتاعب التي أوجدوها، المراجعات الكثيفة للمستشفى، التي كانت تصيب الكادر الطبي بالإرهاق، وربما بالانهيار بسبب شيوع ظاهرة التمارض والمشاجرات، التي كانت تنتهي، بصفة دموية، في معظم الحالات، وكذلك استخدام أصناف عديدة من الأدوية كمهدئات، أو بالأحرى كوسائل مخدرة أو منومة بما يؤدي إلى الإدمان، بالإضافة إلى عمليات التهريب المنظمة بدقة شديدة، التي كان يشارك في معظمها، إن لم أقل جلها، موظفو الدائرة، لاسيما من حراس (الإصلاحية)، فالأمر ينطوي على أرباح طائلة.

وهناك أصناف من الحبوب شاع ذكرها مثل: آرتين، وأعتقد أنه علاج للحالات العقلية والعصبية أو الكآبة أو الانفصام في الشخصية (الشيزوفينيا)، ولست متأكداً، على وجه الضبط والدقة، من هذه المعطيات، إلا أنني أعلم أنها كانت توصف علاجاً لمرضى الحالات النفسية، وغيرها من الأصناف الممنوعة أو تلك المقيد استخدامها إلا بمعرفة الطبيب المختص، كانت تهرب إلى السجن ويتناولها النزلاء إلى درجة الإدمان، الذي يستنزف صحتهم وقواهم العقلية، بالإضافة إلى إمكاناتهم المادية. وكان من المؤسف أن تشيع مثل هذه الظواهر في السجن السياسي، وهي لم تكن موجودة في الستينيات عندما كانت السجون مدارس للمناضلين.

وكانت السلطات قد درجت على إصدار قرارات عفو في مناسبات مختلفة، وبذلك كان من المعروف أن النزيل لن يمكث في السجن لمدد طويلة، وليس مألوفاً أن يمضي النزيل أكثر من خمس سنوات، ونادرا ما تطول لأكثر من ثلاث سنوات، ومن النادر أن أمضى نزيل مدة أكثر من عشر سنوات، وسوف آتي على ذكر ذلك تفصيلاً، أما العدد القليل، الذي كان يستثنى من قرارات العفو فكان حصراً: -

- المحكومون بقضايا التجسس: وهذه قضية معقدة اختلط فيها الحابل بالنابل، بحيث لم يعد ممكناً، على وجه الدقة، معرفة المتهمين بقضايا تجسس حقيقية من الذين اتهموا بهذه التهمة من دون دلائل واضحة تكفي لإلحاق هذه التهمة الخطرة، وعدد هذه الفئة لم يكن يتجاوز العشرات.

- المخفضون من عقوبة الإعدام: وهذه بدورها قضية لا تخلو من التعقيد، فالمخفض من الإعدام إلى السجن المؤبد يصبح سجيناً عادياً، ولكن المشرع يريد من ذلك إبقاء من يريد إبقاءه في السجن وإخراج من يريد بقرار... ولم يكن نزلاء هذه الفئة يزيدون على 30 – 40 فرداً.

هذا بالنسبة للسجن السياسي، أما بالنسبة لنزلاء الأقسام الأخرى، فقد كانت قوائم الاستثناء من العفو متباينة، ولكن على وفق أحكام القانون، كانت الجرائم الثابتة في الاستثناء هي:

1- جرائم المخدرات.
2- جرائم اللواطة والاغتصاب.
3- جرائم الزنا بالمحارم.

كانت هذه الجرائم الثلاثة ثابتة في قوائم الاستثناء، ولكن كان يمكن أن يضاف إليها جرائم أخرى مثل:-

1- القتل العمد (الذي لم يتنازل فيه ذوو المجني عليه)
2- اختلاس أموال الدولة.
3- التزوير.

ولا أستطيع أن أتبين، على وجه الدقة، ما هي الحكمة من جلب أعداد كبيرة من الناس إلى السجن وإطلاق سراحهم، بعد مدة يذوقون فيها الأمرين، لربما أن فلسفة الدولة، وربما دول أخرى على هذه الشاكلة تعتقد، أن المرارة، التي يكابدها السجين سوف تردع الكثيرين منهم عن مسارات العمل المعادي للنظام، ولكن، بالمقابل، فأن أعداداً أخرى سيتضاعف حقدها على النظام.

وعلى وفق هذه النظرية، (التي أفترضها)، فأن مكوث النزلاء في السجن كان يتوقف على درجة الذنب المقترف أو فداحته، لذلك كانت الفئة المحرومة دائما من المراحم والعفو، هي فئة المحكومين بجرائم التجسس، وحتى عناصر هذه الفئة لم تكن ثابتة، على وجه التقريب، فقد عدّت لسنوات طوال، أكثر من عشر أو خمسة عشر مادة من مواد الأمن الخارجي من مواد التجسس، والأمر لا يتعدى الاجتهاد، وربما حتى المزاج، وقد يتدخل في تعزيز هذا الأمر بدرجات متفاوتة في الحسم، موقف رئيس اللجنة وأعضاؤها وآراءهم، ولكن من المؤكد، أن ثمة مواد شهيرة مستثناة من المراحم والعفو، المواد: 164 A - 159 -158 وهي مواد تنص صراحة على التعاون مع مخابرات دولة أجنبية .

ولا أريد القول إن كل من وجهت إليه هذه المادة وحكم بموجبها كان يستحقها فعلاً, فقد كان هناك أبرياء، بصفة تامة. بمعنى أنهم لم يكن لديهم أي نوع من أنواع الاتصال بجهات أجنبية. وهناك من كانت لديهم اتصالات حزبية مع منظماتهم المهاجرة إلى خارج الوطن، أو تلك الأحزاب المتعاونة مع دول وأنظمة أجنبية، عربية أم غيرعربية، وكان هناك من أجرى من دون قصد، أو علم دقيق منه اتصالاً بجهات أجنبية استغلت بساطته أو سذاجته، أو اندفاعه، فوظفت هذا الحماس أو السخط لأغراضها، فهو لا يستحق هذه العقوبة القاسية (الحبس المؤبد).

كانت مراسيم العفو تصدر في مناسبات غير ثابتة، ومدد غير محسوبة، ولكن أقصى مدة مضت من دون إصدار عفو، كانت من تموز1995 وحتى تموز 2002 غير أنه في المرحلة بين 1986 - 2002 صدرت مراسيم عفو كان أكبرها في العام 1986، وتلته مراسيم عفو في:

- نيسان 1988: عفو عجيب حافل بالاستثناءات، بحيث لم يشمل من السجناء السياسيين سوى نزيل واحد فقط اسمه سعد عليوي شيبان، فسمي العفو باسمه.
- آب 1988: بعد نهاية الحرب، صدر عفو عام وشامل للأكراد فقط، شمل نحو 1500 نزيل كردي.
- آب 1988: بعد يوم واحد، صدر عفو عام عن العراقيين مع استثناء التجسس والمخفضين من الإعدام، وبعض المحكومين من المادة 175 خرج بموجبه أكثر من 1000 نزيل، وبقي 601 نزيل في السجن.
- أيلول 1990: عفو خاص شمل نحو 550 نزيل من القضايا السياسية البسيطة.
- تموز 1991: عفو شامل كبير شمل نحو 6000 نزيل ولم يستثن من السجن السياسي سوى مواد التجسس وبعض المخفضين من الإعدام، وبقي في السجن نحو 120 فرداً.
- نيسان 1995: عفو خاص خفض محكومية بعض القضايا البسيطة، أطلق بموجبه عدد بسيط من النزلاء.
- تموز 1995: عفو خاص شمل نحو 75% من مدة المحكومية، عدا التجسس والمخفضين من الإعدام.
- تموز 1995: عفو عام أطلق بموجبه سراح جميع السجناء السياسيين عدا قضايا التجسس والمخفضين من الإعدام، وأبقى على 98 نزيلاً فقط.
- تموز 2002: عفو، كان مرحمة شملت أكثر من 50% من مدة المحكومية، أطلق بموجبه سراح نحو 800– 1000 نزيل فيما أبقى على نحو 1200 منهم.
- تشرين الأول 2002: عفو عام شامل أطلق سراح السجناء والموقوفين كافة في العراق من دون أي استثناء.

إذن، فهناك عشرة مراسيم عفو، منها ما أطلق سراح نزيل واحد فقط (1988)، ومنها ما لم يبق على نزيل واحد! وحتى المحكومين بالإعدام أطلق سراحهم إلى الشارع!
كنت على الصعيد الشخصي لا أعلق آمالاً كبيرة على الخروج من السجن، وكانت تجربة عفو 1991، عندما أطلق سراح مئات المخفضين من الإعدام (نحو 450)، ثم علمت، بصفة مؤكدة تماما، أن اسمي قد شطب من قوائم العفو. أما في عفو العام 1995 فقد كان لي بين أعضاء اللجنة المكلفة بتنفيذ قرار العفو، أصدقاء ومعارف وكانوا يؤكدون لي يومياً أن إطلاق سراحي مؤكد ضمن قرار العفو، إلا أن ذلك تغير فجأة، وأنهت اللجنة أعمالها، ولم تبق في السجن سوى 98 نزيلاً، من أصل نحو 2500 نزيل قبل العفو.
بل، وإني أدركت، بعد محاولات عديدة بذلها أصدقاء ومعارف من أجل إطلاق سراحي لم تسفر عن نتيجة، أن الأمر سيطول، وسيطول جداً، لاسيما بعد إطلاق سراح أخي وسام، وكانت دوائر الأمن والمخابرات قد أجرت مرات عديدة، ربما أكثر من عشر مرات، في زيارات ومقابلات معي في السجن، وإجراء استطلاعات وتحقيقات عن أوضاعي داخل السجن، بالإضافة إلى أني كنت أعلم، على وجه الدقة، أنني تحت المراقبة الدقيقة جداً طوال مدة سجني. ولا أدري ماهية التقارير المرفوعة عني، هل هي إيجابية أم سلبية، وكان بعض المكلفين بإجراء تلك المقابلات والتحقيقات كانوا يظهرون التعاطف معي، والاحترام في الأحوال كلها، لكن من دون أن تسفر تلك المقابلات عن شيء. وإذا كان لي أن أتحدث عن تلك المقابلات، فأقول: إنها كانت تتركز، بصفة رئيسة، على الموضوعات الآتية:

ـ ما أخبار عائلتك في ألمانيا؟ وفي الواقع فأن السلطات كان يؤرقها وجود عائلتي في ألمانيا كثيراً، لمعرفتهم أنها تشكل قاعدة ثابتة لي في الخارج، كما يطرح وجودها هناك مسوغاً للالتحاق بها وهو ما لم تكن السلطات تريده، بصفة مطلقة، لجهتين:

آ/ أن وجودي في الخارج يطرح احتمالاً شبه مؤكد، أن أنضم إلى قوى المعارضة، وهذا ما لم تكن السلطة تريده.
ب/ السلطة، بصفة عامة، لم تكن ترحب أن تعتمد أي شخصية سياسية على نفسها، مستقلة، بعيداً عن مؤثراتها، وكنت قد أظهرت، بصفة مؤكدة، رفض امتثالي لطلب السلطة بالعمل في الدوائر العراقية، لذلك حجب عني راتبي التقاعدي مع رفض الموافقة على السفر بهدف إرغامي على الرضوخ، ولكني كنت أعتقد أن ذلك نوع من أعمال السخرة، يغدو فظيعاً إذا كان في مجال العمل الفكري والثقافي أو السياسي.
ـ يقال إنك تكتب كثيراً، فماذا تكتب؟ وكنت قد أبقيت في السجن على بعض الأعمال، أو بالأحرى مسودات لها، من تلك التي لا تشكل هاجساً، مثل تراجم لروايات وكتب لتعليم اللغة الألمانية.
ـ ماذا تفعل لو أطلق سراحك؟ وكان هذا السؤال ينطوي على احتمالات عديدة، وكانت إجابتي عنها حيادية: كنت مريضاً والعلاج بالنسبة لي هو الموضوع الأكثر أهمية، وإجابات عامة لا يفهم منها شيء.

بين هذه الأسئلة الجدية المهمة، عشرات الأسئلة غير المهمة، بل كانت للاستدراج، وتدور حول موضوعات كثيرة، منها سياسية ومنها ثقافية، وغيرها.
كانت أوضاع السجن من ناحية الاكتظاظ، قضية قابلة للتفاوت، بصفة مذهلة، فبعد كل عفو يتقلص أعداد النزلاء، بل ويكاد أن يفرغ السجن بعد ما كان يضج حتى الأمس القريب بضجيج أعداد هائلة من الرجال. فعلى سبيل المثال، فأن عفو العام 1988، الذي شمل نحو 2600 منهم 1500 من الأكراد، لم يبق إلا على 601 سجين، بالإضافة إلى نحوالي 1400 نزيل في

الأقسام المغلقة، وهؤلاء كان جلهم من التيارات الدينية، حزب الدعوة في الغالب، كانوا يعيشون في ظروف بائسة، ومعزولين عن سائر السجن حتى العام 1991.

ومرة أخرى حدث مثل هذا الأمر في عفو 1991 إذ أطلق سراح نحو 6000 نزيل، ولم يبق في قسم الأحكام الخاصة بالذات إلا نحو 120 نزيلاً، والأكثر من ذلك كان في العام 1995، فبعد أن كانت الأقسام تضيق بالنزلاء، لم يبق سوى 98 منهم، ترى أي وحشة وكآبة تفرضان نفسيهما على من استثناهم العفو، تلك مشاعر رهيبة لا يمكن وصفها بسهولة، كما لا يمكن التعبير عنها، وفيما كانت الأقسام تضيق بالنزلاء، وإذا بعد ساعات تصبح فارغة إلا من بعض الرجال، الذين يتعين عليهم تحمل مثل هذه التجربة النادرة. فقد حدث في العام 1988 أن أفرغت القاعة، التي كنت فيها ولم يبق فيها سوى ثلاثة أفراد، وتكرر الأمر في العام 1991 والعام 1995 إذ أفرغ السجن، على وجه التقريب، وبينما كانت القاعات والساحات لا توفر حتى إمكانية المشي فيها، أصبحت فارغة وقد غادرها الجميع ولم يبق إلا القليل من الرجال، الذين يتحتم عليهم مواجهة هذا الثقل النفسي الهائل، وبعضهم لمرات عدة!

ترى ما الذي يعين الرجل على احتمال ثقل تجربة كهذه، أو تجارب عدة منها؟

ابتداء، فإن ذلك يحدث لدى الكثيرين ضرباً من الاهتزاز، ولآخرين استسلاماً هادئاً للقدر، وهناك من تنهض فيه، في تلك الساعات العصيبة الصعبة، مقومات الرجولة، وإظهار أقصى قدر من ضبط النفس في احتمال ذلك الألم، الذي يصعب احتماله، ولابد من الاعتراف أن القلة القليلة كانت على هذا المستوى، بسبب ارتفاع في مستوى الوعي السياسي، أو الإيمان التام بالدور، الذي يؤديه مكرهاً أو مختاراً.

كنت أحدث الكثير من الشباب ممن لا انتماء حزبياً له، وليست هناك قضية واضحة يناضل من أجلها، وهو في الحقيقة يدفع ثمناً باهضاً لخطأ لا يستحق هذه العقوبة، كنت أقول لهم إنها تضحية للوطن... قد تبدو هذه الكلمة مثالية جداً، في ظروف واقعية جداً، وقاسية جداً. نعم، إنها تضحية غالية لكننا بوجودنا في هذا المكان ولابد من إيقاف اعتبار أن المواطن وسلطات الدولة، يناصب كل منهما الآخر العداء والكراهية والشكوك. ولابد من الإصلاح السياسي. والأمر يتعدى السلطة، التي زالت في 9 نيسان 2003 وإنما، أساساً، في تعاطي الدولة في الشرق، الشرق كله مع مواطنيها!

نعم، أنا أدرك أيما إدراك، أن هذه الدرجة من الوعي القانوني/ الدستوري، والسياسي/ الثقافي لدى المواطن، أمر ليس من السهولة إدراكه، وبالمقابل، فأن تطور أنظمة الحكم باتجاه الرقي والتسامي هو الآخر أمر معقد، ولا يصار اختياره أو الوصول إليه أمراً مزاجياً، وإن وقتاً طويلاً سوف يمضي قبل الوصول إلى آمالنا المنشودة في أنظمة ومواطنين، ليس في العراق فحسب، بل في عموم الشرق.

فالقمع والقهر والاستبداد والاستعباد والظلم، شأن يعيش معنا ونحن نمارسه بوعي أو من دون وعي، ألم يقل شاعرنا الكبير أبو الطيب المتنبي :

والظلم من شيم النفوس   فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

والظلم والظالمون وحكم الطغيان والاستبداد قضية لها جذورها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وفي دواخل كل شرقي (بهذه النسبة أو تلك) ترقد كوامن الاستبداد، لن تجد حدوداً لها حتى يحدها سلطان أعلى... فالشرقي يولد وعليه أن يقدم آيات: الاحترام - الطاعة - الولاء - الخوف والاستسلام، للوالد، للعم، للأخ الأكبر، لشيخ العشيرة، لاختيارية المحلة، أو المنطقة، للشرطة والأمن والمخابرات والدولة ورئيس الدولة، وأقارب رئيس الدولة، وحتى لسائق سيارة المدير العام! للقوانين المكتوبة وغير المكتوبة ولتلك الخاضعة للتأويل، وبعبارة أخيرة عليه أن يخاف وأن يخاف كثيراً وإلا فأنه سيكون من الضائعين.

إن هذه التقاليد داخلة في النسيج العام للمجتمع والفرد. أما مسألة نظريات الدولة والحكم فهي مسألة في غاية التعقيد، طالما ليست هناك نظريات حكم متفق عليها وأسئلة لها إجابات واضحة، أو شبه واضحة: من هو الرئيس؟ وما هو الدستور؟ وكيف تمثل سلطة الشعب؟ وكيفية تداول السلطة؟ فطالما أن الأمر على هذه الحال، فإن من يمسك بيده القوة، سوف يملي على الآخرين الشرعية والسلطة والسلطان.

هذه الإشكالية، وسوف نتعرض لها بإيجاز شديد، فقط من أجل المزيد من إيضاح للصورة الدرامية الدائرة ليس في بلادنا فحسب، بل أقطار الشرق عامة، منها أقطارنا العربية والإسلامية بصفة خاصة، حيث لما يتبلور بعد الموقف الاجتماعي، بصفة تامة، بالإضافة إلى تدخلات خارجية مؤذية ومعوقة لعملية التطور الذاتي، التي تدور بشروط تاريخية متفاوتة، هذه كعناصر موضوعية خارجية، أما على صعيد العناصر الذاتية الداخلية فهي كثيرة، أبرزها: ـ

أولاً ـ دور العسكريين في الحياة السياسية بوصف الجيش الأداة الأكثر تنظيماً وقوة، وسيكون قوة مؤثرة إذا أقحم في الحياة السياسية، ولكن دور الجيش في السياسة قد شهد تراجعاً بسبب تصاعد الوعي السياسي واتساع حجم الجيوش وتراجع دور المؤامرة/ الانقلاب.

ثانياً ـ دور المؤسسة الدينية، التي مازالت تحتفظ بقواها المعنوية فصاعداً وصولاً إلى امتلاكها أحزاباً وقوى سياسية بحسب الموقف الثقافي والاجتماعي والسياسي، وإن كانت تفتقر إلى القدرات الديناميكية والفلسفية والمرونة السياسية كشرط من شروط العمل السياسي والموقف الاجتماعي/ الطبقي، وهو العنصر الأهم، ولكنها وبسبب عوامل لا مجال لذكرها هنا، استطاعت أن تؤسس حركات وأحزاباً أحدثت الكثير، ولكن النتائج كانت متباينة.

وإذا كانت حركات المقاومة الإسلامية في فلسطين قد نجحت في تمثيل التيار العاصف، فلأنها تواجه عدواً، لا توجد شبهات وطنية أو دينية أو قومية في مقاومته، وهو مستعمر استيطاني، لذلك نجحت هذه الحركات، من خلال صلابة موقفها، وفي التفاف الجماهير من حولها كونها تتبنى خطاباً وطنياً وقومياً مقبولاً، كذلك كان الأمر في الجنوب اللبناني، ولكن من المستبعد أن تتمكن تلك القوى (في حال زوال الظرف الخارجي)، من التقدم ببرامج ومشاريع اجتماعية/ ثقافية/ سياسية، تمتلك المرونة والأفق العريض، وتقدم على إقامة تحالفات وائتلافات سياسية وطبقية، إلا إذا حدث تحول في استراتيجية العمل السياسي الإسلامي.

ثالثاً ـ الحركات والأحزاب القومية والاجتماعية، تمتلك نفوذاً غير بسيط بين الجماهير، ورصيداً لا تفقده بسهولة، ويقف بوجه هذه الحركات، تحالف من الرجعية المحلية وقوى الغرب الاستعماري تاريخياً وأدواته، وقد طرحت حيناً برامج طموحة تفوق قدراتها الواقعية على تحقيقها، أو تطرفاً في الموقف النظري والسياسي حيناً آخر.

وبرغم ذلك، فإذا عددنا أن الأنظمة العربية بمجملها أنظمة قومية (برغم أن هذا الموقف يفتقر إلى الدقة والاتساق في التقييم)، بيد أن نظرة بسيطة على واقع البلدان العربية بخاصة والشرقية منها بخاصة، نلاحظ أن تقدماً غير بسيط على واقع البلدان العربية بخاصة، نلاحظ أن تقدماً غير بسيط قد تم إحرازه في جميع الميادين، وفي مراجعة سريعة للإحصائيات، تؤشر الأرقام على ذلك التقدم. ولكن في الوقت نفسه توجه الاتهامات إلى الأنظمة بأنها عجزت عن تحقيق أغلى الأهداف القومية: الوحدة العربية، وتحرير فلسطين. والتقدم في فلسفة نظم الحكم والسياسة وتداول السلطة، ولكن لا ينبغي تجاهل القوى الدولية العظمى، التي واجهت بشراسة هذا المشروع بثقلها السياسي والاقتصادي والعسكري كله.

وبسبب من عوامل تاريخية، وثقافية، اقتصادية عديدة، فأن الفكر الإسلامي لم يتمكن من بلورة أو تطوير نظريات حكم سياسية واضحة المعالم، تمتلك الإمكانات على مواجهة العصر ومشكلاته المعقدة، إذ مازالت مصادر السلطة بأنواعها كافة تمارس في بلادنا: ـ

أولاً ـ نظرية التفويض الإلهي: وهذه نظرية تطرحها بعناوين وآليات مختلفة، أنظمة ملكية عربية، أو أنظمة تمثل عناوين دينية.

ثانياً ـ نظرية القوة والغلبة: وهذه نظرية شائعة، مفادها أن القوة حق، وإن من يمتلك القوة له الحق في فرض السلطان تحت شعارات مختلفة.
ثالثاً ـ نظرية العقد الاجتماعي: وهي الأنواع الحديثة من أنظمة الحكم في العالم تدار تحت عناوين وآليات مختلفة، وبالطبع فأن الكثير من الأنظمة تدعي أنها مقبولة أو منتخبة شرعياً من الشعب.

ولكن الواقع يشير إلى غير ذلك في كثير من الأحيان. فتداول السلطة بين أطراف مختلفة في برامجها السياسية والاجتماعية، وهي واحدة من أوجه نظرية العقد الاجتماعي، ناهيك عن قيام دولة القانون والدستور واحترامه، والمساواة في الحقوق والواجبات، وحرية الرأي والتفكير والتعبير.

ومما لا ريب فيه، أن هذه الأفكار النظرية تواجه في تطبيقاتها العملية صعوبات وتعقيدات لا حصر لها. والواقع أن التعقيدات تكتنف الموقف السياسي والاجتماعي برمته إذ تتداخل العناصر والمكونات القومية والدينية والطائفية من جهة، بالإضافة إلى ما يستحقه تناقض المصالح الطبقية من تعقيدات، فهنا (أقصد العراق، بصفة خاصة)، ما زال الإقطاع وظلاله وتأثيراته حاضرة (لا ينبغي أن ننسى أن العراق قد شهد أولى المجتمعات العبودية الجماعية، والإقطاع الآسيوي) بالإضافة إلى بورجوازية متوسطة وعليا متنامية النفوذ الاقتصادي أولاً ثم السياسي والاجتماعي، والبورجوازية الصغيرة المكونة من الكسبة والموظفين والعسكريين. ولا نستبعد قيام تحالفات وائتلافات طبقية قد تكون عفوية تمليها المصالح والمواقف الآنية. ثم هناك الفئات الكادحة، التي تتركز، بدرجة رئيسة، في المدن الكبرى إذ تجد العمل في الصناعة وأعمال البناء وقطاعات أخرى، قد تكون تافهة وغير منتجة، تعمل على تشويه أوضاع الفئات الكادحة في النضال السياسي أو المطلبي ومواقفخا سواء عبر الأحزاب أم النقابات، ناهيك عن تخريبات غير بسيطة تحدثها جهات وتيارات داخل هذه الفئات بسبب ضعفها الاقتصادي والثقافي، تتوجه إليها ماكنة دعائية عملاقة تعمل على تفتيت صلابة مواقفها.

ولا بد من الإشارة إلى أن الأوضاع الزراعية وتحسين شروط الري والبذور المحسنة وراثياً والاستخدام الواسع للأسمدة ومبيدات الحشرات، وشيوع استخدام المكائن في الزراعة على نحو غير مسبوق، قد أحدثت تطوراً مهماً في هذا المجال وارتفاع أسعار المنتجات الزراعية وتالياً، ارتفاع في مداخيل الفلاحين، بيد أن المجتمعات الريفية ما زالت ترزح تحت مؤثرات كثيرة، تمثل عوائق وموانع في سبيل أحداث تطور اجتماعي/ ثقافي في حياة سكان الأرياف وتلعب، بالطبع، العلاقات الإقطاعية/ العشائرية، بالإضافة إلى نفوذ ملموس لرجال الدين وتقاليد راسخة في القدم. ومثل هذه العناصر المتداخلة في موزائيك فريد من نوعه يعقد العمل السياسي على المستويات كافة، زد على ذلك أن الحدود بين هذه العناصر المتداخلة والمواقف الاجتماعية غير متبلورة وتفتقر إلى الوضوح.

*   *   *

وتوزيع النزلاء على الفئات العمرية كان أكثر وضوحاً. ومع أن السجن قد شهد حالات نادرة لنزلاء تقل أعمارهم عن 18 سنة. (أطلعت شخصياً على ثلاث أو أربع حالات)، لكني علمت أن محكمة الثورة كانت تحكم على أحداث (في قضايا سياسية) ويودعون في قسم إصلاحية الأحداث، وكذلك على نسوة يودعن في سجن النساء، كما أطلعت على وجود أحداث في قسم الإعدام (حالتان أو ثلاثة، قدر الطب العدلي أعمارهم على أنهم بالغون)، كما تأكدت من تنفيذ أحكام الإعدام بنساء (في قضايا سياسية)، بتهمة الانتماء إلى حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي ومن التيار الديني.

مثلت الفئات العمرية بين 20 – 40 عاماً الأكثر شيوعاً بين النزلاء، وما بعد هذا الحد، يبدأ الخط البياني بالهبوط حتى يصل إلى حد 60 عاماً، لتصبح النسبة أقل فيما هو بعد 60 عاماً. وكان هناك شيوخ ومسنون، ولكن أعدادهم ضئيلة قياساً إلى أعمار الشباب.

* * *

أما لجهة توزيع النزلاء على المهن: مثل الكسبة والفلاحين، الفئة الأكثر شيوعاً بين النزلاء، يليهم الطلبة والموظفون والعسكريون، أما جرد المستويات الدراسية، فقد كنت على إطلاع شخصي بهذا الموضوع، إذ كنت ضمن مجموعة من النزلاء بذلت المساعي لتحسين ظروف السجن، وكنا نركز على موضوع إتاحة المجال للنزلاء لمتابعة دراستهم، الابتدائية والمتوسطة والثانوية في الأقل، وقد بذلنا جهداً كبيراً لإقناع الإدارة بإتاحة هذه الفرصة، إلى جانب فتح دورات محو الأمية. ومن الغرابة، أن يوجد عدد لا بأس به من الأميين بين النزلاء. الدهشة الكبرى كانت عندما لمست بنفسي مقاومة عدد من شخصيات النزلاء مشروع تعليم النزلاء، سواء محو الأمية أم أكثر من ذلك.

بيد أن العدد الأكبر كان من فئة الدراسة الابتدائية، والقليل في المتوسطة، ثم الأقل في الثانوية، أما على مستوى التعليم الجامعي، فقد كان العدد ضئيلاً. وبهذا المعنى كانت نسبة خريجي الجامعات والمعاهد بسيطة جداً، وإذا أضيف إليهم خريجو الكليات العسكرية (العسكرية ـ الطيران ـ الشرطة ـ البحرية)، فربما يصبح العدد بنسبة 6 - 8%، أما خريجو الدراسات العليا فسجلت أسماء 20 ممن يحملون شهادة الدكتوراه خلال مدة 16 عاماً بمن في ذلك من مكث لمدة قصيرة جداً (نحو السنة الواحدة) ولربما العدد نفسه من خريجي الماجستير، بمن في ذلك حملة شهادة الأركان العسكرية، التي تمت معادلتها رسمياً بالماجستير، ولا يتجاوز عددهم العشرة ضباط.

من الطريف وما يشيع المرح، الإشارة إليه في بحر المرارة هذه، أن السجن قد شهد العديد من الحالات، يدعي فيها بعض النزلاء حصولهم على شهادات جامعية أو حتى على درجة الماجستير، وقد شهدت بنفسي نزيلاً يدعي أنه خريج كلية الطب في جامعة الإسكندرية! ثم تبين أنه سائق سيارة إسعاف ليس إلا! وقد يتحول المرح إلى ترح عندما تعلم أن الرجل كان يحفظ أسماء الكثير من الأدوية والأمراض باللغة الإنكليزية ويجهد نفسه في تلفظها بإنكليزية صحيحة!

ثم تعرفت على شخص، لعب دور الأستاذ ببراعة، وأعترف بأسف أنه استطاع أن يغشني لمدة، ربما لأشهر، مع أني كنت أشك في الأمر، إذ ادعى أنه قد أنهى الماجستير في الاقتصاد، ولكن لعبته لم تستغرق وقتاً طويلاً (معي في الأقل) فاكتشفت أنه يجهل، بصفة تامة، تقنيات العمل الأكاديمي العلمي والبحثي، وأخيراً، هتك أحد أصدقائه المقربين سره، والمدهش حقاً أنني شاهدته مرة على شاشة إحدى الفضائيات يقدم نفسه على أنه دكتور وخبير اقتصادي! وآخر يدعي أنه مدرس في كلية الزراعة بشهادة الماجستير، ويتقن دور الأستاذ ويتحدث برفع الكلفة عن زملائه الأساتذة! حتى اكتشفنا أنه سائق لوري في كلية الزراعة وآخر يدعي حصوله على الماجستير في القانون، ولكن معارفه يؤكدون أنه ليس أكثر من طالب في كلية القانون في أفضل الحالات.

الواقع، أن السجن كان يضم أصنافاً عديدة من الرجال، كما كان هناك أصناف يمكن أن توضع على قائمة المحتالين، وكان هناك، في لمقابل، شخصيات رائعة، وليس مهماً على الإطلاق المستوى الدراسي والثقافي، وبعضهم صار لنا كالأخ والصديق الصدوق، برغم ظروف السجن القاهرة، التي كانت تهشم شخصية الفرد وتستصغره، فكان لابد أن تكون هناك شخصيات تتهشم، وتنساق في الانحطاط، بصفة عامة، ولكن وبكل أسف لابد من الإقرار أن الرجال، الذين كانوا يتجاوزون أوضاعهم، ويواصلون بناء أنفسهم ويساعدون غيرهم، كان ضئيلاً.

* * *

كانت الغالبية العظمى من السجناء من المسلمين، ولكن مع وجود عناصر من الديانات الأخرى، في المقدمة منهم أبناء الطائفة اليزيدية إذ كان متوسط وجودهم في السجن 25– 50 نزيلاً، ثم أبناء الديانة المسيحية، ولم يكن يتجاوز عددهم 5– 10 نزلاء، وربما في أقصى الحالات أكثر من ذلك بقليل، والصابئة نزيل واحد إلى نزيلين.

* * *

أما توزيع النزلاء بحسب القوميات، العربية بأغلبية تبلغ ربما نسبة 65– 75% والأكراد 20-25%، والتركمان بنسبة قد تصل إلى 5%، أما توزيع النزلاء على المحافظات، فقد كان السجن يضم نزلاء من المحافظات كافة، ولكن كثافة التواجد من كل محافظة كان يخضع لعوامل عدة منها:
ـ سعة المحافظة سكانياً.
ـ طابع الموقف السياسي في تلك المحافظة.
ومن الضروري، هنا، الإشارة، إلى أن الموقف السياسي في المحافظات الشمالية الكردية كان يؤدي إلى وجود مستمر من النزلاء، وكذلك المحافظات الأخرى سواء في الشمال أم الوسط أم الجنوب بمستويات متفاوتة، البصرة، ثم الناصرية في المقدمة وكذلك محافظات، الموصل وكركوك وصلاح الدين، وبعقوبة والرمادي .

* * *

كنت قد مررت بظروف توقيف واعتقال وسجن لمرات عديدة، منها حالتان استغرق فيهما الاعتقال نحو السنة: الأولى في العام 1962، وذلك بتهمة إقامة تنظيم سري تابع لحزب البعث العربي الاشتراكي، كنت، خلال ذلك، طالباً في كلية الشرطة، أحلنا على أثرها إلى المحكمة العسكرية العرفية الثانية. والمرة الثانية كانت في العام 1964 وكنت فيها ضابطاً في قوات الحدود برتبة ملازم، وذلك بتهمة مقاومة السلطات، وحكمت عليّ المحكمة العسكرية العرفية الأولى بالحبس لمدة عامين، ثم عدل الحكم إلى الإفراج.

وكنت قد أحلت غيابياً إلى محكمة الشرطة الدائمية، التي حكمت علي غيابياً بالحبس لمدة سنتين، لهروبي من الخدمة، وأحلت كذلك إلى محكمة الثورة في العام 1972 التي حكمت عليّ بالإعدام غيابياً بتهمة الاشتراك بإقامة تنظيمات مسلحة، مع أني، في الواقع، لم أكن على صلة بهذه التنظيمات أو عناصرها.

إنني آسف للقول إن مستوى السجين السياسي قد شهد تراجعاً ملحوظاً في مستوى الوعي السياسي. وكان يؤدي إلى خروق أمنية مستمرة للتنظيمات، ولحياتنا في السجن، بسبب الكسب السهل لسلطات الأمن لعناصر تعمل لصالحها. بينما كانت السجون في الستينات بمنزلة مدرسة للمناضلين، إذ كان السجين أو المعتقل السياسي يتمتع بمستوى عال من الوعي السياسي والثقافة العامة. وقد تشكل الوعي السياسي والثقافة الحزبية لدى عشرات المناضلين في السجون، بل أن بعض مشاهير القيادات الحزبية العراقية، كان من خريجي السجون، في حين يؤسفني القول إن السجون في العراق، خلال الثمانينيات والتسعينيات، شهدت تراجعاً في هذا المجال.

ولربما هناك بضعة ملاحظات عيانية، أو تلك، التي أطلعنا بحكم مكوثنا زمناً طويلاً في السجن، وفي مختلف الوظائف التي اضطلعنا بها، والنشاطات الوظيفية والسياسية، الحزبية والمهنية، تجعلني مطلعاً على تلكم الملاحظات:

شاع الكثير في العراق، عن تعدد السجون، وفي الواقع فأن أعداد تلك السجون معروفة للرأي العام، فهناك ما يطلق عليه "المديرية العامة للإصلاح الاجتماعي" وهي مديرية السجون العامة سابقاً، ويتبع هذه المؤسسة، التي تتخذ من بغداد ـ أبو غريب مقراً لها، عدداً من السجون في بغداد ، وفي بعض المحافظات:

* سجن بغداد المركزي، الذي انتقل إلى أبو غريب فصار يعرف باسم سجن أبو غريب، الذي هو مجموعة من الأقسام (السجون) كما نوهنا في مطلع الكتاب، وعدا هذا المجمع، هناك:
* سجن النساء/ بغداد، منطقة الرشاد.
* سجن الأحداث (للمحكومين من الذين أعمارهم أقل من 18 سنة)، بغداد/ منطقة الرشاد.
* مديرية سجن الموصل، وهو ثاني أكبر سجن في العراق، وهو السجن الوحيد المماثل لسجن أبو غريب بأقسامه المتنوعة.
* سجن بعقوبة، في محافظة ديالى، وهو سجن قديم وصغير ولا يتسع إلا لإعداد بسيطة من القضايا الجنائية.
* سجن الحلة، وهو سجن صغير للقضايا الجنائية.
* سجن البصرة، وهو سجن قديم للقضايا الجنائية.
* سجن كركوك، سجن قديم ألغي مؤخراً لتقادمه ورداءة أوضاعه وصغر حجمه.

لم يطرق سمعي وجود سجون رسمية غير هذه السجون، وحتى قسم الأحكام الخاصة في الموصل، لم يودع فيه سجناء سياسيون إلا لمدة وجيزة (سنة ونصف) بين 1990 – 1992 وتالياً، فأن السجناء السياسيين كانوا حصراً في سجن أبو غريب (قسم الأحكام الخاصة).

هناك من النزلاء من يتداول الأخبار والشائعات، ولا يفرقون بين الموقف والمعتقل أو السجن. ولكن الذي يعرف القانون، يعرف، طبعاً، الفرق بين هذه المسميات. فالموقف هو مكان إيداع المتهمين خلال التحقيق وحتى المحاكمة، والسجين هو من يصدر بحقه قرار بالحبس من محكمة، سواء كانت مدنية أم عسكرية أم جنائية، أم محكمة خاصة. أما المعتقل، فهو مكان إيداع من يعتقل بموجب أوامر اعتقال لآجال محددة أو غير محددة من دون الإحالة إلى المحاكم.

وعلى هذا الأساس، فأن الذين صدرت بحقهم أحكام إعدام كافة، نفذت شنقاً في سجن أبو غريب (قسم الأحكام الطويلة)، عدا ثلاث حالات تحديداً:

ـ مجموعة من ضباط الحرس الجمهوري ومن قطعات الجيش، وعددهم 15 ضابطاً يقودهم الرائد سطم الجبوري، أعدموا رمياً بالرصاص في أحد أرجاء سجن أبو غريب.

ـ الشاب عودة ديوان والي، من محافظة العمارة، وكان هذا الشاب رحمه الله، قد تناول أقطاب النظام بالشتائم، وقد تم تنفيذ الإعدام به رمياً بالرصاص بعد محكمة علنية في ساحة قسم الأحكام الخاصة أمام أنظار الكثير من النزلاء.

ـ إعدام الفريق الركن كامل ساجت الجنابي، وهو من خيرة ضباط الجيش العراقي وأبطاله. والغريب في إعدام هذا الضابط، أنه جاء إلى السجن يحمل مظروفاً إلى مدير سجن أبو غريب، وكان السجن ما يزال بإمرة العقيد حسن العامري، الذي فوجئ عندما فتح المظروف أنه يحتم على مدير سجن أبو غريب إعدام هذا الضابط شنقاً ومن فوره، فحاول المدير، وهو ربما يعلم أن لا جدوى من محاولته، الاتصال بالجهات العليا، لإقناعها أن الوقت متأخر (نحو السادسة بعد الظهر) وأن الموظف المكلف بالإعدام غير موجود، فقيل له ألا يحمل أحدكم مسدساً؟ فلما رد بالإيجاب طبعا، قالوا له: إذن، أطلق رصاصة على رأس هذا الضابط، ثم أغلقوا الهاتف بوجهه.

وفيما عدا ذلك، فأن المحاكم العسكرية كانت تصدر أحكاماً بالسجن ويودع المحكومون في السجون المذكورة، جنائية منها، على وجه الدقة، أم في قضايا الهروب أم الإعدام رمياً بالرصاص، فكانوا يودعون في سجن عسكري ثم ينفذ بهم الحكم في ميادين الرمي. وكان هناك

ميدان الرمي الشهير بسماية (جنوب بغداد باتجاه الكوت) وأحياناً كان يتم التنفيذ أمام الجماهير للحد من ظاهرة الهروب، وكذلك في المحافظات، جرت مثل هذه العروض المؤسفة.

وتم تنفيذ أحكام الإعدام شنقاً في سجن أبو غريب، بحق الكثير علة وفق الاتجاهات، التي نوهت عنها، وأركز، الآن، على قسم الأحكام الخاصة، وكان المحكومون لا يقابلون عائلاتهم مطلقاً بما في ذلك يوم التنفيذ، على عكس ما كان يجري مع المحكومين بالإعدام في القضايا الجنائية وهؤلاء يقابلون ذويهم أسبوعياً، وكذلك يوم تنفيذ حكم الإعدام.

وقد شهدت قاعة الإعدام، تنفيذ الحكم في شخصيات سياسية من التيارات المختلفة، ومنهم مناضلون وقادة عسكريون وقادة إداريون، فهنا أعدم عشرات من مناضلي حزب البعث العربي الاشتراكي (اليساري) والشيوعيين والأكراد وتيارات دينية من الطائفتين، ومن أدين بقضايا التجسس ظلما وعدلاً. ومن هؤلاء الجاسوس البريطاني الشهير بازوفت. وكان فرزاد بازوفت وهذا اسمه الكامل على ما أذكر، إيرانياً هجر وطنه حالماً بالأمان والسعادة والمال الوفير، لكنه تورط في قضية سرقة أو احتيال، فألقت الشرطة البريطانية القبض عليه. وهنا، وكما يعتقد، تورط في الدخول في عالم الأسرار، وربما أراد إنقاذ نفسه، فحق عليه القول: احتمى من الرمضاء بالنار، ثم عمل لصالح الموساد الصهيوني، وتحول، بين ليلة وضحاها، إلى صحفي يجوب أقطار عديدة يبحث عن طرائد، يكتب عنها أو يعمل على اصطيادها، وبهذا ذهب إلى تونس وحام حول مقرات القيادات الفلسطينية، فأثار شكوك الأمن التونسي، فأبعدوه. وقال له أحد ضباط الأمن التونسيين: لا أملك دليلاً ضدك، ولكنك تلعب بالنار وستقع يوماً.

وحقا وقع بازوفت في الحفرة، وتفاصيل قضيته معروفة، وكان في قاطع الإعدام هادئاً وعلى ثقة أكيدة أن بريطانيا ستعمل على إنقاذه، حتى بعد أن صدر حكم الإعدام. وحدثني صديق، وهو المقدم الطيار "محسن دزءي" الذي خفض حكمه، فيما بعد إلى المؤبد، قائلاً: إن بازوفت كان واثقاً من نجاته، وعندما شاهد من ثقب صغير في الشباك (كانت الشبابيك في قسم الإعدام مغطاة بألواح من الصفيح)، سيارة القنصل البريطاني تقترب من قسم الإعدام، ابتسم ابتسامة عريضة، وتفوه ببعض العبارات، التي تدل على معنى: ها هم أخيراً جاءوا، وعندما حضر المأمور لاقتياده للتنفيذ خرج ضاحكاً، ولكنه علم بعد لحظات أنه ذاهب إلى الموت، فبدت عليه علامات الانهيار.

وهنا أيضاً أستشهد البطل القائد محمد عبد الطائي، الذي حدثني من كان معه في زنزانة الإعدام، وقيض له البقاء حتى عفو العام 1995، وخفض حكمه إلى الحبس المؤبد، أن الشهيد البطل مضى إلى الشهادة بشجاعة ليست غريبة عنه، متحدياً المشنقة والجلاد، وهنا أيضاً أستشهد رفيقي وأخي الرائد الطيار عبد الحسين عبد الأمير، وأخوان وأصدقاء وقادة بواسل وعراقيون شرفاء.... يا للأسف... يا للأسف!

واليوم، وبعد ما حدث وما جرى كله، وما تحملناه من الخسائر في الأرواح والممتلكات والأصدقاء والرفاق، بل وما جرى لبلادنا من تخريب سواء على أيدينا أم على أيدي أعدائنا، نريد أن يكف مسلسل الرعب. كل ربح هو مزعوم، كل خسارة لا تعوض، وكل ذلك مؤلم، مؤلم حتى العظم، وليس بوسعي صياغة جملة تصف هذا الألم... لست في وارد أن أتهجم على جهة، ولست غاضباً إلى درجة الجنون... إني أحاول أن ألملم الجراح!... أداويها فحسب، أقبل ببعض الربح عوضاً عن الخسارة التامة.

وعندما أستعرض اليوم وجوه العشرات، بل المئات من الذين اعدموا، أو اغتيلوا، أو الذين أمضوا زهرة شبابهم في السجون وخسروا أعمارهم، ومنهم أنا... ترى ألم تكن هناك وسيلة نقيم فيها تفاهماً عوضاً عن الصراع الدامي الوحشي؟ ترى لماذا نحن قادرون على التفاهم حتى مع الأعداء؟ ولكننا غير قادرين على التفاهم فيما بيننا؟ ترى لماذا نضع خطوطاً دموية سوداً بين بعضنا في حين لا نقيم إلا خطوطاً وردية أو فستقية، أو ربما وهمية، وأحياناً ليست هناك خطوط البتة مع أجانب نعلم علم اليقين، أنهم لا يريدون الخير لنا كعراقيين؟ إنني أريد أن أقول إنني أفهم

وأتفهم تماماً، أن الألم قد يدفع الإنسان إلى الجنون وأن يأتي ما لا يأتيه صاحياً، نعم أنا أعلم أننا قد تعرضنا إلى آلام مبرحة، ولكن:

بلادي وإن جارت على عزيزة   وأهلي وإن شحوا على كرام

أريد في هذا السياق البسيط أن أعرض بكل عفوية، وأسأل شعبنا العراقي العزيز، وأقطارنا العربية، والشعوب الإسلامية: هل صادفنا يوماً غازياً (وما أكثر الغزاة في تاريخنا القديم والحديث)، أو عدواً واضحاً في عدائه أو مستتراً، ترى هل كان أحدهم ناصحاً لنا يناشدنا أن نتحد في قوانا، أم كانوا مسعّرين الفتنة والفرقة وملقينها بين صفوفنا، جاعلين الجوهري أمراً عارضاً، والثانوي والسطحي جوهرياً ومهماً.

إلا إنني أعتقد، ويا للأسف، أن هذه الثغرة الخطرة، التي عبر منها الغزاة والطامعون من الأصناف والألوان كافة، هي الثغرة ذاتها، والغرابة كل الغرابة، أننا نعلم جميعاً أمر هذه الثغرة، ولكننا نتركها من دون إغلاق محكم، ولا نقيم حراساً يقظين عليها، وأكثر من ذلك، من المؤلم إن يعتقد بعضنا إمكان الحصول على مكاسب مزعومة من هذه الثغرة باستثمارها سياسياً، والنتائج كانت كارثية دوماً، بل أن هناك من يمارس تثقيفاً وتحريضاً وإثارة، ويمارس الحركات البهلوانية والهزلية أو المبكية في نتائجها كافة، ولكن الهدف دائماً لا يتغير وهو:

إبقاء الأنظار متجهة إلى مسرحهم، واللعب في منطقة الثغرة أو محيطها، فيما تدور في الجوانب الأخرى عمليات وفعاليات تصيب استقلالنا السياسي والاقتصادي وكياننا الوطني والقومي بأفدح الأضرار.

من الواضح الجلي أن المطلوب، دائماً، هو توسيع الثغرة، ومطلوب أن تبقى، وستبقى لأمد معين تمارس هذه الوظيفة إلى أن تقيض الأقدار يوماً يدرك فيه العراقيون جميعاً، في آن واحد، أخطار هذه الثغرة، وسيعملون على إحكام غلقها، وإن بعد خسائر فادحة غير ضرورية، وأخشى ما أخشاه أن نتعلم متأخرين، فقد كتبت يوماً في صدر أحد أعمالي:

أن نعلم ونتعلم أمر جيد وضروري ولكن ليس متأخراً!

3

سبحنا في أبحر ثلاثـة...
وانغمسنا في دماء ثلاثة...
وتقلينا في قدور ثلاثـة...
فنحن بين الطـاهرين طهارى...

ليون تولستوي

العلاقات الاجتماعية ـ الطعام ـ الموقف الغذائي والعلاجي ـ المواجهة ـ الماء والكهرباء ـ الاستحمام ـ المرافق الصحية ـ التدفئة والتبريد

من الحقائق، التي يجهلها من لم يعش في السجن، لمدة طويلة بخاصة، أن للسجين حياة اجتماعية يختص بها، وهناك قواعد وتقاليد وعلاقات وألفاظ ومسميات، ولا أحاول هنا التعريف بحياة السجن، بقدر ما أريد عرضاً وجرداً اجتماعياً وسياسياً وثقافياً، يمكن من خلاله الإطلاع بدقة على أحداث سياسية وتبلورات ثقافية، وعلى حقائق الأحداث، بصفة علمية ودقيقة، إننا هنا مهتمون ونهدف إلى عرض التجربة برمتها وبمفرداتها كافة ولكننا سنركز على الطيبة منها أكثر من المرة، وعلى الرائعة منها أكثر من السيئة، ولكن في كل وقت نفعل ذلك بدقة وأمانة، من أجل أن تمثل إضافة (بأي مقدار) إلى تاريخنا السياسي، بصرف النظر عن غايات صغيرة أو شخصية، لا أريد توجيه النقد إلى فرد أو جهة، ولا اللوم إلى صديق أو حبيب، وفي الوقت نفسه لا نهدف إلى الدفاع عن فرد أو جهة، لندع الحق والحقيقة تسود، إنها شهادة للتاريخ .

*　　　　*　　　　*

من أكثر الأشياء أهمية للسجين هي استقراره (أركز هنا على السجين السياسي، وفي المرحلة التي عايشتها شخصياً) وأعني بالاستقرار: مكان منام النزيل، سريره (إن كان لديه سرير)، فراشه وحاجاته الضرورية. والحاجات الضرورية متفاوتة، أيما تفاوت، بين النزلاء ولأسباب كثيرة، لذلك يعدّ النزيل نقله من زنزانة إلى أخرى بمنزلة العقوبة في معظم الحالات.

في سجن أبو غريب/ قسم الاحكام الخاصة، هناك نوعان من القاعات:

ـ قاعات فسيحة تدعى (م) وهي ذات طابقين مفصولين عن بعضهما، وإن كانت بمدخل مشترك.

ـ أقسام تحتوي على زنزانات وتدعى (ق)، وكل (ق) يحتوي على عشرين غرفة، عشرة في كل طابق، ويطل الطابق الأعلى على فناء الطابق الأسفل. ومساحة كل غرفة (زنزانة) 4,50× 4,50، وهي مصممة لتتسع ما لا يزيد على الستة أشخاص، ولكن، في الواقع، فأنها كانت تكتظ بأضعاف هذا العدد. وعادة ما تشهد الغرف ارتياحاً بعد كل عفو، إذ تتقلص أعداد النزلاء، كما أسلفنا، ليتراجع إلى خمسة أفراد أو ستة، ولكن بمرور الوقت يتقاطر النزلاء على السجن بوتائر متباينة حسب الظرف السياسي السائد، إلى أن تصل إلى درجة الاكتظاظ، مرة أخرى، ولكن بعد مرور وقت ربما يطول إلى السنة أو السنتين.

وتصل درجة الاكتظاظ إلى درجة يصعب فيها الحصول على سرير، أو بالأحرى على مكان يضع فيه سريره، أو حتى للاستلقاء على الأرض. وبرغم عبقرية النزلاء في تدبير شؤونهم، ومن جملتها توفير المكان، لكن، في مراحل الاكتظاظ الشديدة، يبدو ذلك من الأمور العسيرة فعلاً، وقد شاهدت بنفسي نزلاء يقضون الليل نائمين أو شبه نائمين على درجات السلم المؤدي إلى الطابق الثاني، وقد يبدو هذا الأمر غريباً، إلا أنه كان الواقع المؤسف، بل وكان الذين ينامون على درجات السلم محسودون على مكانهم (تخيل 30,cm×1,M) بعد أن كنا نتألم من أجلهم إلى ما قبل تفاقم أزمة الاكتظاظ بسبب عدم وجود أسرّة!

وبالطبع، فأن النزلاء يحصلون عادة على الأماكن الجيدة، الأسرة، الزوايا في الغرف، بحسب القدم في السجن، وهذه غاية في الأهمية، بحسب المثل "اللي يسبق يأكل فستق"، ولكن ذلك ليس أمراً نهائياً، إذ تلعب عوامل كثيرة: الوساطة، العلاقات الشخصية، درجة النزيل الوظيفية ودرجته العلمية وأهميته، كما أن للرشوة دوراً مهماً في هذا المجال، وكذلك فأن الإمكانية المالية للنزيل تتيح له شراء سرير من أحد النزلاء، إذا كان ذلك النزيل محتاجاً أو ضعيف القدرة المالية، أو أنه يرزح تحت ديون ثقيلة لا يقوى على سدادها من أجل تأمين أوضاعه في السجن (غذاء ولباس) أو بسبب تورطه في الإدمان على الحبوب المخدرة، أو ما شابه ذلك! وبالطبع، فأن حيازة النزيل على سرير تتيح له، غالباً، وذلك مهم، أن يكون فراشه نظيفاً ومرتباً، وتلك مسألة تتعلق بإمكانية النزيل المادية، وطباعه منها: الحرص على فراشه نظيفاً ومرتباً.

كانت سلطات السجن تجهز النزيل ببدلة واحدة وببطانية واحدة أو اثنتين، عند قدومه إلى السجن، وربما يتكرر هذا بعد مدة، بيد أن ذلك انقطع تماماً خلال الحصار 1991، وأصبح النزيل يعتمد، بصفة مطلقة، في تأمين فراشه ولباسه على أهله وذويه أو على مساعدة النزلاء الميسورين أو القدماء ممن يمتلكون فائضاً في الألبسة والفراش.

ومن جملة الأشياء الضرورية للنزيل، أن تكون لديه معدات الطعام، وفي مقدمتها قنينة الغاز والكوزان Gosan (الرهيب)! وهو رأس الطباخ، الذي يركب على قنينة الغاز لإشعالها والطبخ عليها، هو من أعز ما يملك النزيل لأنه يضمن له استقلاله، ثم قدور وصحون وأدوات طعام. وكانت السكين ضرورة قصوى، لكنها، غالباً، ما تتعرض لمصادرة الإدارة، وكان بعض النزلاء يستعملها في معارك دموية (في الأقسام الجنائية)، كثيراً ما أدت إلى وقوع ضحايا، والطريف أن الحراس كانوا يصادرون السكاكين ثم يعودون ويبيعونها للنزلاء، مرة أخرى، وهناك أحداث مضحكة مبكية... وشر البلية ما يضحك.

*   *   *

والأمر الآخر، الذي يلي مكان النزيل (سريره) في الأهمية، هو الطعام. وكانت هذه الناحية مغطاة، بنحو معقول، خلال الأعوام، التي سبقت الحصار على العراق، وكانت إدارة السجن تقدم للنزيل طعاماً جيداً سواء بالكمية أم النوعية بحيث كان يمكن للنزيل الاستغناء عن مصادر أخرى (ما يجلبه الأهل، أو من خلال الشراء من حوانيت السجن) وكان طعام السجن يغطي الحاجة من الناحية الصحية، ويتألف في الفطور: من الشاي والحساء (شوربة العدس)، جبن، لبن، بيض، قشطة، خبز. وطعام الغداء: الرز بكميات وفيرة وبإشراف طهاة ممتازين من النزلاء أنفسهم، وكذلك المرق (الصلصة) من الخضار الموسمية، والعشاء من الصلصة، الدجاج. وبالإضافة إلى ذلك كان حانوت السجن، الذي يديره أحد النزلاء، يوفر كميات إضافية ومتنوعة من الأغذية.

لكن المرحلة، التي حلت خلال الحصار، كانت قاسية على النزلاء لجهة الموقف الغذائي، إذ تقلصت الكمية والنوعية بحيث صارت لا تكفي إلا أعداداً محدودة جداً من النزلاء، ربما 20 - 25 من النزلاء، بالإضافة إلى اشتراك أعداد من رجال الحرس والأمن في غذاء النزلاء، وهكذا لم يعد بالإمكان الاعتماد على طعام السجن، وأدركت الإدارة هذا الموقف، فزادت عدد المواجهات من مرتين شهرياً إلى أربع مرات شهرياً ما ضاعف إمكانية ضخ الغذاء من خارج السجن إلى النزلاء عبر ذويهم، وذلك يعني، بداهة، تضاعف الكميات، التي كان الأهل يجلبوها في المواجهات لتغطية حاجات أبنائهم وإخوانهم، وبذلك أمكن إحداث تعادل في الموقف الغذائي.

كان بعض النزلاء، طبعاً، بعض قليل من ميسوري الحال، يعتمدون على ما يردهم من الغذاء من خارج السجن عبر المواجهات، أو من خلال الشراء من الحانوت الرسمي أو من حوانيت النزلاء المنتشرة بكثرة في السجن وتدعى (بسطيات)، التي تضاعف عددها بعد الحصار وأصبحت تجارة رائجة في السجن يمارسها النزلاء بكثرة، ومنهم من جنى من ذلك أرباحاً طائلة.

وبرغم وجود مؤشرات إيجابية على التعاضد والمؤازرة بين النزلاء، إلا أن ذلك، بتقديري، لم يكن ليرتقي إلى الحالة الاجتماعية الرائعة، التي كانت سائدة في الستينيات، إذ لم يكن هناك (في موضوع الطعام) حدود بين ملكيات النزلاء، وكان يجري توزيع كل ما يرد إلى السجن من طعام بالعدل المثالي وعلى درجة عالية من الالتزام السياسي والأخلاقي الرفيع.

والغذاء كان أحد وسائل الضغط التي مارسها الجميع، وأقصد بذلك: الإدارة والنزلاء، على حد سواء، إذ كانت وسيلة فتاكة لإحداث الضغط. فالإدارة كانت تمارس ذلك تحت ذرائع عديدة، أشهرها أن بعض الممنوعات تهرب إلى السجن داخل الأطعمة، وبديهي القول إن تلك كانت ذريعة سخيفة، المقصود منها تنشيط عمل الحانوت الحكومي، لكي يبيع بكميات مضاعفة، ويجني أرباحاً

مضاعفة، ليتضاعف الجزء، الذي يستولون عليه، بل هو الجزء الأعظم، أو في محاولات لإخراج الثلاجات الكهربائية، بهدف إرغام النزلاء على شراء الثلج بأسعار مرتفعة لا قبل للنزلاء بها. والحقيقة، أن إدارة السجن كانت تخترع أساليب لا تخطر على بال إنسان من أجل أحداث ضغط متزايد على النزلاء بهدف الكسب والارتشاء .

أما الغذاء، الذي مارسه النزلاء كأداة ضغط (بالطبع القليل منهم) فكان بهدف كسب المحتاجين سياسياً، وجعلهم تحت الضغط من أجل تدوير قناعاتهم، وكان هناك من يمارس هذه الأساليب بطريقة ذكية، ابتداء من الدعوات على الغداء أو العشاء إلى إشراكه ضمن وجبتهم (أو مجموعتهم)، وقد يرتقي ذلك، بحسب أهمية الشخص، إلى مساعدته على تأسيس بسطية، لمن يقع عليه الخيار لدعمه، وهذه أمور لا تحدث بصفة عشوائية.

وبسبب قلة الموارد وتدخلات الإدارة، اكتملت حلقة الصعوبات الموضوعية والذاتية، وكان على النزيل أن يكافح من أجل توفير حاجاته من الغذاء والخضوع لشتى الضغوط حتى العائلية منها، ففي أيام الحصار كانت العائلات تجلب الطعام لأبنائها، ولكن ذلك لم يكن أمراً سهلاً، فهذه العائلة، التي يصعب عليها إعالة نفسها أصلاً، كيف لها إعالة شخص آخر في السجن وتوفير مصروفاته؟ هذا عدا تجشم عناء السفر من المحافظات. وفي الواقع، فأن الحصار خلق صعوبات امتدت تداعياتها إلى زوايا وأبعاد غير محسوبة، وغدا هم الإنسان العراقي حتى خارج السجن، هو توفير الطعام لعائلته، فما بالك بالنزيل في السجن، الذي هو تحت رحمة الأقدار، وكلها قاسية.

فكان ضغط من الداخل وضغط من الخارج ومطلوب منك أن لا تنفجر، وأن لا تتمزق، فتفقد نفسك، وأن لا تنهار فتخسر كل شيء... ولكن كيف؟... كان ذلك أمراً صعباً يا للعنة، صعباً إلى أقصى الحدود، ولم يكن يقوى على ذلك إلا من توفرت لديه إمكانات كبيرة وبناء شخصي/ ثقافي/ نضالي عالي المستوى، وإلا فأن المطرقة ستأكل كل يوم، بل كل ساعة ودقيقة شيئاً منك إلى حد التلاشي، آنذاك سيمارس الإنسان حواسه بصفة آلية... ولكن لحسن الحظ أو لسوئه، لم يكن الكثيرون يدركون مآل هذا الإيقاع المدمر، فيصح علينا مقولة الإمام إبن القيم رحمه الله:

فإن كنت تدري فتلك مصيبة   وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم

إذن، كان الغذاء شيئاً مهماً، وهو كذلك فعلاً، أي أن أهميته ليست مزعومة وآثاره ليست صحية فحسب، بل اجتماعية وسياسية، وقد مارس كثيرون، للأسف، سطوة الغذاء كل حسب موقعه واقتداره!

فإدارة السجن، ولا سيما من يسمون رجال الإصلاحية، الفاسدون حتى النخاع (وهم كذلك في سجون العالم كلها)، الذين لم يكونوا يكتفون بأخذ ما يكفيهم، بل وبما يؤدي إلى التخمة. والنزلاء، من جهتهم، العديد منهم، كان يبغي تكوين ثروة في السجن، فكانوا يبيعون المواد الغذائية بأسعار مضاعفة سعياً وراء الربح، وكل حسب موقعه، فأصحاب الحانوت الرئيس كانوا الأكثر ربحاً، ومن ثم الحوانيت الصغيرة، لا سيما من أتقن اللعبة، ومنهم من كان يعمل بإشراف الحانوت الكبير كما يحدث في الحياة الاجتماعية ولكن بنحو مصغر:

إمبريالية -> كومبرادور -> بورجوازية

فكانت معركة حياة أو موت بكل معنى الكلمة، ولك أن تتخيل: كمية الغذاء والأموال محدودة، أي بعبارة أدق، أقل من الحاجة، ولكن الجميع يريد أن يأخذ حاجته وهذه مسألة طبيعية، إلا أنه، أحياناً أو غالباً، يأخذ ما يفوق حاجته فالنتيجة المؤكدة أن تكون هناك فئة قليلة من المتخمين، وفئة أوسع من المكتفين، وفئة أوسع ليسوا بجياع، ولكن.... كان هناك جياع في السجن، وهؤلاء، وإن كان عددهم قليلاً، إلا أن الثقل الأخلاقي كان كبيراً... فنحن في سجن سياسي، والكثير منا يدّعي رفعة الأخلاق والتضحية والإيثار مع وجود جياع! الأمر، في نهاية المطاف، ليس فردياً تماماً، أي أن الموضوع لا يعاتب عليه أو يلام فيه فرد، بل نظام العلاقات الاجتماعية والسياسية بين النزلاء، وهو ما لم يكن على مستوى عال.

*   *   *

وقد يكون الموقف العلاجي متقدماً بالنسبة على الموقف الغذائي. وكان هناك في قسم الأحكام الخاصة مستشفى صغير، تابع للمستشفى الكبير في سجن الأحكام الطويلة (الثقيلة). ويقدم بناء المستشفى، وهو بمساحة 10 x 30، إمكانات طبية جداً لسجن صغير. يضم المستشفى مخزناً للأدوية، وغرفة لمنام الطبيب المقيم، أو لعمال المستشفى وعددهم غالبا من (2) من النزلاء، يكون منامهم في المستشفى (وتلك مسألة كانت تسّعر المنافسة الشديدة) بالإضافة إلى عمال (2) يعملان في المستشفى، خلال ساعات الدوام، وكلهم من النزلاء، الذين مثلوا دائماً قوة العمل الكثيفة والزهيدة، وهو ما يوفر شروط الاستغلال لدرجة السحق! وهناك صيدلية وعيادة لطبيب الأسنان، ثم غرفة عيادة الطبيب العام، ثم ردهة رقود المرضى وكانت تتسع لنحو (10) أسرة .

والحق، أن المستشفى كان يدار، بصفة جيدة جداً، في مرحلة ما قبل الحصار برغم الضغط الكبير على الأطباء بسبب الكثافة العددية للنزلاء، فالأطباء كانوا في الغالب الأعم يمارسون واجباتهم، بصفة إنسانية، وبعض الأطباء كانوا من النزلاء، ولكن هناك دائماً أطباء من وزارة الصحة، والجميع كان يقدم خدمات ممتازة بلا تعب ولا كلل أو ملل، وكانت الأدوية المنقذة للحياة، أو أدوية الأمراض المزمنة متوفرة لمرضى: السكر، الضغط، الربو، الحساسية، وغير ذلك. وقد ظل الموقف بهذه الصفة مع تراجع بسيط في زمن الحصار في كمية الأدوية وأنواعها، مع أن المراجعين للأمراض المزمنة: كانوا يحصلون على حاجتهم المقررة من الأدوية في الظروف كافة.

وأنا أعلم أن بعض المرضى كانوا يزودون ذويهم ببعض العلاج، الذي يحصلون عليه مجاناً، وبعض النزلاء كان يهربها إلى خارج السجن، كما كان هناك من النزلاء من يستخدم العلاج في غير موضعه، فهناك أدوية تحتوي على تسمية معينة من المهدئات والمسكنات، وتناول كمية كبيرة منها قد تؤدي مفعول المخدر أو المنوم لذلك كانت تباع في السوق السرية للسجن بين مدمني المخدرات، كما أن هناك أدوية خاصة بمرضى الأمراض العقلية والعصبية مثل: الصرع والشيزوفينيا والكآبة، أو درجات معينة من الجنون. والغريب أن عدد المصابين بهذه الأمراض لم يكن بسيطاً، وأن الكثير منهم كان يتعاطاها، حتى في مرحلة ما قبل السجن. وهذه صورة أخرى في قلة تبصر التحقيق والمحاكمة، إذ أن أمثال هؤلاء من المرضى لا يستحقون المحاكمة شرعياً، ولا الأحكام القاسية. فهذا نوع من أنواع موانع المسؤولية، كما يطلق عليها فقهاء القانون.

وبعض تلك الحالات كانت مؤسفة أو مضحكة، وربما أن بعض هؤلاء كان يعمد إلى التمثيل والمبالغة لكي ينال رعاية خاصة أو لإثارة العطف والشفقة، أو لكي يمارس ما يريد ممارسته من دون مساءلته على أنه مختل عقلياً، ولربما هناك من يعتقد أن الإصابة بالجنون سيكون سبباً لإطلاق سراحه. وهكذا كان في كثير من الأحيان، يختلط الحابل بالنابل، وعلى المرء أن يكون على درجة من الخبرة والتجربة والذكاء، بل والدهاء، ليميز بين هذا وذاك.

ولكن هذا الموقف العلاجي الممتاز (كان في الحقيقة أفضل ما في السجن) لم يحل دون وفاة عدد النزلاء، قبل الحصار وخلاله، لأسباب مختلفة، ليس منها تقصير العناصر الطبية، ويمكن القول، بادئ ذي بدء، أن هناك عدداً ضئيلاً 4 – 5 أشخاص توفوا إلى رحمة الله بسبب سوء التغذية أو قلة الطعام، أكتب هذا وأنا ممتلئ أسفاً وألما وكان هؤلاء، رحمهم الله، يتمتعون بنفوس كبيرة وكبرياء حال دون طلبهم الغذاء من أحد أو الاستجداء، وبعضهم كان مصاباً بأمراض تفاقمت في السجن، إلى حد الوفاة، كما كان هناك بعض من كبار في السن. ولكن هناك من توفي وهو في سن الشباب أو نحوه، منهم رفيقي وصديقي سالم حسن، وهو مناضل ومن عائلة مناضلة، فأشقاؤه جميعاً من قياديي حزبنا منهم المناضل القائد خيري حسن، والمرحوم خالد حسن، وموفق حسن، وهو مناضل بطل. وكان سالم يتمتع، في الأقل، ظاهرياً، بصحة جيدة وهو

لما يبلغ الخمسين من عمره، إلا أن قلبه كان متعباً، وتوفي فجأة بجلطة قلبية لم تمهله إلا دقائق، وأخوان آخرين فارقونا إلى رحمة الله سواء لكبر سنهم أم أن القلب يقرر فجأة الإضراب عن العمل، واستسلامه في لحظة مفاجئة، ويعلن نهاية المسرحية.

كنا نشيع من نفقدهم بحزن، وما نلبث أن نعود إلى زنزاناتنا، لا أقول ننساهم، ولكن ضربات المطرقة لا تتوقف، ويستمر النضال من أجل البقاء، وتغمرنا تفاصيل مرة، مرهقة، مؤلمة، معذبة إلى حد اللعنة، ولكن إياك أن تستسلم، أو أن تطلق الأه... فتلك سخافة لا مسوغ لها، تأوه بصمت، تعذب من دون أن يظهر ذلك على قسمات وجهك، وإياك أن تعلن الهزيمة.

كان الاكتظاظ هو المشكلة الأكبر في حياة النزيل، فتلك لها انعكاساتها المتعددة، منها ضيق المكان، صعوبة الحركة، كثرة المشاجرات والمنازعات، كما كان الاكتظاظ يؤدي إلى زيادة مخاوف الإدارة فتظهر تشدداً في تصرفاتها وقلقا، ولكن ما نحن بصدده الشأن الصحي، الذي كان يتأثر بصفة ملموسة، بالاكتظاظ.

على الرغم من أن السجن لم يشهد انتشار مرض خطر أو مهم، ذلك أن المستشفى كان يبذل جهوداً مشكورة حقاً، في التطعيم المستمر ضد الأمراض السارية والمستوطنة مثل: الكوليرا، الجدري، الملاريا، لذلك لم يشهد السجن إصابات بهذه الأمراض، ولكن ذلك لا يعني أن الاكتظاظ والحالة العامة، التي كان عليها السجن موضوعياً، لعدم إمكان خدمات السجن (مياه، مجاري، غذاء) توفير مستلزمات أعداد كبيرة من النزلاء من جهة، ولتأثر تلك الأجهزة بالحصار، من جهة أخرى.

أما ذاتياً، فقد تمثل الإشكال في وجود أعداد كبيرة من فئات وظروف وبيئات اجتماعية متباينة (بادية، ريف، مدينة) إلى سوء استخدام تلك المرافق لذلك شاعت أمراض ومشكلات صحية من أنواع أخرى مثل: السل T B، وهذه كانت تظهر، بين وقت وآخر، من مصدرين: الأول، ينقله النزلاء من الموقف الذي كانوا فيه، قبل مرحلة السجن، والثاني: إن الظروف الصعبة داخل السجن مثل سوء الإضاءة الطبيعية (نور الشمس) والاكتظاظ، الذي يؤدي إلى فساد في التهوية، والعفونة، ففي كثير من أمراض السجن (بقايا أطعمة وأغذية) وعدم التعرض بما يكفي لأشعة الشمس، مثلت أسباباً لبروز هذا المرض الوبيل، الذي أمكنت معالجته بسهولة (نسبياً) لاسيما إذا اكتشف مبكراً. لذلك كانت الإدارة ومستشفى السجن يعرضون النزلاء إلى التصوير ألشعاعي لمنطقة الصدر والرئتين لهذا الغرض.

أما المرض، الذي كان يمثل قلقاً، فهو الإصابة بالجرب، وسبب هذا المرض وجود طفيليات، أو حشرات دقيقة تستوطن جسم الإنسان فتدخل تحت الجلد وتضع البيوض وتتكاثر، وتسبب الحكة المزعجة، وينتقل بالملامسة أو الاحتكاك أو استخدام أدوات أو ملابس المصابين، ومع أن هذا المرض قد شاع في الثمانينيات، ولكنه لم يتحول إلى مشكلة لأن العلاج كان متوفراً وكان من السهل قطع دابر هذا المرض.

وفي سنوات الحصار شاع بين النزلاء، ولكن خارج السجن أيضاً مرض الحساسية بأنواعه وظواهره كافة، وصولاً إلى الربو، وهذا المرض كان مزعجاً حقاً بسبب تعدد أنواعه وظواهره، أبرزها ظهور بقع حمراء على الجسم والحكة، أو انتفاخا محدوداً أو واسع الانتشار في الجسم والرأس وصولاً إلى الجهاز التنفسي والربو. ومن إشكالات هذا المرض، أن لا علاج حاسماً له، أو بالأحرى أن العلاج يستدعي مراجعات كثيرة لعيادات متخصصة تجري التجارب على عشرات الأنواع من الحساسية، أو الأسباب المؤدية إليها.

وقد أصبت شخصياً بين العام 1990 حتى العام 2003 بحساسية متعبة، وفي غضون هذه المدة تناولت كمية كبيرة من الأدوية والعلاجات معظمها من الأنواع الفعالة ذات التأثيرات الجانبية غير البسيطة، مثل أدوية الكورتيزون، والديكساميثزون، والبرتزولون، وكانت تأثيراتها المباشرة هي: انتفاخ الوجه والجسم، وزيادة في الوزن ليس بسبب العافية طبعاً، وقد كنت قد تركت التدخين منذ العام 1992 بعد ادمان استمر لمدة أكثر من ثلاثين عاما، وتلقيت مساعدات من الأخوة الأطباء، لن أستطيع أن أنسى مساعدتهم ومنهم الأخ الدكتور ناصر، أبو أوس وكان ضابطاً في الجيش برتبة

عميد، أمضى بضعة سنوات معنا وخرجنا معاً، سلمه الله ووفقه. حاولنا اكتشاف جذر المشكلة لكن من دون نجاح. وكان هناك معهد للحساسية في بغداد يسمى معهد الحساسية يجري اختبارات لـ350 من أنواع الحساسية وقد طلبت من الإدارة أن أراجع هذا المعهد وكنت أعلم أن طلبي لن يجاب، وفعلاً فقد قابل أحد كبار ضباط الأمن طلبي بالابتسام فقط!

كانت إصابتي بهذا المرض المزعج، الذي بدأ يتحول إلى خطر بسبب كثرة الأدوية ومضاعفاته الجانبية، وكان قد أصبح طابع حياتي لمدة 14 سنة في السجن، ولكني لم أدعه يؤثر على فعالياتي الثقافية/ الرياضية، برغم تأثيراتها الصحية الواضحة، وقد تمكنت في زيارة واحدة لطبيب أخصائي في ألمانيا (بعد خروجي من السجن طبعاً) وبأمبولة واحدة، اختفى هذا العارض، وقد بين الفحص أن ذلك العذاب كله كان بسبب الغبار! لقد تحملت عذاباً لا يوصف لمدة 14 سنة، زال بجلسة واحدة!

وكانت الحساسية قد تطورت في السنة أو السنتين الأخيرتين إلى حالة الربو، وبالطبع فأن إشكالات الربو هي أكثر تعقيداً وإزعاجاً. وكنت في السنة الأخيرة، في الأقل، أتناول بانتظام علاجات الربو، الذي كان يتفاقم أحياناً إلى درجة اللجوء إلى خيمة الأوكسجين، ومن الغريب أن يزول هذا المرض، بصفة تامة، فور خروجي من باب السجن!

لكن الحياة اليومية للسجن بكل ما تضمه من مفاجآت وصدمات وضغوط نفسية، يصعب على كل شخص تحملها، أو لنقل إن تحمل هذه الأحداث تتطلب صبراً لا حدود له، وقدرة خيالية على التحمل، بيد أن الإنسان يكتسب (غالباً وبدرجات متفاوتة) هذه القدرة بمرور الوقت. ولا بد أن هذه الحياة الصعبة المرهقة تخلف آثارها الصحية على السجين، لذلك تجد شيوع أمراض السكر والضغط. وبالإضافة إلى ما ذكرناه من أمراض نفسية كانت تبرز، بصفة متفاوتة الوضوح، فكان بعض النزلاء قادرون على السيطرة على أوضاعهم النفسية وإخفاء الألام النفسية والجروح عميقة الغور في أنفسهم. ولكن لدى بعضهم كانت الإصابة بليغة بحيث كان يضطر لتناول العلاج (حبوب مهدئة) وللأسف هناك من سقط وانهار(والسقوط أنواع) تحت وطأة الظروف الصعبة، وببساطة كان الأمر يفوق القدرة على الاحتمال، ومن أجل اجتياز هذا النفق الرهيب، لابد أن تكون له القدرة على تحمل هذه الضغوط، ولكن لماذا؟... لأن الأكثرية الساحقة من النزلاء لم يكونوا قد وطدوا العزم على خوض غمار تجربة كهذه، والأمر ببساطة يفوق قدراتهم .

*　　　*　　　*

في خضم هذه الحياة الصعبة، كانت هناك أمكانية تنفيس للأزمة الصحية والغذائية والنفسية، وكانت بالنسبة للنزلاء تمثل طوق النجاة الثمين في لجة الأمواج المتلاطمة، وتلك كانت ما يطلق عليها (المواجهة)، والمواجهة، حسب أنظمة السجن، هي حق النزيل في مقابلة من يأتي لمقابلته من أهله وأصدقائه، لمدة محدودة في أيام محددة، وكانت إدارة السجن تضع سنوياً جدولاً بتلك المواجهات ابتداء من الشهر الأول في السنة/ كانون الثاني حتى الشهر الثاني عشر منها وهو كانون الثاني.

وكانت المواجهات الرسمية، مرة كل خمسة عشر يوماً، على أن تكون أيام الجمعة والسبت بالتناوب، فمرة تكون فيها المواجهة يوم الجمعة، والتي تكون يوم السبت، والوقت النظامي لذلك كان ابتداء من الساعة الثامنة حتى الساعة الثانية عشر أو الواحدة بعد الظهر. ولكن هذا الزمن يخضع، غالباً، لمزاج الإدارة، يلتزمون به حيناً ويجري تقليصه أحياناً ساعة أو ساعتين بذرائع مختلفة، لم تكن هناك سياقات ثابتة أوهم لا يريدون أن يلزموا أنفسهم بها، وقد استمر الأمر على هذا المنوال حتى فرض الحصار على البلاد بعد العام 1991، وبسبب صعوبات الموقف الغذائي، قررت الإدارة أن تجعل المواجهة أسبوعياً، لكي تعوض المواجهة النقص

الغذائي. وقد استمر الحال، على هذا المنوال، طيلة مدة الحصار، مرة واحدة أسبوعياً ولمدة تتراوح بين 4 - 5 ساعات.

كان النزيل يقابل من جاءوا لمواجهته في الغرفة التي كانت تشهد حملة نظافة وترتيب للاستقبال الزوار، وفي حالات الاكتظاظ، يكون بالوسع إجراء المواجهة في الساحات. وكان كل نزيل يهتم بهذا الأمر إذ يعد مكان مواجهته بما تيسر لديه من إمكانات في إقامة خيمة، إما أن تكون خيمة حقيقية ذات قماش سميك، أو تلك التي يتم أعدادها غالباً محلياً من أكياس الرز أو السكر وتتم تقويتها ببطانيات، وقد يعمد بعض النزلاء من ميسوري الحال إلى وضع مروحة كهربائية داخل الخيمة، وإعداد أماكن الجلوس ووضع أفرشة، وإعداد أطعمة وبعض النزلاء كان يحرص على تناول وجبة طعام مع عائلته، مما يمكن عدّها محاولة.. محاولة أن يفلت السجين من سجنه ولو لساعات، أن يعيش مع عائلته، كما يتخيل، ولو لساعات، محاولة... إنها مجرد محاولة!..

ولكن تلك المحاولة كانت تنتهي بسرعة... بسرعة خيالية شأن كل شيء طيب. وكانت زوجة ألبرت آينشتاين (عالم الرياضيات المشهور) تعاتبه مرة قائلة: إن القاصي والداني والعالم بأسره يسمع بنظرية النسبية، ولكنه لم يفعل شيئاً لكي يشرح لزوجته هذه النظرية المعقدة. اهتدي آينشتاين إلى الحل بسرعة، وكان يعرف عنه ميله إلى السخرية. فقال لها: هل تذكرين أيام تعارفنا وخطوبتنا، وكيف كانت اللقاءات (على الأقل بالنسبة لي) تنتهي بسرعة... الساعة تمضي وكأنها دقيقة واحدة، فابتسمت الزوجة وأيدت كلامه، إلا أنه أردف قائلاً: ولكن الآن(طبعاً بعد زواجهما بمدة طويلة) تمضي الدقيقة الواحدة، وكأنها ساعة كاملة، غضبت الزوجة، ولكنها فهمت النظرية النسبية.

ولكن نسبية المواجهة كانت ذات نتائج مادية، فالنزيل يتلقى من أهله المال النقد، بحسب القدرات المادية لأهله، وكذلك كميات من المواد الغذائية المطبوخة أو غير المطبوخة، وهذه من الأهمية بمكان، إذ تعينه على الصمود بوجه عاديات الزمان والحاجة، وذل السؤال وقهر الجوع.

والمواجهات قد تحمل المفاجآت الكثيرة السارة منها (زواج - ولادة - إكمال دراسة..الخ) والمحزنة منها: (وفيات - سفر نهائي - إعدام - طلاق ... الخ) وأيضاً الشائعات وما يدور هنا وهناك، وقد تتعالى أصوات الزغاريد، أو بكاء وعويل، وقد تنشب معارك ونزاعات.. كانت المواجهة أشبه بكرنفال أزياء ووجوه وشخصيات من مختلف أرجاء البلاد، والمطاعم والمقاهي وباعة العصير، وهم من النزلاء، ينشطون بنحو استثنائي في المواجهات. وكان يرد إلى السجن ما يسمى بالدلالات، اللاتي يبعن كل شيء من المواد الغذائية (الجافة والطرية) بدرجة رئيسة، واحتياجات النزلاء، وهذه كانت تمثل مورداً آخر لحراس السجن، الذين كانوا يتقاسمون معهن الأرباح، وكان بوسعك مشاهدة كل شيء وتجد ما لا يخطر على بالك.

وكانت إمكانيات النزيل، وحتى قيمته الاعتبارية، تعتمد، أحياناً، على كثرة المواجهات وعلى ما يجلبه له ذووه من أطعمة وملابس واحتياجات وغيرها، وبالمقابل، فأن هناك نزلاء، تكون مواجهاتهم قليلة أو نادرة، وكان هناك نزلاء لم يكن من يزورهم، حينئذ، كانت المواجهات تمثل بالنسبة لهم كابوساً وحزناً داخلياً. وضعف الإمكانيات المالية والغذائية عدا الجرح النفسي.

*　　　　*　　　　*

ومثلت قضية الكهرباء أمراً له أهميته في السجن. وإذا كانت قضية الكهرباء تمثل مسألة بالغة الأهمية ليس للنزلاء فحسب، بل وكذلك للإدارة أيضاً، فانقطاع الكهرباء يعني فساد الأطعمة في الثلاجات والمجمدات وتلك مشكلة تنصب على النزلاء بدرجة أساس. وفي الصيف يعني انقطاع الكهرباء توقف وسائل التبريد من مكيفات ومراوح تحيل السجن إلى جحيم لا يطاق.

ولكن انقطاع التيار الكهربائي، لاسيما ليلاً، يغدو قضية ذات أهمية خطرة بالنسبة للإدارة، فالظلام يوفر إمكانيات لا تحبذها الإدارة وعلى رأسها الفرار من السجن، لذلك فأن عصبية مبالغ

بها كانت تحل بهم عند انقطاع التيار الكهربائي ولو لبضعة دقائق، وعلى هذا الأساس، فأن النزلاء لم يكونوا يشكون من الكهرباء، والإدارة اتخذت هذه الذريعة لابتزاز المال من النزلاء بداعي إصلاح التوصيلات الكهربائي المتقادمة، التي كانت تتعرض لسرقة عناصر الإدارة أنفسهم باستمرار، وكانت ذريعة الإدارة مؤثرة. فبرغم كثرة الثلاجات (300 ثلاجة ومجمدة) ومبردات (70- 80 مبردة) والتلفزيونات (ربما 100 تلفزيون) والاستخدامات الخاصة للنزلاء (هيترات للتدفئة، للاستحمام، والمصابيح الشخصية) كانت تشكل ضغطاً على القدرة الكهربائية، وبذريعة التحسين والتطوير، كانت تسحب مبالغ كبيرة من النزلاء (كتبرعات!) لا شك أن جزءاً مهماً منها يذهب إلى جيوب المسؤولين في الإدارة.

والمشكلة الأخرى، التي كان النزلاء يعانون منها لاسيما في فصل الصيف: هي الماء. ومن المعلوم أن شحة المياه كانت مشكلة البلاد، بصفة عامة، بسبب الافتقار إلى الأدوات وقطع التبديل ومواد التصفية وتقادم شبكة المياه. ومشكلة المياه في السجن كانت بسبب هذه العناصر مجتمعة، يضاف إلى ذلك، أن نزلاء من المقربين للإدارة أحدثوا تعديلات كثيرة في شبكة الأنابيب لمصالحهم الشخصية، وسوء العدالة في التوزيع، أحدث شحة في المياه لدى سائر النزلاء. وللأسف فأن ممارسات كهذه حدثت من شخصيات محترمة وغير محترمة على السواء، ولكن، بصفة عامة، لم تكن مشكلة المياه مطروحة بقوة في الأوقات كافة، ربما كانت تحدث لبضعة مرات خلال فصل الصيف مع شحة في المياه يمكن تحملها، ولكن بكثير من الصراخ والصياح وما إلى ذلك... كان هناك حرجاً في الموقف مؤثراً على حاجة النزيل للاستحمام والغسل والطبخ، وكما ذكرت، كنا نتدارك ذلك ولكن مع بذل بعض الجهود والتعب.

* * *

ولعنصري الماء والكهرباء تأثيرهما البالغ على فعاليات مهمة أخرى، منها الاستحمام وغسيل الملابس، وهما من الأشياء المهمة في السجن ففي بعض الأقسام كانت تتوفر إمكانية الاستحمام داخل الغرفة أو في الحمام العمومي، أو في الحمام العمومي الأكبر في الساحة الخارجية، والماء الساخن متوفر في الحمامات العمومية بكثرة واستمرار. والحمام العمومي لم يكن يعطى إلا لأصحاب الحظوة والحظ ولمن يناول الإدارة ومافيا في السجن شيئاً من الأرباح، وغسل الملابس كان من اهتمام كل نزيل ولكن كان هناك من النزلاء من يعطي ملابسه إلى غسال، وكان هناك العديد من النزلاء من الذين يؤدون هذا العمل مقابل مبالغ معقولة، وكذلك كان حال المكوي ففي كل قسم كان هناك عدد من الذين يكوون ملابس النزلاء، وبالطبع الجميع يدفع للمافيا نسبة من أرباحه راضياً مرضياً.

ولك أن تتخيل حركة الاستحمام وكي الملابس، التي كانت تشتد لدى اقتراب موعد المواجهة، إذ يحرص النزيل على الظهور بأبهى صوره، فيرتدي الكثير منهم دشداشة نظيفة مكوية... تفوح منهم أنواع العطور الجيدة والرخيصة الرديئة... تلك كانت أيام لا تنسى!

والنزلاء، بصفة عامة، ليست بهم حاجة إلى التدفئة شتاء، ومن المعروف أن شتاء بغداد قصير، برغم أن هناك أياماً قارسة البرودة، إلا أنه كان يبدو محتملاً في السجن باكتظاظه العالي، في تلك العلب الاسمنتية، وكان الشعور بالبرد يكاد لا يذكر، والأمر يبدو معكوساً تماماً في الصيف، إذ لابد من الكهرباء ولابد من تشغيل معدات التبريد، التي كان المتاح منها هي المراوح السقفية بسبب رخص الثمن، وكانت الغرف (الزنزانات) مزودة بمراوح سقفية حكومية، ولكن المراوح لا تكفي في صيف بغداد الملتهب، الذي قد تصل درجة الحرارة فيه إلى ما فوق الخمسين درجة، فكانت جميع الغرف مزودة بالمبردات، التي تعمل بالماء، أما أن يجلبها النزيل من بيته أو يتعاون النزلاء لشراء مبردات لغرفهم وهذا ما كان يحدث في الغالب، وإن كانت الملكية الجماعية تقود غالباً إلى مشكلات ونزاعات، ولكن النزلاء عباقرة في حل المشكلات.

*   *   *

المرافق الصحية، كانت واحدة من أخطر المشكلات للنزيل، وهنا يمثل الاكتظاظ مرة أخرى جوهر المشكلة، عدد المرافق المحدود على كثرة النزلاء كام يمثل مشكلة، ومن جهة أخرى فأن تقادم المجاري الصحية وسوء استخدامها مثلت أزمة لا نهاية لها، وكانت مجاري المياه الثقيلة تمتد، عبر أنابيب، إلى خارج السجن إذ تواصل امتدادها ولكن في مجار مكشوفة إلى مجمع للمياه الثقيلة من الأقسام (السجون) كافة في أبو غريب، وهذه المجاري كانت غالباً ما تتعرض إلى الانسداد، لأي سبب، كما كانت تشيع في الأجواء الروائح الكريهة ومثلت مرتعاً للحشرات والذباب والأوبئة، وظلت هذه المشكلة من دون حل جذري، والسبب لأن بها حاجة إلى حل جذري! ويتطلب إصلاحها أموالاً كثيرة وجهوداً كبيرة، ليس بهبات وعمل سخرة ينهض بها النزلاء بأنفسهم.

*   *   *

على الرغم من أنني كنت اعمل بسياقات ثابتة كالاغتسال والملابس والحمام والحلاقة، إلا أن للضرورة أحكام، ولابد من أتباع أقصى درجات الدقة من أجل مواصلة مستقيمة للحياة في ظل ظروف صحية وخدماتية صعبة.

أما المواجهة، فأنا كنت على انقطاع تام عن عائلتي (زوجتي وأولادي) بسبب وجودهم في ألمانيا، وكانت السلطات قد منعت أهلي في بغداد من الاتصال بأي صفة بعائلتي، سواء هاتفياً أم بالرسائل، ولكني كنت أتلقى زيارات من أهلي في بغداد (شقيقتي وشقيقي) وصديق هو لي بمنزلة الأخ، وعدد من الأصدقاء مما لا يدعك تلعن الحياة والزمن، وكان هناك عدد من الأصدقاء يصعب عليهم لأسباب سياسية الحضور إلى السجن، وأنا أتفهم هذه الصعوبة.

إلا أنني كنت راضياً عن حالي، فأني كنت أعدّ السجن برمته إهانة للإنسان (السياسي) ومحاولة لسحقه وتحطيمه، بصفة منتظمة أو عشوائية، ولولا إحساسي التام بظروف المرحلة التاريخية، التي تمر بها بلادنا، ووعيي التام لوجودي هنا، ومعنى ذلك، لكان الأمر قد يتحول إلى شيء لا يطاق.

4

ليس هناك إنسان عبارة عن جزيرة قائمة بذاتها ...
كل إنسان هو جزء من الكل
إن بقعة واحدة يستطيع البحر أن يمحوها بسهولة
وأن موت إي إنسان ينقص شيئاً مني
لأنني أنتمي إلى الجنس البشري
لذلك، لا ترسل أبداً من يسأل: لمن تقرع الأجراس...
إنها تدق من أجلك أنت..
إنها تقرع للأبطال...

جون دن

العلاقات السياسية ـ السجناء من حيث انتماؤهم السياسي ـ العلاقات بين النزلاء المافيا ـ التنظيمات ـ الأخبار

من حيث المبدأ يفترض أن يكون سجناء قسم الأحكام الخاصة كلهم سياسيين، بل ومناضلين ومحنكين أيضاً. لان عليهم واجب التصدي لنظام يتمتع بقوى متعددة، وتواجه المعارضة أجهزة أمن بارعة في عملها. ولكن، للأسف، لابد من القول إن الأمر لم يكن كذلك. ومع الصور الإنسانية العميقة، التي عرضتها قبل هذه الصفحة، وسأعرض قسماً منها في الصفحات اللاحقة، إلا أن العلاقات الإنسانية، بتقديري، شيء والعمل السياسي والنضالي شيء آخر. وأن يكون إنسان ما صديقاً طيب القلب، مخلصاً، نقياً، لا يعني أنه يصلح حتماً للمهمات النضالية، لاسيما المعقدة منها، فعلى السياسي/ المناضل أن يكون على درجة عالية من الوعي السياسي، وإدراك عميق ودقيق لأولويات العمل النضالي، وقدرة فائقة على تشخيص العلل في نظامنا السياسي، بصفة عامة، لاسيما وقد بلغ النظام السياسي العربي/ الإسلامي مرحلة يمكن وصفها بمرحلة تمفصل، فإننا على أبواب مرحلة تحولات مهمة وعلى أحزابنا أن تأخذ بنظر الاعتبار المرحلة الحالية في مستوى التطور السياسي والاقتصادي والتأثيرات بالغة الأهمية للمستوى الباهر للعلوم والتكنولوجيا، فمن المؤكد أن هذه العوامل ستكون مهمة ومؤثرة في استراتيجيات حركاتنا السياسية، وفي أعادة الاصطفاف، وعلى مستوى الأولويات. وبعبارة أخرى فأن حركاتنا وأحزابنا واستطرادا أنظمتنا، وما لم ترتق في خططها وتطبيقاتها وأساليب عملها إلى مستوى غير السائد حالياً، فأن مخاطر جسيمة تحيق باستقلالنا ومسيرتنا السياسية/ الثقافية/ الاقتصادية، وهذه المخاطر لا تلوح في الأفق، ولا تقرع الأبواب، بل هي قد اقتحمت بيوتنا للأسف!

ومن المؤسف القول، إن حركاتنا السياسية، حتى تلك التاريخية منها (وأقصد هنا تلك، التي لها وجود تاريخي في العراق السياسي الحديث)، لم تذهب إلى ما هو أكثر من خطابات سياسية، ومداخلات ومناقشات كثيرة، والأقل منها إلى دراسات وبحوث تحليلية دقيقة، وتالياً، فأن هناك قصوراً واضحاً في الرؤية والتحليل والممارسة والتطبيق. ومن البديهي أن تكون تلك الجماهير، على اختلاف صلاتها بالحركات السياسية العراقية، عفوية أكثر مما هي منظمة، وتعمل بردود الأفعال أكثر من العمل الناضج استراتيجي الأبعاد.

وطبقاً لهذه المعايير، فإن العناصر، التي كانت محسوبة على الأحزاب السياسية، كانت في معظمها غير منتمية بالمعنى المألوف للانتماء الحزبي، الذي نعرفه في الأحزاب الوطنية والقومية والثورية، فالقليل النادر من هؤلاء، الذين أودعوا السجن، كانوا على صلة تنظيمية دقيقة بالحركات السياسية الدينية منها، على وجه الدقة. فالسلطات كانت لا تميز كثيراً بين المنتمين إلى تلك الأحزاب، أو الذين يعدّون من جماهير تلك الأحزاب والمؤيدين لها، بهذا القدر أو ذاك من الحماس والجدية، سواء بوعي سياسي أم مدفوعة بعاطفة. وسأطلق هذه التسمية على العناصر المحسوبة على هذه التيارات، بصرف النظر عن حقيقة انتمائها.

وإلى حد ما مشابه، كان الموقف عند عناصر التيارات الكردية أو المحسوبة عليها، فالأمر لم يتعد في كثير من الأحيان التعاطف أو التأييد أو تقديم خدمات بسيطة. وهكذا فأن معظم نزلاء السجن السياسي (قسم الأحكام الخاصة) كانوا ضحايا المرحلة وأفرازات لإرهاصاتها في آن واحد أكثر من كونهم أعضاء في حركات سياسية وضمن فعاليات منظمة دقيقة.

كانت الظروف السياسية هي العامل الحاسم في انتماءات الأفراد، كما لم يكن توزيع النزلاء على التيارات السياسية متشابهاً في السنوات كافة. فهناك تيارات كانت ناشطة ثم اختفت، وتيارات لم تكن معروفة ظهرت. وسوف أكون حريصاً على أن لا أسجل هنا ما يمكن أن يعدّ

أسراراً أو قضايا شخصية أطلعت عليها، بحكم علاقاتي السياسية أو الشخصية مع قادة هذه التيارات، بل سأقتصر على الشائع منها والمعروف عامة.

حتى العام 1991 كانت غالبية النزلاء تتوزع على التيارات الآتية، حسب الأغلبية: ـ
1 - الاتحاد الوطني الكردستاني.
2 - البارتي الديمقراطي الكردستاني.
3 - الحزب الاشتراكي الكردي (سوشياليست).
4 - الشيوعيون الأكراد (الشيوعي العراقي ـ الشيوعي الكردي).
5 - تيارات صغيرة: ـ جماعة ملا بختيار.
ـ عماليون.
ـ حزب الشعب.
ولكن هذه الخارطة السياسية الكردية ما لبثت أن طرأت عليها تعديلات مهمة بعد العام 1991 فأصبحت:
1 - الاتحاد الوطني الكردستاني.
2 - الجماعات الإسلامية الكردية.
3 - البارتي الديمقراطي الكردستاني.

نلاحظ هنا، تراجعاً للحزب البارتي، مقابل وجود متنام للتيارات الإسلامية، واختفاء شبه تام للحزب الاشتراكي، مع أنهم من أحزاب المقدمة ويتمتعون بسمعة نضالية وشخصية جيدة جداً، وأيضاً اختفاء تاماً للفئات الصغيرة، اليسارية منها وغيرها، وكذلك تضاؤلاً ملحوظاً لدور الشيوعيين الأكراد (بينهم مناضل شيوعي الأخ رزكار عزيز، وكان على درجة عالية من الخلق والأدب والشجاعة المبدأية). كما تراجع عدد الأكراد في السجن بعد العام 1991، بدرجة ملحوظة لكن من دون أن يختفي، فاستمر وجودهم بأعداد مهمة قد تصل إلى 25% من إجمالي عدد النزلاء.

وأريد هنا أن أركز على وضع اليزيديين في السجن، فاليزيديون كانوا على درجة من الخصوصية، فهناك من يعدّ نفسه كردياً ومنهم من يعدّ نفسه عربياً، ومنهم من يحسب نفسه على جهة الانتماء القومي، لا هو كردي ولا هو عربي، فهو يزيدي فحسب، وتبدو بعض تقاليدهم تشابه تقاليد الأكراد، ولكن معظم تقاليدهم الأخرى تشابه التقاليد العربية. فمنهم من يرتدي الملابس العربية، ومنهم من يرتدي الملابس الكردية، وبرأيي الشخصي، أن اليزيدية ديانة واعتقاد، وفيما عدا ذلك فاليزيدي قد يكون كردياً ،إن كان هو كردي المشاعر، أو عربياً، إن شاء ذلك، وإن شاء أن يقول أنا يزيدي وعراقي فحسب، فمالضير في ذلك؟..

يتركز اليزيديون العراقيون في منطقتين رئيستين:

الأولى: منطقة الشيخان وما جاورها، وقد يكونون أفراداً أو جماعات منهم أقاموا في أوقات مختلفة، قديماً وحديثا،ً في مناطق دهوك وزاخو، وهؤلاء على الأرجح يحسبون أنفسهم أكراداً وهناك بينهم من يعدّ نفسه منتمياً إلى الموصل العربية.
والثانية: منطقة جبل سنجار وما جاورها، اٍ انتشروا، فيما بعد ولأغراض المعيشة في المناطق المجاورة لسنجار، وجبل سنجار وهؤلاء يحسبون أنفسهم، على الأرجح، عرباً، وتقاليدهم وإن كانت تحمل الخصوصية اليزيدية، إلا إن الكثير من العادات والتقاليد، التي يمارسونها، عربية وتبدو راسخة إلى جانب عادات وتقاليد وخصائص يتمتع بها الفرد اليزيدي، أبرزها: الإخلاص والاستقامة.

وكان اليزيديون ولقرون طويلة قد إلتجأوا إلى الجبال المنيعة ليلوذوا بأنفسهم وتقاليدهم وديانتهم، ولكنهم، منذ تأسيس الحكم الوطني وتأسيس الدولة العراقية، عاشوا في مناطقهم من دون أن يعرف عنهم ما يسيء إليهم ثم أخذوا بالاختلاط، تدريجياً، في محيطهم الكردي والعربي، والأجيال المتعاقبة منهم يتخذون ما يمكن وصفه بتقاليد قديمة تبدو غريبة وغير مقبولة. واليزيديون فعلوا ذلك من أجل الالتحام بالمحيط أولاً، ومن أجل التحرر وفوائده، التي منحت أجيالهم الجديدة الكثير، إذ شاعت المدارس وأنضم أبناء الطائفة اليزيدية إلى القوات المسلحة ضباطاً وجنوداً ودخلوا الجامعات، بل وحتى الفتيات اليزيديات دخلن الجامعة وتخرجن فيها، فمنهن الطبيبة والقانونية والمهندسة، كما أن الأحوال المعيشية لعموم أبناء الطائفة تطورت، بصفة واسعة، سواء من عمل منهم في الزراعة أو التجارة، كأرباب حرف وصناعيين صغار، وهكذا فأن أوضاع اليزيديين تطورت جذرياً عما كنت أعرفه، وكنت قد أمضيت ردحاً من الزمن في سنجار في الخمسينيات ولي إلمام جيد بشؤون المنطقة.

وهكذا فأن اليزيديين هم في التحام متواصل مع محيطهم، لذلك أنضم من أنضم منهم إلى الأحزاب الكردية والعربية (حزب البعث العربي الاشتراكي)، ومنهم من أنضم إلى الحزب الشيوعي العراقي، وهكذا كان اليزيديون في السجن وقد بلغ عددهم في أقصى الأحوال 30 – 35 نزيلاً، وكان يزيديو الشيخان ينتمون إلى القضايا الكردية، أما يزيديو سنجار فينتمون إلى حزب البعث العربي الاشتراكي (اليسار)، كما تعرفت على اثنين من الشباب اليزيدي ينتميان إلى الحزب الشيوعي العراقي.

أما النزلاء من القومية التركمانية، فقد كان حجم وجودهم في السجن يقارب الوجود اليزيدي، وربما بلغ في أقصى حالاته 30 – 35 نزيلاً وكان هذا العدد يهبط ليصل ربما إلى عشرة أفراد، وكان النزلاء التركمان في معظمهم ينتمون إلى الفعاليات التركمانية، السياسية منها والثقافية، كما كان وجود بعضهم في السجن بسبب محاولة مغادرة البلاد، بصفة غير شرعية، أو لأسباب أخرى غير تنظيمية/ سياسية (تستر ـ تهجم .. الخ) ولحالات قليلة هي تأييد أو تقديم العون للحركات الكردية أو الانتماء إلى الحزب الشيوعي، أو إلى التيارات الإسلامية.

أما النزلاء العرب فقد كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة لاسيما بعد 1991، إذ تراجع عدد النزلاء الأكراد إلى 25- 35%، مثل العرب تيارات سياسية ودينية واجتماعية وفكرية مختلفة.

ففي مرحلة ما بعد 1991 كان النزلاء من التيارات السياسية والحزبية، هم من المنتمين إلى التيارات السياسية الدينية الشيعية والسنية، ثم حزب البعث العربي الاشتراكي (يسار) والحزب الشيوعي العراقي، بالإضافة إلى وجود حالات متفرقة غير قياسية مثل: عرب محسوبين على الفعاليات الكردية، أو من النزلاء المخالفين للقانون في حالات معروفة، وتشمل عدداً كبيراً من النزلاء هي:

* تهجم: تنص المادة 225 من قانون العقوبات، الذي كان مطاطاً كقانون العقوبات العراقي نفسه، على أن كل من يتهجم بإحدى وسائل العلانية على المقامات العليا في الدولة. بيد أن النزلاء على وفق هذه المادة كانوا في معظم الحالات قد أطلقوا نكتة، أو أنهم انتقدوا الدولة أو شخصيات غير أساس، وتصبح تافهة في بعض الأحيان لتصل إلى أن أحدهم خفّض صوت التلفاز في أثناء نشرة الأخبار مثلاً، وتعرفت شخصياً على بضعة حالات كانت أجهزة الأمن قد وضعت لاقطات في غرف نوم بعض من يريدون الإيقاع بهم لهذا السبب أو ذاك. والحقيقة أن الإسراف في كيل التهم وتكييف المواد القانونية، بنحو غريب وعجيب، زج بالكثير من الناس في السجن وكان في كثير من الأحيان يمثل سخافة غير مفهومة.

* تجاوز: وهذه التهمة كانت خطرة في الثمانينيات، وغالباً كانت المادة 175 تكيف، وهي المادة المختصة بالاتفاق الجنائي، بما يؤدي إلى خرق مواد الأمن الخارجي، والغريب أن هذه المادة تحكم بالإعدام في حين أن كثيراً من مواد الأمن الخارجي لا تحكم بالإعدام!.. ويبدو لي أن الأمر منوط، في نهاية الأمر، إلى التحقيق والمحاكمة... ولكن أي تحقيق وأي محاكمة!..

وفي بعض الأحيان كانت توجه المادة 157 وهي أخطر من المادة 175 ، إذ هي تحكم بالإعدام أيضاً ولكن بمنطوق غريب: كل من قاتل قوات الجمهورية العراقية مع جهة أجنبية، وكانت هذه المادة تكيف على بعض حالات التجاوز(مثل حالتي) برغم أنهم ألقوا القبض علينا داخل العراق، ولا توجد أي مؤشرات عدوانية بمغادرة البلاد. وبالفعل فقد كان ثبتت على ملفاتنا عبارة (نية تجاوز).

* تستر: وهي التهمة المحببة للمحققين ورجال الأمن ومحكمة الثورة، فالتستر كلمة فضفاضة كالثوب الواسع يصلح أن يلبس أحجاماً كثيرة، وكان عدد النزلاء المحكومون على وفق مادة التستر كبير جداً.

* ومن المضحك أن تكون هناك دعاوى كثيرة في السجن مثيرة للسخرية مثل: ثرثرة، رعونة، خطأ غير مقصود، وتأمل كم هو مثير للهزل عندما تسأل شخصاً عن تهمته، فيقول لك: رعونة!..

وإلى مرحلة ما بعد 1991، لم يكن السجن يضم إلا نزلاء على وفق هذه السياقات، أما في المرحلة ما بعد 1991 فثمة تحولات بدأت تطرأ على أصناف النزلاء، فمع تواصل الأصناف السابقة، ابتدأت ترد إلى السجن أعداد ممن ينتمون إلى المؤتمر الوطني أو حركة الوفاق، أو حركات تطلق على نفسها مسميات غير معروفة للعراقيين، ولكن هذه الأعداد لم تحدث خللاً في هيكلية التشكيل السياسي القديم، مع ملاحظة أن توارد البعثيين (اليسار) والشيوعيين كان، دائماً، بأعداد محدودة بسبب إتقان هذين الحزبين العمل السياسي لذلك كانت خسائر هذين الحزبين أقل من خسائر غيرهما، كما أن اختراق أجهزة الأمن للتنظيمات البعثية والشيوعية كان محدوداً بعكس تنظيمات الحركات الإسلامية وغيرها.

* تهمة التجسس: والحديث عن هذه الفئة من النزلاء معقد، وبحكم تجربتي الطويلة في العمل السياسي ومكوثي في السجن، فأني أريد أن أقول، نعم كان هناك نشاط تجسسي كثيف موجه ضد العراق، وهذا مؤكد بالأدلة المادية والعقلية معاً. ومن المؤكد أيضاً، أن الكثير من هؤلاء قد أفلت من أيدي الأجهزة، وربما أن هنا من استمر بالعمل حتى أواخر أيام النظام السابق، ولكن الأجهزة الأمنية، (المخابرات ـ الأمن ـ الاستخبارات العسكرية) كانت قد تمكنت من كشف العديد من تلك العناصر والشبكات التجسسية وألقت القبض عليهم وقدمتهم إلى المحاكم، فمنهم من أعدم ومنهم من حكم عليه وأودع السجن. نعم في السجن نفسه، الذي يودع فيه السياسيون، بحكم أن السجن يحمل أسم "قسم الأحكام الخاصة"، كما سبق أن نوهنا، والتجسس من المواد، التي تقع في باب جرائم الأحكام الخاصة بالأمن الخارجي.

ولكن في الوقت نفسه، لابد من الإشارة بدقة إلى أنه كان بين المحكومين بقضايا التجسس من هو برئ من هذه التهمة براءة الذئب من دم أبن يعقوب (وهي أشارة للبراءة المطلقة)، وكان هناك من تعامل مع الخارج، أصدقاء أو أقارب، جهات حزبية، ممن لا يمكن مطلقاً إسناد تهمة التجسس إليهم، كما كان هناك من تعامل حقاً مع أجانب، ولكن ليس في أطار تقديم معلومات أو نشاط تجسسي، بل في أطار عمل تجاري وثقافي. وكان هناك أيضاً من أبناء المناطق الحدودية ممن لهم علاقات مع عناصر في الطرف الآخر من الحدود ليست بالضرورة تجسسية، وبهذا المعنى الخطر للمصطلح، بل هي علاقات أقارب وزواج بين طرفي الحدود أو تجارة، أو تهريب، وكان هناك من غررت به جهات أجنبية تحت عناوين ومسميات وشعارات خلابة وعاطفية وبراقة، فتورطوا في نشاطات يمكن أن تحمل صفة التجسس، ولكن لابد من القول إن هناك من كان قد نشط في أعمال تجسسية وتخابر مع أجهزة مخابرات أجنبية بهدف الإضرار بالبلاد. ولا أريد، هنا، أن أحدد الأعداد والنسب، واستطراد الأسماء، فتلك مرحلة أنقضت ونحن، اليوم، أمام حياة جديدة، إلا أنه من المؤسف أن السلطات لم تكن تدقق كثيراً في توجيه هذه التهمة، فيختلط البريء بالمذنب، وكم هي هائلة معاناة البريء عندما توجه إليه هذه التهمة، وكذلك موقف عائلته وأبنائه، وكنت على إطلاع على بعضها، والأمر كان مؤلماً، أشد درجات الإيلام، وأنا أعدّ أن تلك مثلبة أخرى من مثالب أنظمتنا ومجتمعاتنا، بصفة عامة، فكم من الاتهامات تطلق جزافاً... مع أن أحكام الشريعة تنص في مواضع عديدة على ضرورة التأكد باليقين المطلق، قبل إطلاق

التهمة، وكلما كانت التهمة قاسية، كان من الضروري توفير المزيد من الإثباتات ، وأن أي شبهة تدفع التهمة وأي تناقض يدحضها.

أما في أطار العلاقات بين النزلاء: فهنا سأقصر الحديث من دون الإساءة إلى شخص أو جهة، ولكن لابد من الإشارة، بادئ ذي بدء، وكما نوهت عن ذلك في أماكن عديدة من هذا الكتاب، أن قسم الأحكام الخاصة، كان يختلف اختلافاً كبيراً عن سجن الأحكام الطويلة أو القصيرة (وهي سجون جنائية). فنكهة السجن السياسي موجودة فعلاً ولكن... لابد من الاعتراف أن تلك النكهة، وأقصد بها تلك العلاقات بين النزلاء أنفسهم، تختلف أيضاً اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في الخمسينيات أو الستينيات.

وطالما أن النزلاء في تفاوت شديد على الأصعدة كافة، فمن البديهي أن يكون هناك تفاوت في سياقات التعامل. فمن المؤكد أن تكون هناك شخصيات محترمة لها وزنها السياسي والثقافي والاجتماعي، ولكن حجم هذه الفئة كان ضئيلاً. والفئة الأوسع كانت ممن يصح عدّها من الجماهير الملتفة حول هذه التيارات والشعارات، وهذه فئة تمنح عناصرها (بالتتابع): التعاطف ـ التأييد ـ المساندة ـ الدعم. وأن هذه الفئة وعناصرها لا يمكن أن يطلب منها أن تكون منضبطة أو أن تمثل الالتزام الحزبي أو السياسي. لذلك كانت في الغالب، تعيش على هواها لا يردعها في ذلك إلا رادعان:

الأول: أخلاقي وذاتي، بحكم العادات والتقاليد والآداب الاجتماعية والدينية.

الثاني: هو الخشية من رد فعل الإدارة في حال تجاوز النظام العام وقواعد السجن وقوانينه.

ابتداء، فقد كانت هناك شخصيات تمثل قدرة استقطاب، إما لأنها تمتلك مكانة سياسية فتشكل نقطة استقطاب لمن يشايع هذا التيار، أو لأنها تمتلك قدرة ثقافية مهمة فتكون نقطة استقطاب للمثقفين، أو لمن يريد أن يتعلم، شخصيات مستقلة فرضت احترامها على الجميع، أو من كان يشغل وظيفة كبيرة قبيل سجنه، شخصية مشهود لها بالكفاءة والنزاهة، وأخيراً شخصيات طفيلية كانت تفرض نفسها على واقع السجن، إما بسبب أنها تمتلك قدرات مالية، وأنها تمارس التجارة لصالح الإدارة.

ولكن هؤلاء الطفيليين كانوا قد أسسوا مافيا ذات أنياب فولاذية تمارس الحلال والحرام على هواها من دون حسيب أو رقيب، كانت المافيا تشغل الكثير من النزلاء(تحت ضغط الحاجة) لقاء قوت اليوم أو ربما أكثر قليلاً، بما يقرب وصفه من عبودية معاصرة، بل كانت هذه الشخصيات تحظى بكثير الاحترام والتقدير من الإدارة والنزلاء على حد سواء. وباستثناء عدد ضئيل من العناصر المبدأية، التي كانت تشخص هذا الواقع بدقة وتتصرف بمبدأية، كان المجموع لا يرفض مثل هذه الممارسات المنحطة... وبوسعي أن أكتب الكثير عنها، ولكن دعنا نركز، كما قلت على العلاقات المضيئة المشرقة.

كنت تجد بين النزلاء من يمكن اتخاذه صديقاً وأخاً، وبصفة عامة، كانت أجواء السجن في الثمانينيات، وأغلب سنين التسعينيات، نقية، صافية (على الأغلب)، إلا أنها ابتدأت تتعكر بورود أعداد من النزلاء غير مؤهلة للعمل السياسي، شباب أكتووا بنار الحروب والنزاعات، فأضاعوا مستقبلهم الدراسي والمهني، فقدوا الأمان فراحوا ينشدونه، هنا وهناك، في وقت اشتد الضغط عليهم من كل صوب، فأضاعوا رشدهم في كثير من الأحيان، لقد تعرفت شخصياً على شبان رائعين، كان من الممكن أن يكونوا عناصر مفيدة، لكن العوامل الذاتية كانت أقل من قدرتهم على تحمل هذا الضغط الهائل، والأمر يشبه توصيلة كهربائية ليس بإمكانها تحمل مرور طاقة كهربائية تفوق قدرتها على التحمل، ليس بسبب النوعية الجيدة أو السيئة، ولكن بسبب طاقتها التصميمية. وأنا أشهد أن الموقف كان صعباً... صعباً إلى درجة يتعذر فيها صمود عنصر غير مؤهل تأهيلاً سياسياً عالياً جداً. والشبان كانوا على درجة من اللطف ويحملون شحنات ودية طيبة من أبناء شعبنا الرائع، ولا أقول ذلك لكي أكيل المديح والثناء، ولكن هذا الإنسان العراقي رائع حقاً، ولا يتصرف بنحو سيء إلا عندما تتدخل عناصر أجنبية فتفسده، لكن الجوهر يبقى سليماً ونقياً وهناك وجوه لا تنسى في سفر العذاب الطويل، أحبة لا يمكن أن ينساهم المرء أبداً.

كيف بوسع المرء أن ينسى معن وهيب؟

معن كان شاباً رائعاً بكل ما في هذه الكلمة من معاني كثيرة، كان طالباً في الصف المنتهي بكلية الزراعة، ومناضلاً في حزب البعث العربي الاشتراكي (اليسار) وهو في الوقت نفسه خال المناضل القائد محمد عبد الطائي عضو القيادة في الحزب (وإن كان معن يصغر محمداً بسنوات عدة)، كان معن الأخ والصديق والرفيق لكل من يعرفه.. فقد كان يمتلك قدرة عجيبة على احتمال الناس على اختلاف اتجاهاتهم وشخصياتهم، وقد عشت وإياه، منذ أن دخلت السجن في العام 1987 وكان قد أمضى وقت تعارفنا، أكثر من عشر سنوات. معن كان مناضلاً مثقفاً محترماً لكل من يتعرف عليه، بعيد كل البعد عن الأنانية وحب الذات، شجاعاً وكريماً. كان لي بمنزلة الأخ، وفقدانه أصاب القلب بجرح لا يندمل أبداً، ترى كم من الآلام تحملنا؟... وكم من المصائب توجّب علينا تجرعها!...

وكان هناك شاب في العشرينات من عمره من أهالي البصرة، يدعى فراس! كان رائعاً نقياً صافيا كماء العين... إنني أكتب هذه السطور بصعوبة بالغة، كنت أحبه كثيراً، وكان يستحق هذه المحبة. ثم أن أسم فراس يداعب أوتار قلبي، فهو أسم ابني الكبير، الذي يماثله سناً، كنت أحب أن أراه، وكأنني بذلك أسد نقص الحاجة إلى ابني... ولا يمكن أن يمضي اليوم من دون أن أراه مرة أو مرتين أو ثلاثة، أحييه وأناديه باسمه المحبب: فرّوسي، تماماً كما كنت أنادي ابني فراس، وقد أدرك فراس محبتي له، وكان يجيبني، بلهجته الحبيبة: ها يابه. فأقول له: فراس هل تعرف أني أحبك، فيقول: نعم يابه، يقولها بأدب وخجل، فأقول له: هل تعرف لماذا؟. فيرد بخجل طفولي: نعم يابه لأن ابنك اسمه فراس، فأقول له: لا ليس من أجل ذلك فقط، فأنت أيضاً ابني.

يا إلهي..... كان على أن أشاهد فراس يأخذونه إلى الإعدام، ففي يوم من الأيام، ربما بعد سنة من الحكم عليه ووجوده معنا في قسم الأحكام الخاصة، نودي عليه: إعادة محاكمة، وحكم عليه بالإعدام، وجيء به إلى السجن ليأخذ فراشه وليمضي إلى قسم الإعدام، وهذا المنظر أقسى من أن يتحمله أب يفقد ابنه. أخذوا فرّوسي وكان على أن أشاهد هذا المنظر، لم أشأ الخروج من الغرفة، فقد سمعت اللغط، وعلمت أنه قد عاد من المحكمة وقد حكم عليه بالإعدام، وهو، الآن، يأخذ فراشه ويودع أصدقاءه الذين تجمهروا حوله، كنت أدرك أن هذا المنظر المؤلم إلى أقصى درجة لن يفارق مخيلتي إلى الأبد، كنت أعلم أن هذا جرح مؤلم لا يشفى مطلقاً، وتجربة لا أقوى عليها. لكني بعد دقائق تخيلت فيها فراس الحبيب خارجاً وأنني لن أراه، بعد الآن، خرجت من غرفتي أسحب أقدامي سحباً ورأيت فراس الحبيب في الطابق العلوي يودع أصدقاءه، انهارت قواي، فأخذني أحد الأخوة (السيد عقيل) إلى غرفة مجاورة وأخذ يهون عني، وعندما خرجت من الغرفة كان فراس قد غادر القسم، خرجت إلى الممر، فشاهدته وقد وضعوا القيود في يديه، وهو يدخن سيكارة، هتفت له، وأنا أحاول أن أتمالك نفسي: فرّوسي... أمانة عند الله. فنظر إليّ مبتسماً وقال: لا أقدر أن أتي إليك يابه (وهو يشير إلى قيوده)... في أمان الله.................

وبصفة نادرة لا يمكن أن تتكرر في السجن، أرسل إليّ وريقة رسالة، هي آخر اتصال معه.. ها أنا أرفقها هنا..لا أريد أن أثير أحزاني وأحزان أصدقائه... ولكنها وقفة محبة لفراس، الذي لا ينسى، هو وأصدقائنا وإخواننا وأحبائنا كلهم... لن ننساكم أبداً.

هكذا كان السجن إذن... يمكنك أن تلتقي فيه أخوة وأصدقاء وملائكة... وربما بمن هم ليسوا كذلك.....

هل كان النزيل منقطعاً عن عالمه الخارجي؟.. أقصد هنا، سياسياً بالتحديد؟ والإجابة عن هذا السؤال أمر عسير، وذلك، بتقديري الشخصي فقط، أن كثيراً من النزلاء لم يكن ليهتم بالأخبار السياسية، حتى قبل دخوله السجن، فما بالك بعد دخوله السجن واشتداد مخاطر تعقب الأخبار السياسية لاسيما الملتزمة منها، أقصد الأخبار الحزبية.

وابتداء كانت مصادر الأخبار الرسمية متاحة بنحو معقول. والتلفاز كان موجوداً باستمرار، وإلى حد ما الصحف العراقية، لكن حيازة راديو يمثل مخالفة خطرة غالباً ما جرت الويلات على من يقتنيه، ولكن ذلك لم يمنع من وجود العديد من أجهزة الراديو عند النزلاء، بل أن بعضهم لم يكن يخلو منه قط. ولما كانت حيازته سراً، كان تداول الأخبار كذلك مسألة تستدعي الحذر، لذلك كانت الشائعات هي الخبز اليومي، الذي يتداوله النزلاء، ومن المؤكد أنها كانت تضخم أو تخفف بالقدر، الذي يلائم ناقل الشائعة.

ومن جهة أخرى، فأن الكثير من النزلاء وبسبب ضعف المستوى التحصيل الدراسي والعلمي، وضعف ظاهر في الثقافة السياسية، كانوا لا يدركون معنى أخبار التلفزيون، لاسيما تلك، التي تصاغ بجمل ومصطلحات أختصاصية صعبة. والحق أن جمهوراً كبيراً من الناس لا يدرك بسهولة ودقة معنى البورصة والتضخم أو الانكماش ومقياس داو أو نيكي، تعويم العملة أو الشركة وكلمات سياسية محددة، فلا يفرقون بين التحالف والائتلاف والتوقيع بالأحرف الأولى، أو ما تعنيه كلمة سحب سفير...الخ من كلمات ومصطلحات كثيرة جداً تملأ نشرات الأخبار، لذلك كنت ترى الكثير من النزلاء لا يفقه ما يسمع من الأخبار، وتالياً، فهو يفسرها على هواه ومزاجه وكان على المرء أن يتأكد بدقة من الأخبار، التي يسمعها من مصادر الأخبار.

في يوم من الأيام، وكثيرة هي الأيام التي أمضيناها في السجن (5690 يوم)، قال لي أحد الأخوان: إن الأردن قرر غلق حدوده مع العراق (وكان ذلك في العام 1994)، وكانت هذه مفاجأة ومن الأخبار المهمة. فأردت أن أتأكد من ذلك فسألته عن دقة المصدر، فأجابني أن ذلك وارد في صحيفة اليوم (وكانت صحيفة العراق البغدادية) فسألته إن كان بالإمكان رؤية الخبر، فأجاب بالتأكيد، وجلب لي الصحيفة بنفسه وعندما قرأت نص الخبر وكان كما يأتي: صرح الأمير الحسن، ولي عهد الأردن، أن الأردن ومهما تعرض إلى الضغوط، فأنه لن يغلق الحدود مع العراق. فنظرت إلى الأخ ناقل الخبر، فقال بسرعة، إن هذا يعني أن الحدود سوف تغلق!...

وفي السياسة، كعلم أو ممارسة، هناك آفة خطرة جداً... توقع من يصاب بها، وأحياناً سياسيون كبار، في مآزق لا نهاية لها، وتلك هي: أحكام الهوى... أي أن نقيم موقفنا بناء على أمر نحبه أو نكرهه. والسياسة لا تعرف العواطف وقد يتعين على القائد السياسي أن يتخذ قراراً لا يحبه، أو يتخذ أسلوباً في تعامل مع طرف لا يفضله.. والأمر لا يتعلق بشراء فواكه من السوق، كما أنه ليس موقفاً شخصياً، السياسة تصرف راق يتطلب مهارة في التعامل، ولكن قبل كل شيء ابتعاد عن أحكام الهوى، وقديماً قال أحد الحكماء:

إذا أشتبه عليك أمران، فلم تعرف في أيهما الصواب، فانظر أقربهما إلى هواك، فاجتنبه

كان بعض الأخوان يبالغ في نقل الأخبار، وفي إضفاء مزاجية عجيبة على الأخبار، ولا أستطيع أن أتبين ما هي الفائدة في تحريف الخبر. ومن قواعد العمل السياسي الأولى وجوب توفر معلومات صحيحة ودقيقة من أجل اتخاذ قرار سياسي صحيح ودقيق وبالعكس، فأن فوضى المعلومات المضللة والمنقولة خطأ، أو المبالغة تؤدي، حتماً، إلى خلق تصورات خاطئة وقرارات غير سليمة.

والحقيقة أن مثل هذه الحالات تؤدي بك في النهاية إلى تصورات عن الموقف الحالي والمستقبلي لحركة التحرر وآفاق العمل السياسي، بل هذا التخلف في قواعد العمل السياسي، في سرعة أعطاء الولاء أو سرعة سحبه وتغيره، يشير إلى هشاشة التكوين السياسي للأفراد وربما حتى الجماعات، وذلك يستدعي، حتماً، النظر بعمق إلى أوضاعنا كافة كأفراد وحركات وأحزاب وجماعات، ثم كسلطات وأخيراً كدول. فهناك الكثير من الثغرات، التي تتيح دائماً أمكانية حدوث بؤر، إما للفساد، أو للتطرف واحتقار رغبات الآخرين وأرادتهم وسيادة أحكام الهوى والعاطفة. ولابد لنا من إقامة جرد حقيقي واقعي لإمكاناتنا، وتالياً، لمناقشات مستفيضة من علماء السياسة والتاريخ والاجتماع ومن حصيلة هذه الدراسات، ستنبثق تيارات واتجاهات، ولكن مع وجود

قواسم مشتركة على الثوابت، أعتقد أن تلك ستكون البداية في خلق نظام سياسي عربي/ إسلامي جديد، وهذا هو موضوع كبير، اشتغلت فيه لسنوات طوال وآمل أن أستطيع، يوماً، نشر نتائج أعمالي وتقديمها إلى القراء.

5

تطول في ليل المخلص عذابات الظهيرة
وتطرح الأشياء تفاصيل
تبدو صغيرة
مشقق الشفتين
عارياً... أعزل
مقيداً في حدقة الحقيقة
تحلق غربان الموت فوق هامته
وتطوف حوله ثعالب وأباطيل
بالسيف المكسور يقاوم
بالجسد المتعوب يقاوم
بالروح التي لا تعرف إلا المقاومة
يقاوم...

ضرغام
بغداد/ 1983

السجين والسجان مواجهة مستمرة ـ ماذا يريد السجين وماذا يريد السجان
نظم إدارة السجن ـ القمع

السجين والسجان مواجهة مستمرة: كتبت ذلك واخترته ليكون عنواناً للفصل من دون تفكير طويل مني. نعم، إن ذلك هو أفضل تعريف لطبيعة العلاقة السائدة في السجن، السجين يريد الكثير، وليس لدى السجان إلا القليل القليل، إما لأنه لا يملك لكي يعطي، أو لأنه لا يريد أن يعطي، النزيل يتحايل وما أشد ذكاء السجين ومكره، بل هو عبقري في المكر، والسجان خبيث، ويتخابث أكثر فأكثر، لا يتطلب عمل السجان أن يكون ذكياً، بل قوياً، طبعاً لا أقصد بدنياً، فقوته تكمن في أنه يمسك بالمفاتيح والدولة تقف معه، وبيده العصا، وسلاحه المفضل هو الظلم، أما السجين فليس لديه سوى ذكائه لكي ينتزع بصيصاً من الضوء لينير به ظلام السجن الحالك. والمباراة طويلة واللعب سجال.

في أوربا يطلقون على الحبس، عقوبة الحرمان من الحرية. وهو الوصف الدقيق فعلاً لوضع السجين. والحرمان من الحرية يعني كل شيء وقبل كل شيء: الانقطاع عن الحياة، بما لا يبقي للسجين سوى البقاء على قيد الحياة. السجن شيء قبيح، وليس هناك سجن لطيف! فالسجين يأكل بالكاد ويشرب بالكاد ويتنفس بالكاد داخل مكان يفتقر، بصفة مطلقة، إلى الجمال وبصفة مريعة، وإلى الرفاهية بأدنى ألوانها، تحرم النزيل من الكثير مما هو ضروري ومما يعد من الحاجات الإنسانية الرئيسة، وحتى الطعام والشراب إنما يقدم له في ظروف معقدة لا تخلو من الصعوبات، وهو محروم من التنفس في أجواء نقية، وما توفر له من إمكانيات، إنما هو مطروح في حدوده الدنيا، وفي بعض الأحيان، أو كثيرها، أدنى من الحدود الدنيا.

أما بالنسبة لي، فقد كان لابد من التخلي الحتمي عن كثير مما كنت أعدّه جزءاً من حياتي، مثل: التصوير، والأصعب من ذلك سماع الموسيقى، ولكن من المحال الاستغناء عن القراءة والكتابة، فذلك مستحيل. ولكن لحسن الحظ، كانت تلك الإمكانية متوفرة في حدود معينة، مع أمكانية تطوير تلك الحدود، وذلك ما نجحت فيه، وسأذكر ذلك بإسهاب في الفصل المقبل.

أما بالنسبة للوضع الاعتيادي للنزلاء، فعلى المرء أن يجتهد في توفير مستلزمات ما يهدف إليه من أعمال وفعاليات. وكلما كانت الأهداف والفعاليات معقدة أو ذات طبيعة سياسية، كانت الصعوبات والمخاطر تقف حائلاً بينها وبينه، ولكن، على الأرجح، فأن السجين، وبصفة غريزية، كان يتجه إلى تطوير فسحة جديدة. والمتاح والمسموح به من الفعاليات كانت: ـ

كان إعداد الطعام، وتفرعات هذا النشاط من شراء مواد وخزنها وغسل الأواني يستهلك وقتاً كثيراً من النزيل، بالإضافة إلى الاهتمام بفرشه وملابسه من غسل وتعريض لأشعة الشمس، أضف إلى ذلك، أن الإدارة كانت تفرض إجراء تعداد على النزلاء مرتين أو ثلاث مرات يومياً، وكل تعداد كان يستغرق وقتاً لا يقل عن 20 - 30 دقيقة، وقد يستغرق ساعة كاملة، تحت أشعة الشمس أو في البرد، بالإضافة إلى ثقلها النفسي، ثم هناك التلفزيون، الذي كان في السجن يمثل المتنفس الوحيد والصلة الوحيدة مع ما يدور في العالم والحياة.

وعملية التعداد كانت تجري في أوقات يكون فيها النزيل (أبدل القانون العراقي كلمة السجن بالإصلاحية والسجين بكلمة النزيل)، على تماس مع رجال الإدارة (وكان القانون قد أبدل عناوين وظائفهم إلى: منتسب، حرس مفاتيح، حرس برج، عريف خفر، ضابط خفر، مأمور، ضابط أصلاحية وهم تابعون إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية)، وهو تماس غير محمود، على أية حال، وكان التعداد من الفعاليات الثقيلة على النزلاء بسبب اقتطاعه وقتاً غير بسيط، وفي كثير من الأحيان في توقيتات غير محددة، بما يعرض ما يمارسه إلى الانقطاع، بالإضافة إلى ثقله النفسي.

وفيما عدا هذه الفعاليات الإجبارية (الطعام وتفرعاته ـ التعداد)، تظل هناك فسحة من الوقت يمكن للنزيل أن يوفر من الوقت ما تيسر له، إن شاء، ويخصصها في فعاليات أخرى سنأتي على ذكرها، ولكن الحياة اليومية للنزيل تنطوي على نقاط مهمة أخرى، إذ على الكثير من النزلاء أن يعملوا إما من أجل توفير مستلزمات المعيشة، أو كهوايات لقتل الوقت. ومن بين تلك، كان العمل بالخرز(النمنم) والأعمال اليدوية الأخرى.

فمن أجل العمل لتوفير مستلزمات العيش، وكانت كثيرة، أبرزها ما يطلق عليها البسطيات، والبسطيات قضية طويلة عريضة، إن شئنا الدخول في تفاصيلها وتعقيداتها، وهو ما لا أرغب فيه، وفيها ما لا يسر القارئ. نعم البسطيات كانت بقدر ما تحل إشكالات حاجة النزيل إلى مختلف الحاجات، ولكنها كانت (برأيي الشخصي) من جهة أخرى، مفسدة. ولك أن تتخيل، أن بسطيات سجن أبو غريب الرهيب كانت تبيع عشرات الأنواع من العطور والكولونيا، الرديئة والفاخرة، وأنواع السكائر، وأنواع عديدة من الشامبو والدهون والكريمات الملطفة للبشرة وحتى (الجل ـ مادة تستخدم لتصفيف الشعر)، وأنواع كثيرة من الملابس الداخلية، بعضها من أنواع ممتازة، وساعات، ومعلبات كثيرة ومشروبات غازية مستوردة، كما توفر البسطيات أشياء ربما لا تخطر على بالك، بعضها يدخل في قائمة الرفاهية. وذلك كله في أطار بسيط جداً وفي سجن مرهق للأعصاب والنفس.

وإلى جانب هذه التجارة العلنية، كانت هناك تجارة سرية، وشبه سرية، كبيع مواد يمثل إدخالها إلى السجن صعوبة، تتداركها المافيا مثل: تجارة التلفزيونات والمبردات والثلاجات والمجمدات، وكان استعمال هذه المواد علنياً، بالطبع، ولكن إدخالها إلى السجن يحتاج إلى موافقات معقدة غالباً ما ترفض، وهنا تتولى المافيا إدخالها على رؤوس الأشهاد، ولكن بعد دفع المعلوم والمطلوب.

وقد سمعت في السنة الأخيرة 2002، أن هناك عدداً من أجهزة الفيديو أدخلت إلى السجن (ثلاثة أو أربعة) لا أحد يعلم كيف، ولكن حتماً على أيدي المافيا، وتستخدم بنحو سري، تعرض فيها أفلام معينة، وبالطبع لقاء مبالغ أو مصالح، أو أطماع أو غايات، والله أعلم. وهناك الكثير مما نعرفه لا يسر سماعه من أخبار وأحداث، ولكن دعنا نؤكد الظواهر الايجابية ونتجاوز السلبية منها، دعنا نسجل تاريخاً جيداً لشعبنا، وها نحن بصدد الرائع منها، وعدا ذلك فهو أمر بديهي يوجد في كل زمان ومكان. وكنت قد قرأت مرة قولاً للجنرال ديغول: إن الإرهاب يخلق التفسخ. وهو بالطبع كلام دقيق، إن الضغط على الإنسان يشوه القيم الإنسانية فيه، والألم الشديد يرغمه على تقليص ملامح وجهه، وقد يضطره إلى البكاء الصامت أو النحيب، وحتى العويل والصراخ، فقد يكون الألم أحياناً شيئاً لا يطاق، وعندما تجرح آدمية الإنسان، ويعامل البشر كالحيوانات، لماذا لا نتوقع أن تبدر من الإنسان تصرفات لا إنسانية، ليس الجميع قادة سياسيون أو مناضلون أبطال، بل الغالب منهم بشر بسطاء طيبون من أبناء شعبنا زجوا في تجارب مؤلمة والنتائج متفاوتة، بطبيعة الحال، وكما هو متوقع: ممتازة ـ جيدة جداً ـ جيدة ـ عادية ـ سيئة. لا أريد بذلك تسويغ الأفعال والسلوك السيء، بل أنني أعرض واقعاً يجب تقبله أو أن نتعامل معه... أو للعبرة... نعم للعبرة.

كانت فعاليات أخرى إلى جانب البسطيات، نشاطات عديدة للنزلاء، فهناك العديد من المقاهي والمطاعم ومحال خياطة وصانعي أحذية وحقائب (حتى بحجم تجاري)، وغسالي ملابس ومحال كوي ملابس. وهناك حلاقون وحمامات عمومية، بل هناك أفران عمومية لصنع بعض الحلويات وأطعمة خاصة مثل السمك المشوي في الفرن أو صينية دجاج، وحلويات بأنواعها وهناك باعة ومصلحو ساعات وتلفزيون، وورش تصليح الثلاجات والمجمدات، وكهربائيون وسباكون وعمال مجاري، وكل هؤلاء هم من النزلاء.

وبديهي أن فعاليات بهذه السعة، وبعض تلك الأنشطة كانت تصدر صناعتها إلى أسواق بغداد، أي أن العمل كان بكميات تجارية، ويدر أموالاً غير بسيطة. والإدارة كانت ترتاح لمثل هذه الأنشطة لسببين:

الأول: وهو الأهم، أنهم كانوا يحصلون على رشاوى وعمولات وهدايا.
الثاني: في إطار تشجيع النزلاء على الانغماس في فعاليات لا علاقة لها بالسياسة.

وهكذا فالسجين تلقائياً يحكم بالمبدأ الأساس: الحرمان من الحرية والتعرض اليومي إلى الضغط في قضاياه الخاصة والعامة، وحرمانه من مواصلة بناء نفسه شخصياً وعائلياً ومهنياً، وبدرجة ما، ثقافياً، وستؤدي هذه المرحلة في النهاية إلى انعطاف نحو النزيل، ثم إلى تحطيم ما كان قد بناه، ثم إلى تحطيم أسس شخصيته وتصغير حجم اهتماماته وجعله يهتم بتوافه الأشياء، وسيؤدي ذلك إلى تسطيح شخصيته.

والسجن يؤدي إلى نتيجة مؤلمة أخرى، وهي تقويض العلاقات الأسرية والعائلية والصداقية، بصفة محزنة، فالسجين مضطر لأن يقّيم أسرته وأهله وأقرباءه وأصدقاءه ومعارفه من خلال درجة اهتمامهم به في محنته، وهناك من الأهل والأصدقاء من يتثاقل في أداء واجبات العلاقة أو مسؤولياتها والتزاماتها، ربما خشية من السلطات. ومن الواضح أن هذه العلاقة تتعرض إلى تصدع يصعب رأبه. وقد أطلعت شخصياً على حالات كثيرة تحطمت فيها أسر وعلاقات كانت ممتازة، فقد شهدت حالات طلاق وفسخ خطوبة كانت قد تأسست عن حب جارف، ونهاية علاقات أشقاء، وأرجو هنا الملاحظة، أن ليس السجين فقط من يتعرض للتحطيم، بل الأشخاص خارج السجن هم أيضاً عرضة للتفسخ بدرجات أقل أو أكثر، أما بسبب الإرهاب السياسي، أو الأطماع والانتهازية، وأشياء ربما غير مفهومه بدقة، غائرة في عمق الإنسان يحرص على إخفائها.

شاهدت مرة فتاة جاءت إلى السجن لمواجهة خطيبها، الذي كانت تعشقه إلى حد الجنون وفي أول مواجهة له (وتكون عادة مواجهة عاطفية، صاخبة في بعض الأحيان) خشيت على هذه الفتاة من الانهيار لشدة البكاء والتأثر العاطفي، مما حملنا على الاعتقاد أنها شديدة الإخلاص والوفاء، ولكن ذلك، ويا للعجب، لم يستمر سوى شهر واحد فقط، ثم علمت من الشاب النزيل أن خطيبته قد تركته، لاحظ: كيف أن تحدي المبادئ مطروح حتى على الناس خارج السجن.

أما أنا.. فقد أدركت، منذ الأيام الأولى في السجن، أن لابد من إعادة صياغة نظرية يمكن التصدي بها وبنجاح لعملية التحطيم هذه، التي تدور بعشوائية أو بصفة مدبرة، وقد تكاملت صياغة هذه النظرية خلال سنوات. وقد أعددت الخطط الدقيقة المدروسة بعناية فائقة للتصدي لنظرية التحطيم والانهيار والتلاشي، وقد آليت على نفسي المضي قدماً وبصرامة وانضباط عال في خطتي وتوفير المستلزمات الضرورية لها وهي سهلة ومتوفرة.

بادئ ذي بدء، لابد أن يفهم المرء لماذا هو موجود في السجن، وهنا لا تنفع الشكوى والندم، فهذه نقاط ضعف ستقود إلى التحطيم. وأنا وإن لم يكن هناك مسوغ حقيقي لوجودي في السجن، فمحاولة مغادرة البلاد بنحو غير شرعي لا تستحق لوحدها هذا السجن الطويل مع مصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة والحرمان من الراتب التقاعدي، فهنا سحق تام وإجراءات لم تحدث مع غيري، ولكني أدرك أن ما يجري، الآن، هو دفع لفواتير قديمة وحسابات وحساسيات كثيرة، والسبب الحقيقي لوجودي في هذا المكان، هو سبب غير معلن، وهو موقفي البعيد والقريب من قيادة البلاد، فعدّ عدم انضمامي إلى التنظيم الرسمي مؤشراً على موقف سياسي مضاد، كما أنني (برأي تلك الجهات) لم أتفوه بكلمة واحدة لصالح النظام في الوسائل العلنية (صحافة، تلفزيون، ندوات.. الخ) وكان قد طلب مني ذلك، صراحة، ولكني اعتذرت، وحقاً لم يكن ذلك بوسعي لأسباب سياسية أولاً، ثم عاطفية ونفسية، وباختصار كان موقفاً مستحيلاً، ولكنهم عدّوه أمراً سلبياً، أضف إلى ذلك تراكمات من تقارير كتبها للأسف شباب يحترفون كتابة التقارير الأمنية ويحرقون الناس لسبب ومن دونه. إلى جانب أمر أساس ومهم، أن الإنسان قيمة تافهة، للأسف، وإيداع إنسان في السجن لسنوات طوال ليست مسألة مهمة، ولا تستحق المناقشة والتفكير، وهذا أمر شائع في بلدان الشرق بعامة، وفي بلادنا في تلك المرحلة بخاصة، للأسف.

على هذا الأساس، أدركت أنني من ضحايا المرحلة، مرحلة يمر بها العراق والأمة العربية بكل ما تضم من تفاصيل، وإن هذه المرحلة ستنتهي لا محالة بأي صفة من الصفات ولا بد من

شحذ أقصى درجات القدرة على التحمل، بل والتصدي للتحطيم التدريجي بعمل مضاد وعلى وفق مخطط دؤوب وانضباط صارم لا يعرف التهاون.

السجن في مفرداته وتفاصيله ينطوي على أن يقدم النزيل على تراجعات في متطلباته، وأن يتوقف عن عملية البناء الذاتية، هذه العملية، التي كانت تدور (بالنسبة لي)، بنحو منتظم ودقيق في مرحلة الدراسة في ألمانيا، أو حتى في بغداد، فعملية البناء كانت تشتمل:

ـ التركيز النفسي والذهني على موضوعات التخصص (العلوم السياسية ـ التاريخ) وتلك تستدعي القراءة الكثيفة، التي تستهلك معظم الوقت والجهد في القراءة وتسجيل النتائج والملاحظات، ثم البدء في كتابة مشاريع واتجاهات عمل تجري تغذيتها حتى تنضج، لتبدأ مرحلة الكتابة، وتظهر نتائجها في أبحاث وكتب.
ـ المطالعة المكثفة باللغة الأجنبية، ثم تسجيل أهم معطيات تلك المطالعة وترجمة ما يستحق منها إلى اللغة العربية سواء كانت مقالات أم كتباً.
ـ توفير وقت لمشاهدة الأعمال الجادة في المسرح والسينما، ومشاهدة معارض الرسم وسماع الموسيقى.
ـ كانت هوايتي في التصوير قد تراجعت في السنوات الأخيرة بسبب طغيان الفقرات الأولى لاسيما القراءة والكتابة، ولكن هوايتي في التصوير لم تختف، إلا أني اضطررت لتركها تماماً في السجن، والسبب واضح، وهو استحالة توفر أجهزة وآلات التصوير.
ـ الإبقاء على قدر من العلاقات الشخصية.

وقد تعرض هذا البرنامج إلى تعديل مهم إذ تأملت، منذ الأيام الأولى، ما هو الممكن. والممكن بصعوبة وما هو غير ممكن إطلاقاً. وبالطبع، كان لابد من شطب فقرة السينما والمسرح ومعارض الرسم والموسيقى، فهذه الاتجاهات لم تعد ممكنة إطلاقاً إلا عبر ما يمكن مشاهدته بوساطة التلفاز، الذي يقدم شيئاً، ولكنه شيء ضئيل جداً بالنسبة للمتاح لي في السابق.

وكذلك شطب نهائي لهواية التصوير، وشطب للعلاقات الشخصية خارج السجن، وهي بداهة مقصورة على المواجهات، ولابد لي، هنا، أن أسجل أن عدداً من الأصدقاء كانوا رائعين في تواصلهم معي ومنهم: د. قحطان عبد سعيد السامرائي، د. باسل عبد المهدي د. محمد الخياط، د. عوني كرومي، المرحوم فاروق رشيد رشدي، د. أسامة الآلوسي، ولكن لابد من القول أن عدداً من الأخوة، كانت أوضاعهم السياسية محرجة، أو أنهم كانوا بوظائف يصعب معها المجيء إلى السجن السياسي، ولكني كنت لا أشكو شيئاً بفضل الزيارات المستمرة من شقيقتي الكبرى د. سهام الدباغ، أم غسان وزوجها د. لؤي العاني، وشقيقي هشام، وكان قد نال ما يكفي بسببي، وأخ غير شقيق، مما يذكره الشعراء: ورب أخ لم تلده لك أمك، وهو الأخ والصديق نجاح عبد الرحمن حياوي، وبفضل هؤلاء الأحبة وآخرين صار ممكناً تجاوز المحن، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

كان الحصول على كتب باللغة الأجنبية أمر تكتنفه صعوبات جمة، ولكنها كانت ممكنة في حدود ضيقة، كنت أحصل على بعضها ولكن بكميات محدودة ومن دون اختيارات في نوعها وسآتي على ذكر ذلك.

ثم إني فكرت ملياً، بأفضل ما يمكن فعله هنا، وبهدف تقليل الخسارة في البناء الذاتي، مع طموح في مواصلة ذلك البناء، وكنت في البدء أتساءل، ترى هل ذلك ممكن حقاً؟.

كنت أدرك، بوصفي مختصاً في العلوم السياسية والتاريخ السياسي المعاصر، وكنت قد أعددت دراسة بعنوان: المقدمات السياسية للاستقلال الوطني في العراق، كأطروحة نلت بموجبها شهادة الدبلوم العالي/ الماجستير، وأطروحة بعنوان: السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وعندما تخرجت في جامعة لايبزج في العام 1982، كنت بمستوى طيب في مجال تخصصي، إذ كانت جامعتان ألمانيتان قد عرضتا على التدريس فيها، إلا أنني وبعد انقطاع عن المتابعة العلمية اليومية الدقيقة، وسوف تليها سنوات أخرى في السجن، لا أعلم كم سوف تستغرق، فإني لن أكون

بالمستوى الطيب نفسه، الذي كنت عليه عندما تخرجت فيه، لذلك قررت الدخول في مجال تخصص جديد، مستعيناً بقدرات البحث والتحليل والدراسة في الفكر السياسي/ العربي/ الإسلامي، لاسيما أن مصادر هذا المجال متيسرة في بلادنا بكثرة، وفي الإمكان إدخالها إلى السجن بسهولة وقد تبدو هذه المهمة صعبة بعض الشيء إلا أنه الممكن الوحيد أو بالأحرى أفضل الممكنات، مع مواصلة العمل في مجالات أخرى: تاريخ، اقتصاد، أدب، رواية، شعر، مسرح، وقد وفقت في هذا المجال أيضاً.

والمجال الآخر، الذي كنت أحرص على مواصلته أولاً، ثم تطويره ثانياً، كان في مجال اللغة الألمانية، عن طريق القراءة ـ الترجمة ـ تدريس اللغة الألمانية. وكان الكثير من النزلاء يبدون رغبة في دراسة هذه اللغة، فاستطعت توفير عدد من مناهج التعليم الصادرة عن معهد كوته، ومعهد هيردر، كنا نستنسخ منها كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وعن هذا الطريق استطعت تدريس اللغة الألمانية لنحو 150، طالباً تطور منهم نحو 25 - 30 فرداً منهم إلى مستوى خريجي كلية اللغات ـ قسم اللغة الألمانية، بل أن بعضهم صار يحسن القراءة والكتابة من دون أخطاء إلا مصادفة. ولكن هناك مشكلة كان من العسير التغلب عليها وهي التمرن على الحديث، أما على صعيد القراءة، فقد تمكنت من الحصول على صحف ومجلات ألمانية (قبل الحصار)، وكتب استطعت ترجمة 18 كتاباً منها إلى العربية، بعضها بالغ الأهمية للثقافة العربية وفي مقدمتها موسوعة تاريخ العرب 4 أجزاء (1400) صفحة وكتب أخرى، سياسية/ تاريخية/أدبية/ فنية.

إذن، فإن مجال العمل في دراسات سياسية/ تاريخية كان المجال المتاح بسهولة، علة وجه التقريب، بالإضافة إلى اللغة الألمانية، وعلى هذا الأساس كرست جهودي، بصفة تامة، وساعدني في ذلك أخوان وأصدقاء كثيرون، من داخل السجن وخارجه، بل وحصلت أحياناً على كتب نادرة باللغة العربية سواء من أمهات الكتب (القديمة) أم كتب مؤلفة حديثاً، ولكنها غير متوفرة في الأسواق بسهولة، وبعضها نادر فعلاً. وكانت وفرة الوقت والرغبة الجامحة تدفعني إلى العمل المستمر في تداخل لليل بالنهار.

وكان موقعي المريح نسبياً، بوصفي سجيناً قديماً (نسبة إلى ظروف السجن)، وكانت لدي طاولة صغيرة، عملية جداً تصلح أن تكون طاولة كتابة توضع فوق السرير، وعلى هذه الطاولة الصغيرة، التي لا يتجاوز طولها 50 cm وعرضها 30 cm، كتبت ألاف الصفحات، تأليفاً وترجمة، واستهلكت فيها كماً هائلاً من أقلام الجاف. وأني لن أنسى أنني عملت في مطلع العام 1993 على ترجمة كتاب (جنود الشمس) عن الألمانية، وهو كتاب فريد من نوعه، يروي حضارة الأزتيك والأولميك والمايا في المكسيك، وكان مطلع التسعينيات سنوات صعبة، وتأثير الحصار قاس وفعّال، ومن تلك: ندرة الورق أو ارتفاع ثمنه، لذلك ترجمت هذا الكتاب بأكمله على أوراق الكارتون من بقايا علب السكائر الكبيرة وكرتون علب مسحوق الغسيل، ولم تكن لدي أشياء كثيرة أستعين بها، كما يفعل المترجمون عادة، فلم يكن لدي سوى قاموس شريجله Schregle الرائع ألماني ـ عربي أرسله إلي الأخ العزيز بناي صاحب مكتبة التحرير/ الباب الشرقي، بالإضافة إلى موسوعة دودن Duden في جزء واحد مختصر يضم أكثر من ألف صفحة و45,000 كلمة ومصطلح وخرائط وصور رائعة، كنت قد تلقيته من الأخ نزار القاضي، الذي قيض له مغادرة سريعة للسجن في العام 1988، فأهداني هذا الكتاب، الذي خدمني خدمة لا تنسى.

هكذا كانت الحياة صعبة، ولكن ليس هناك صعاب لا تقهر، إن أرادة الإنسان تذلل الصعاب كلها، بل ليس هناك إنجازا حقيقياً بلا صعاب. وقد يجد الإنسان الذي أعتاد على مواجهة الصعاب، أن لكل مشكلة حل وأسلوب في المعالجة، إذا ما توفرت الهمة والتصميم، فأنت بك حاجة إلى معرفة مفاتيحه ليس إلا.

ثم أني، من أجل إيجاز التجربة على الصعيد السياسي (طبعاً)، كتبت قصة قصيرة (نحو 50 صفحة) أطلقت عليها عنوان لعبة الكريات الحديدية وموجز هذه التجربة نظرياً: أن السجن ينطوي على معنى رئيس هو: تعطيل عملية البناء أولاً، ثم تهديم ما كان الإنسان قد شيده قبل

السجن من منجزات مادية، تتمثل درجة رئيسة: بمصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة، وفقدان ما تبقى مما تملك وتلفه وسرقته، ومعنوياً، بخسارة الإنسان لمجتمعه وأحبابه وأصدقائه وعلاقاته الوجدانية. ثم أن السجين وبحكم كونه لا يعمل، فهو لا يطور نفسه مهنياً/ علمياً/ ثقافياً، وتالياً فأن منجزاته كافة معرضة للفقدان، لذلك على السجين أن يحاول:

- التقليل من التهديم.
- ثم إحداث تعادل بين الهدم والبناء.
- وبعدها تجاوز وتيرة البناء على وتيرة الهدم.
- وأخيراً الوصول إلى نتيجة يكون فيها السجين رابحاً.

وتفصيل هذه النظرية:

ـ التقليل من الهدم: وذلك بقطع الصلات والفعاليات غير المفيدة وإنهاء العلاقات، التي لا تحقق تراكماً ثقافياً/ سياسياً، والتخلي عن كل ما لا يؤدي إلى نتيجة مادية ملموسة. فعليك أن تؤمن أن ما خسرته أو ستخسره من ممتلكات مادية أمر أصبح من الماضي، وقد يكون ذلك مؤلماً للغاية، ولكن على السجين أن ينسى ذلك ويعدّ أن ما يملكه قد غرق في سفينة أو تعرض لحريق مدمر. وبقاء فكرة الخسارة في الدماغ سيتلف خلايا المخ ويمنعك من التفكير الواقعي السليم.

ـ إحداث تعادل بين الهدم والبناء: وذلك عبر تنشيط غير اعتيادي في المجالات المتاحة: القراءة والاستيعاب، تعميق التجربة واستثمارها، ومحاولة استيعاب تجارب الآخرين، سنلاحظ بعدها أن تطوراً مهماً يطرأ على أساليب التفكير وفي هذا على المرء أن يتخلى، بصفة نهائية، عن التعصب والتطرف، فذلك لا يؤدي إلا إلى انغلاق الفكر أبواباً ونوافذ، والتعصب خطأ، حتى لو كان للحق، فأنت لم تصل إلى الحق (افتراضاً) إلا بعد تقص وتعب، فلا يجوز لك أن تطالب أي إنسان أن يمتلك تجربتك بحذافيرها.

وعندما يكون هناك تعطيل في الاتجاهات، التي لا يتيحها لك السجن (المسرح ـ السينما ـ معارض الرسم ـ السفر ـ المتاحف)، يمكنك تعويض ذلك بزيادة جرعة القراءة والبحث والدراسة والتعلم، وامنح نفسك للحقيقة من دون مواربة وتحفظ وأبحث عنها، وستلاحظ أن ذلك النقص قد أمكن تداركه بهذه الجرعة العالية من الانغماس التام في القراءة والبحث والتعلم.

ـ ستلاحظ، بعد مدة، أنك في وتيرة متزايدة السرعة، بل أنك لا تستطيع حتى إيقاف نفسك، ستصبح القراءة والبحث لديك من وظائف الحياة اليومية مثل الطعام والشراب والتنفس، آنذاك، فالأمر لا يغدو جهداً، بل قد يتحول إلى وظيفة غريزية، وستلاحظ أن ذلك سوف ينسيك قضايا كانت مهمة في حياتك، وفي زيادة الوتيرة وارتفاع معدل التراكم، كماً ونوعاً، بدرجة لا شك فيها، فعلى سبيل المثال: برغم أني كنت أعمل بجد، تأليفاً وترجمة، قبل السجن، إذ كنت في أقامة شبه أجبارية في بيتي، أنجزت، مثلاً، في العام 1986، وهو آخر عام لي في الحرية:

تأليف كتاب: استخدام القوة المسلحة في العلاقات الدولية.
ومسرحية : الناس والأمل والمستقبل.
وترجمة كتاب: الحرب الأهلية الأسبانية.

ولكن أعوام السجن كانت أكثر نشاطاً على صعيد التأليف والترجمة. فعلى سبيل المثال، أنجزت في السنة الأخيرة من السجن (السنة السادسة عشر)، برغم أن تأثير السنين الطوال، وذكرياتها المريرة قد تحفر في طاقة الإنسان وصبره، أخاديد وحفراً عميقة، برغم ذلك، فأني أنجزت تأليف عمل صعب ومعقد بعنوان: الاستهلال والاستكمال: دراسة في الفكر السياسي المقارن ـ الرافديني/ الأغريقي ـ العربي الإسلامي/ المسيحي الليبرالي، في جزئين، كما أنني أنجزت ترجمة رواية: الجنتلمان، لهاينز كونزاليك، وترجمة كتاب عن عصر النهضة يضم تحليلاً لستة وأربعين تخطيطاً لمايكل أنجلو، وهي من أصعب ما ترجمت، وترجمة لمقدمة القرآن الكريم،

للبروفسورة آنا ماريا زيشل، وتأليف كتاب صغير (60) صفحة تحليل عمل البعثة الدبلوماسية البريطانية في العراق 1958 – 1959، وقصة قصيرة بعنوان: لعبة الكريات الحديدية.

ـ الوصول إلى مرحلة يكون فيها النزيل رابحاً: وتتمثل هذه المرحلة، ليس باتساع حجم المنجزات المادية فحسب، بل وفي أحساس مادي واضح، أنك قد أزددت وضوحاً وتعمقت آراؤك فيما تؤمن، والأمر ليس بإمتاع الذات بنصر وهمي، فقد يكون السجين السياسي المناضل المحب لبلاده وشعبه في وضع لا يقدم فيه لبلاده شيئاً مادياً ملموساً، وذلك بالطبع أمر محزن، إلا أنه، بالمقابل، وهذا مهم جداً، أنك لا تسيء إلى الوطن، وأنك قدمت، ولم تأخذ شيئاً... وكنت أذكر دوماً مقولة الشاعر التركي التقدمي ناظم حكمت، عندما زاره الطبيب فوجد أنه يعاني من أمراض عدة بسبب سجن دام أكثر من عشرين عاماً، فقال للطبيب: **ليس بسبب النيكوتين، ولا بسبب أمراض المفاصل، ولكنك، وكما ترى يا سيدي الطبيب، تمضي السنون، وأنا لا أملك ما أقدمه لبلادي سوى تفاحة حمراء... هي قلبي.**

نعم، إن هذه المشاعر، عندما تتحول إلى قناعات راسخة، تضعك في موقع الكرم والبذل والعطاء، وإذا ابتعدت عن القرارات والمواقف المتعصبة والتطرف، بل أن رؤيتك الواسعة العريضة لا تستبعد حتى من كنت ربما تعتقد أنك بعيد عنهم، وفي هذه الدرجة من التسامي تصل إلى مرحلة تتأكد فيها أن بوسعك تمثيل مصالح جميع أبناء بلادك، وأن جميع أبناء بلادك لا يرون فيك إلا واحداً منهم. وعندما تصل إلى هذه المرحلة، تتطلع إلى لحظة واحدة إلى الخلف، وبرغم إنك ستخسر لحظة واحدة، لكنها ستزيدك ثقة، ستلاحظ كم أنك أبحرت بعيداً عن الساحل، لقد فتحت أشرعتك وطرت فوق الأمواج، الأفاق كلها لك، وليس سقف غرفة أو بيتاً صغيراً، وسفينتك (فكرك وثقافتك) متينة وقوية بثقتك بنفسك وبشعورك الأكيد المؤكد، أنك تحب بلادك ومواطنيك جميعاً حتى الذين تختلف معهم في الرأي والموقف، لا تسيء لأحد، ومن تختلف معه اليوم قد تلتقي معه غداً في معركة واحدة ضد أجنبي أو عدو مشترك، أو ربما قد تحتاجه في أمر إنساني، قد يعالج لك يوماً عينك أو ابنك، لا تدع السجن والسجان يفرض عليك قواعده، أو أن يكونا جرحاً يحملك على الصراخ.

كن قوياً... كن طاهراً... كن أبياً ، فتربح المعارك كلها التي تخوضها، والقصة القصيرة، التي كتبتها في الجولة الأخيرة (السادسة عشر) من السجن، وكنت أطلق على كل سنة من سنوات السجن، تندراً، اسم جولة ، كجولات الملاكمة!... لعبة الكريات الحديدية، وهي تدور عن سيزيف السجن، إن شاء أن يفلسف صراعه مع القضبان ومطرقة السجن على هذا النحو. وأسطورة سيزيف، من الأساطير الإغريقية. سيزيف رجل حكمت عليه الآلهة بالعذاب، أن يحمل صخرة من سفح الجبل إلى قمته، وقبل أن يصل تتدحرج الصخرة إلى الأسفل، ليعود سيزيف إلى حملها إلى الأعلى. التحدي هنا مطروح على سيزيف وقواه. كرس الفيلسوف الفرنسي ألبير كامو هذه الأسطورة في إحدى أعماله.

يحاول سيزيف السجين أن يواصل تشيده جداره، لكن كرة حديدية ضخمة (كتلك المستخدمة في تقويض العمارات) تتأرجح كبندول الساعة وترتطم بأعلى الجدار، الذي يبنيه فتزيح صفاً أو صفين من الطابوق، أو البلوك، وعندما يعيد بناء الصف أو الصفين، تزيحه الكرة الحديدية في اليوم التالي، بل أن الكرة الحديدية تزيح من صفوف الطابوق أكثر مما يستطيع بناؤه، وذلك يعني أن البناء سوف يتلاشى، بعد مدة، ويعتمد على علو جدارك. ولكن لا ينبغي أن يتسلل اليأس إلى قلبك، أو أن يقعدك الإرهاق أو ثرثرة لا طائل منها، واصل البناء، ولكن الكرة الحديدية لا قلب لها ولا فكر، إنها تدمر وتدمر... فما العمل....

إذا أراد سيزيف أن يبقي على جداره، وهو جدار واق من الفيضان والطوفان، والقمل والذباب وطفيليات لا حصر لها، ومن أجل أن لا يخسر احترامه لنفسه، عليه، إذن، أن يشيد، يومياً، بقدر ما تهدمه الكرة الحديدية، وينجح في ذلك، ولكنه يلاحظ أن قدرته على البناء تتصاعد مع مرور الزمن، فيدرك بعقله العلمي، أن المسألة، الآن، هي ارتفاع في مستوى الإنتاجية Produktivity، وأن قدرته، الآن، في البناء تتجاوز قدرة الكرة الحديدية هو في البناء والكرة

في التقويض، بل هو سيشيد ثلاثة صفوف، يتهدم منها واحد أو اثنان، ولكنه يضيف، يومياً، صفاً جديداً، أي أن الجدار يتواصل في الارتفاع، ولربما أن الإنتاجية سوف تتصاعد فيشيد، دائماً، أكثر....

هذا هو جوهر القضية في الصراع بين السجين والسجان، وبين قضبان السجن، وأنا كنت قد أقسمت أن لا تهزمني قضبان السجن أبداً... أبداً... فكنت أعمل، منذ الصباح وحتى الظهيرة، ومن الظهيرة حتى العصر ومن العصر حتى متأخر الليل، قراءة وكتابة، وبتدريس النزلاء اللغة الألمانية، وقد صرفت في ذلك جهداً هائلاً.. جهداً متعباً ممتعاً.. كنت مستمتعاً إلى آخر درجة بفكرة أن السجن لم يهزمني كإنسان، نعم، لقد ألحق بي أضراراً جسيمة، ولكنه لم يهزمني، فخرجت على قدمي صاحياً (أعني بدماغ صاح)، أصافح نور الشمس، **أستمتع بنور القمر، الذي غاب عني ستة عشر عاماً**، أعانق الحرية... أشرب من كأسها ممزوجة بالفخر.... فأنا لم أقتل يوماً ولم أسرق فلساً واحداً من مال الشعب والحزب، لقد تعرضت للإهانة والسحق إلى أقصى درجة، ولكني لم أهن، ولم أسحق.. تعرضت للكثير الكثير.. وتطاول علي بعضهم، ولكن هذا غير مهم البتة، لا يستطيع أن يهينك إلا من كان بمستواك أو إذا كنت أنت سبباً لهذه الإهانة...

لقد قلت يوماً لضابط أمن كان يحقق معي في السنة الأخيرة من السجن، وربما كان مشفقاً عليّ بسبب هذه السنين الطويلة.. ولكنني كنت لا أقبل أن يشفق على أحد. فقلت له، إن السنين الطويلة تسبب العطش والتعطش الشديد للحياة، لكن دعني أقول لك، إن كنت عطشاناً ولم تشرب الماء، منذ سنين، هل ستشرب ماء النهر كله؟ في الأحوال كافة ستشرب قدحاً أو اثنين، ويصبح عطشك من الذكريات والماضي.

وها أن الظلم، الذي تعرضت له قد انقضى.. وليس لي سوى أن أردد ما قاله تروتسكي ساعة اغتياله وموته، كلمات قبل الموت: سينصفنا التاريخ.

وفي غضون مدة قصيرة... قصيرة للغاية في الحرية، زال عني ما كنت أعانيه من أمراض، بصفة مدهشة، وما تبقى هي الأعمال، التي كتبتها... وأهم ما بقي هو أنا... لم ينقص طولي ولا سنتمتراً واحداً، وما زلت أشعر أني قادر على العطاء وبسخاء، وبالفعل فأني عاودت الكتابة والإنتاج فور خروجي من السجن، برغم أن هذه المرحلة كانت حافلة بظروف مرحلة الانتقال.

السجان يريد أن يقهر السجين، أن يدمر فيه شيئاً... وأنت لا بد أن تقبل خسارة بعض النقاط غير المهمة، وغير الجوهرية، ولكن عليك المحافظة وبإصرار على المهم والأهم ألا وهو: أن تبقى روحك نظيفة ونقية وأن لا تنهار.

حدث، يوماً، أن جاءوا بمصور يلتقط لنا صوراً كتلك، التي للسجناء، الذين يحملون فيها لوحة خشبية مكتوب عليها رقمه، وأنا لست ممن تزعجني أو تجرحني مثل هذه الخدوش، ولكن المصور وكان مفوضاً في الأمن، قصير القامة كان، فطلب مني أن أثني ركبتي قليلاً ليتمكن من التقاط الصورة، فحرت ماذا أقول لهذا الشاب، اقتربت منه وقلت له هامساً : أن بقائي بطول قامتي هذه كلفني خمسة عشرة عاماً، هنا، في السجن وأنت تريد مني، الآن، أن أنزل، أن أتنازل أو أخفض .. ألا ترى من العدل أن تضع طابوقة تحت قدميك لترتفع قليلاً من دون أن أخفض قامتي.. فبهت الرجل.. ولكنه فعل ذلك، واعتذر مني، مبدياً التفهم قائلاً: العفو أستاذ!..

السجان، ومن خلال نظم السجن المرهقة يريد أن يترك لك مساحة بسيطة، وأنت بوسعك وبذكاء هو يفتقر إليه، وبسعي لا يعرف الكلل والملل، وإلحاح من دون إزعاج، وإصرار من دون إلفات نظر، أن تزيد من حجم هذه المساحة، ومن ثم عليك أن تفكر ملياً بأفضل وسائل الاستثمار، وتوزيع الوقت، بنحو دقيق، بحسب ظروفك الصحية والمادية والفكرية. وكان لي صديق عزيز، هو الأخ حسين صالح جبر، وكانت لنا مشتركاتنا الكثيرة، فقد كان حسين يمارس الرياضة صباحاً لوقت محدد ثم يعمل ليوفر مبالغ لوالدته ولأسرة شقيقه، ثم نتناوب أنا وهو على إعداد الطعام، ثم يبدأ بدراسة اللغة الألمانية، التي أتقنها، بصفة تامة، ثم يقرأ الصحف والمجلات والكتب الثقافية، وكان قارئاً نهماً، ثم يعود إلى العمل، وبعدها يشاهد برامج التلفزيون المهمة منها، لاسيما الأخبار

والأفلام العلمية والسينمائية المهمة. وهذا مثال لما يمكن أن يفعله من يريد مقاومة السجن والقضبان. حسين كان إنساناً رائعاً حقاً.

(تمكن حسين من أن يصل إلى السويد بعد خروجه من السجن من خلال عفو العام 1995 وهو، الآن، في مدينة مالمو ولدية ثلاثة أطفال ويعيش كما كان دائماً: مخلصاً وذكياً وشجاعاً، وقد تسنت لي زيارته في بيته وشاهدت عائلته ووالدته الرائعة، التي لم تنقطع عن زيارته، وشقيقته، التي كان يعبر لي عن شوقه لها، وكان قد فارقها، منذ زمن بعيد... حقاً .. كم صغيرة هي الدنيا).

وقد وضعت نظم إدارة السجن وصيغت، بصفة لا بأس بها، تشابه أو تماثل الأنظمة الدولية في إدارة السجون، بل أن السجون العراقية كانت تمتاز: المواجهة الكثيرة والحرة، الطعام (يأكل السجين ما يشاء)، واللباس (يرتدي ما يشاء)، ويشاهد التلفزيون ويقرأ الصحف والمجلات من دون تحديد (المتوفرة في الأسواق المحلية)، إمكانية جيدة للمطالعة والرياضة، وجود وسائل التبريد: مبردة، ثلاجة، مجمدة. والمشكلة الرئيسة، التي كنا نعاني منها هي: الأكتظاظ، وكانت مشكلة المشكلات وتحيل حياة النزيل إلى جحيم، لاسيما عندما تتفاقم. والمشكلة الثانية كانت في هبوط مستوى الإدارات والفساد الإداري وسوء تقدير المواقف، فكان بعضهم يعتقد أن واجبه الرئيس هو اختراع المشكلات والمتاعب للنزلاء، ولكن الأمر لم يكن يخلو من موظفين وحراس يحاولون التخفيف، وبعضهم كان يتعاطف مع النزلاء لأسباب إنسانية وآخرون يبدون المحبة، فعلى أية حال فهم عراقيون من أبناء شعبنا وكنا في أغلب الأحيان ننجح في حل المشكلات معهم بصعوبة أو سهولة.

ومن المبادئ، التي تروج لها إدارات السجون، هي أن السجين فاقد لحقوقه الشخصية. وهذا يعني أنه تحت إدارة السجن، بصفة كاملة، وكانت إدارة السجن تفهم هذه المسألة خطأً، بأنها تمنحهم الحق في عدم احترام النزيل، والاعتداء عليه، وكذلك مصادرة ما تشاء من ممتلكاته داخل السجن، حتى غير الممنوعة منها، والتدخل في تفاصيل حياته، أوقات النوم والاستراحة والاستيقاظ، وعدم وجود سياقات ثابتة في الأوامر والتعليمات في إجراءات السجن الأساس وغير الأساس، أي كل يفعل ما يحلو له، وعدم وجود السياقات الثابتة في الأوامر والتعليمات كانت تؤدي إلى فرص تدخل متزايد وحسب رغبة الموظف وهواه، بل وحتى الحراس العاديين. فالنزيل بالنسبة لهم شخصية مستباحة، ومن البديهي أن هذه القاعدة غير صحيحة، وبإمكان النزيل إقامة الدعوى على من يعتدي عليه، بل ويقيم الدعوى إذا امتنعت السلطات من ترويج دعوته. ولكن الإدارة والحراس كانوا يرفضون ذلك مستمتعين بتلك الاستباحة، ومن خلال مطالعاتي ومشاهداتي، أعتقد أن السجون في العالم على هذه الشاكلة أو قريب منها، فالإنسان السجين، الذي لا نصير له، يغري بالاستباحة، وهو ما يحدث قليلاً أو كثيراً.

ومن الغريب أن يكون موظفو الإصلاحية (وهم محسوبون على وزارة الشؤون الاجتماعية) من غير المؤهلين دراسياً وعلمياً، وكان مأمورون من أشباه الأميين يدققون الأضابير والمواد القانونية وقضايا أخرى هي من اختصاص خريجي كليات القانون، الذين يزخر بهم البلد، ترى هل هو عزوف خريجي كليات القانون عن العمل في وزارة الشؤون الاجتماعية، أم أن إدارات السجون راضية سعيدة بما لديها من أشباه الأميين؟ وهكذا فأن الإصلاحية بها حاجة ماسة إلى الاصلاح وتلك مفارقة أخرى.

ومن الأشياء، التي استعصى عليّ فهمها، أساليب ضرب النزلاء، وأنا أعلم أن إيقاع الأذى البدني أمر شائع في كثير من سجون العالم حتى، التي تدعي التحضر، بل أن المؤتمرات الدولية، التي تبحث قضايا الإصلاحيات (السجون) التي تعقد عادة في جنيف بسويسرا، تعرض دائماً مشروعاً يلزم إدارات السجون بالامتناع عن العقاب ألبدني، إلا أنها لا تنجح بإقراره، إذ تمتنع دول كثيرة، منها أوربية، عن التصويت.

وقانون الإصلاحية العراقي الحديث، يحظر استخدام العقاب البدني (الذي كان وارداً في القانون القديم)، إلا أنه كان يستخدم، وبكثرة، في السجن، بما في ذلك السجن السياسي، وإن كان بدرجة أقل من السجن الجنائي، وقد حدثت اعتداءات بالضرب والإهانة للكثير من السجناء

السياسيين، وأكثرها كان من دون دواع تستحق ذلك، مثيرة للاشمئزاز ولكن الأخوة الذين كانوا يتعرضون لهذه الإهانات يرتفعون منزلة في نفسي، ولم أكن أدخر وسيلة من دون التعبير عن الاحتجاج على تصرفات كهذه (بقدر ما أستطيع).

كان مديرو السجن يتذرعون (عدا الحالات ذات الطابع السياسي) بمخالفات فظيعة مثل: الحبوب المخدرة، أو تصرفات جنسية شاذة، أو مشاجرات تستخدم فيها السكاكين والخناجر وشفرات الحلاقة، تؤدي، أحياناً، إلى حمام دم، وحقاً كانت بعض مشاهداتي فظيعة، ولكنني، كتربوي، لا يمكنني قبول أساليب العقاب البدني مهما كان السبب، وإلا فإننا نعلن على رؤوس الأشهاد فشل الأساليب العلمية والتربوية والحوار، وانتصار القوة والجهالة والعضلات.

6

وأدار الجند وجهي إلى الحائط
وأطلقوا عليّ زخة من الرصاص وقتلوني
ولما عادوا إلى ثكنتهم...
كانوا ينشدون أغاني...

غارسيا فدريكو لوركا

الحياة الثقافية ـ القراءة والكتابة ـ الترجمة ـ تلفزيون ـ راديو ـ رياضة
طقوس دينية ـ ندوات ـ محاضرات ـ تدريس

بينت في الصفحات السابقة، أن البناء الثقافي كان النشاط الأوفر إمكانية والفرصة الأكثر إتاحة، ولكن بنسب متفاوتة في الأهمية بالنسبة للنزلاء، ولكن بنسب متفاوتة في الأهمية بالنسبة للنزلاء، هناك من لم يقرأ كتاباً واحداً، خلال مدة سجنه كلها، وبنظري، أن في ذلك خسارة فادحة.

هل كان النزلاء يقرأون؟.. نعم ولا.. كان أكثر النزلاء لا علاقة له بالقراءة البتة وبعضهم يقرأ القرآن فقط... ربما كان عدد بسيط قد قرأ بعض الكتب الدينية ولكن القليل كان يقرأ، والأقل من يفعل ذلك باستمرارية، ونادراً كنت تجد من كان يقرأ ليحدث تراكماً كمياً ثم نوعياً، أو ليخلق استنتاجات، أما الذين كانوا يقرأون من أجل بلورة آراء واتجاهات، فلم يكونوا أكثر من أصابع اليد الواحدة.

كانت هناك مكتبة السجن، التي لا بأس بها، بل وكانت تضم أحياناً كتباً مهمة في جميع المجالات (منها مثلاً دلالة على جديتها وأهميتها): الإمبراطورية الأمريكية، لكلود جوليان، وهذا من أفضل ما كتب عن الإمبريالية الأمريكية، نهب العالم الثالث، لبير جاليه، كتاب عن اقتصاد التخلف للأستاذ الشهير البرتيني، وهو من الكتب الممتازة، وهكذا فأن حجم الكتب المهمة في السياسة والاقتصاد والتاريخ كان في الواقع كبيراً، ناهيك عن كتب الأدب والمسرح والشعر، وحجم المكتبة بلغ في أفضل الأوقات ربما إلى عشرين ألف كتاب عدا الصحف والمجلات والدوريات. وكانت مصادر المكتبة: من تبرعات النزلاء أولاً، ثم من بعض الدوائر الحكومية. وكانت هذه المكتبة تكفي لو أراد النزيل أن يضع برنامجاً جديا للتثقيف الذاتي، وأن يطالع فيها لسنوات طويلة، وقد تبرعت شخصياً بمئات من الكتب من مختلف الاتجاهات.

ولكن!...

وهذه الـ(لكن) محزنة طبعاً... ويؤسفني القول إن هذه المكتبة الممتازة تعرضت للسرقة والنهب على يد النزلاء أولاً، ثم أجهز عليها موظفو الإدارة، وكذلك للتمزيق وشطب عبارات وجمل وإضافة غيرها، أو اقتلاع صفحات كاملة لا يستسيغها بعضهم لكتب وأعمال ممتازة مثل كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، وهناك كتب دونت على حواشيها شتائم وعبارات بذيئة.. وهلم جرا.. وتعرض المكتبة للسرقة والنهب جرى، بصفة خاصة، بعد عفو العام 1991 بحيث أصبحت المكتبة، في نهاية التسعينيات، مهلهلة وشبه خاوية مع الأسف.

والإمكانية المتاحة في القراءة كانت أيضاً فيما يجلبه الأهل من الكتب لك ولنزلاء آخرين، وعلى المرء هنا أن يكون دقيقاً، فلا يحاول جلب كتاب ممنوع أو مثير، فالإدارة كانت مبدئياً تسمح بالكتب المطبوعة في العراق أو في الخارج ولكن بعناوين غير مثيرة(سياسية مثل الكتب الحزبية أو الدينية الطائفية) ولكن مع ذلك فقد دخلت إلى السجن كميات من الكتب الدينية بعضها كان ممنوعاً، فعلى سبيل المثال، فقد قرأت 12 تفسيراً للقرآن الكريم كانت كلها غير ممنوعة باستثناء واحدة منها: في ظلال القرآن لسيد قطب، كما قرأت كتباً ممنوعة دينية وغير دينية. ولكن الكتب الأدبية والعلمية والتاريخية وباللغات الأجنبية كانت مسموحة، وكذلك القواميس والموسوعات وكتب تعليم اللغات.

إذن، كان موجود المكتبة كافياً، لاسيما في الثمانينيات، والممكن إدخاله كان ممكناً والمطلوب هو الإرادة فقط وتحويل هواية المطالعة أو الرغبة في القراءة إلى برنامج ثقافي يؤدي إلى نتيجة مؤكدة، هي إضافة مهمة إلى وعي النزيل وقدراته العلمية والثقافية. وكنت أحدث الأخوة

النزلاء عن تجربة القائد الاشتراكي الأسباني كاباليرو، الذي أعتقل في عهود الرجعية بإسبانيا وكان عاملاً بسيطاً وأمياً، بيد أنه تمكن في غضون بضعة سنوات، أن يتعلم أكثر من لغة واحدة ويثقف نفسه ثقافة ممتازة. وأنا برغم أنني أقرأ، بنهم، منذ طفولتي، إلا أنني قرأت في السجن أضعاف ما قرأت خارج السجن، ولا أستطيع معرفة عدد الكتب، التي قرأتها، بل لا أستطيع حتى تخيل ذلك، فقد كانت الكتب تردني من مصادر عديدة، بما في ذلك باللغة الأجنبية، واستطعت أن أدرس برامج كاملة، الأمر الذي ساعدني، بصفة مؤكدة، على الكتابة في تلك المواضيع، وسأذكر ذلك في مجال تجربتي في الكتابة.

وبذلك يبدو أن القراءة والكتابة كانت الأكثر إتاحة من بين ما يمكن أن يشغل الإنسان، وإني أعتقد أن استمرارية القراءة كالّلياقة البدنية، فعلى المرء أن يحافظ على لياقته البدنية ثم أنك حتى تستطيع أن تكتب، عليك أن تتقن بضعة أشياء في مقدمتها أحاطه تامة بالموضوع، الذي تنوي الكتابة فيه. **وإذا وافقت على فكرة أن الإنسان يستخدم فكره قبل قلمه، لذلك يجب ملء الفكر كضرورة ملء القلم بالحبر**. وإني أعتقد أن حياة الإنسان وموته مسألة فكرية، وقد يبدو رأيي هذا، للوهلة الأولى، مبالغاً فيه، ولكن علمياً وطبياً، أليس موت الدماغ وتوقفه علامة على الموت المؤكد للإنسان؟، وحتى توقف القلب يمكن للأطباء مواصلة العمل معه بإحداث رجات كهربائية، أما موت الدماغ، القائد للإنسان، أفكاره وأفعاله، فهو الموت النهائي، الذي يحيل الإنسان إلى كومة من اللحم البارد ليس إلا.

وكانت الكتابة عندي (منذ العام 1975)، أي منذ بدأت الدراسات العليا قد تحولت إلي عمل لا شأن له بالمزاج أو ازدحام جدول الأعمال، وإن كنت، قبل ذلك بسنوات كثيرة، أمارس الكتابة، ولكن ليس للنشر، فالقراءة والكتابة دائماً على رأس جدول الأعمال ولا يقعدني عنها سوى المرض الشديد، حتى في حالات الرقود في الفراش (وهي أسوأ أصناف القراءة)، فهناك الكثير من القراءات الخفيفة التي لا تحتاج إلى تركيز شديد، أو كتابة ملاحظات على طاولة المكتب.

كنا قد تلقينا في أثناء دراستنا الجامعية العليا في ألمانيا، ما لا يقل أهمية عن العلوم، التي درسناها، بصفة مباشرة، إذ تعلمنا أصول التعلم والمعرفة واكتساب الحقائق وتكريسها وتطوير الإدراكات وصياغة قواعد وقوانين واستنباط غيرها وهو ما يسمى باللغة الألمانية (Denk System) نظام التفكير، الأمر، الذي يكَون بمرور الوقت معرفة دقيقة، بل حاسة في معرفة الكتاب، الغث منه والسمين، والتدرج في تجرع العلم والمعرفة، وهكذا فقد وظفت امكاناتي العقلية والمادية كافة في دراسة مكثفة ومعمقة مستغلاً كل ما هو ممكن ومتاح في هذا المجال. وهكذا كانت احتياجاتي من المواد: كتب، مجلات تخصصية كانت تردني من دون انقطاع وليس بوسعي أن أشكو أحداً من أهلي وأصدقائي، فقد كانوا يلبون طلباتي كلها، وكذلك حاجاتي من الورق والدفاتر والأقلام، وبخاصة شقيقتي الدكتورة سهام أم غسان، والأخ الصديق الصدوق نجاح حياوي، وهو صاحب مكتبة النهضة المعروفة في شارع المتنبي، وأخوة من النزلاء كانوا يسرعون ويقدمون لي ما لديهم من الأوراق والأقلام والدفاتر، ولا أنسى ألطافهم نحوي أمثال الأخوة: الحاج عامر الجزائري، وميثم البصري، وغالب أبو إبراهيم، وغيرهم، كانوا يدركون حاجتي إلى الأقلام والأوراق والدفاتر فكانوا يوفرونها لي.. سأبقى أشكرهم على صنيعهم الاخوي.

وقد ركزت، بنسبة مهمة، في دراساتي وأبحاثي في مجال دراسة الشريعة. وكما هو معروف فأن الشريعة تعمل في اتجاهين:

الأول ـ العبادات: وهي الواجبات الدينية من الالتزامات والفرائض وأبرزها، الصوم والصلاة، والحج، والزكاة، وشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، والابتعاد عن الشرك وصيغه.

الثاني ـ المعاملات: وهي تعاملات المسلمين في الحياة، التي تتضمن ما يتعامل به الناس من تعاملات مادية وشخصية، وهذه الاتجاهات كلها درسناها دراسة كافية، لكننا ركزنا على جانب من المعاملات، مهم ومؤثر، وهو الدولة. هذا المصطلح المهم والخطر، وما يتبع ذلك من مفاهيم سياسية عن الإمارة وشروطها وأدلة الأحكام الشرعية وأركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والأسس، التي قام عليها التشريع، هذه الدراسات العميقة، التي قادت إلى مباحث في الفكر السياسي الإسلامي. وإنـي أقـرر، هنـا، وجـود فكـر سياسـي عربـي/ إسـلامي عميـق الجـذور، واسـع الأفـق والشمول، وهناك عناصر مكونة للفكر السياسي العربـي الإسلامي، ماديـة وراسخة وليست مبنيـة علـى تأويل، وهنـاك مصـادر للفكـر العربـي الإسـلامي، واضـحة وتحـدد بدقـة شخصـية هذا الفكـر وتفرده الفريد.

القراءة والدراسة كانت جنة السجين، يهرب إليها من جحيم السجين. وبالنسبة لي كانت تمثل إجازة طويلـة للقراءة والعمل المفيد الممتـع. فأنـا لـم أضـيع ولا يومـاً واحداً مجانـاً، سـوى مرحلـة التوقيف وفي زنزانة الإعدام حيث كانت المواد للقراءة غير متوفرة، ولا الـورق والقلم.. كنـا فيهـا نكتفي بقراءة القرآن، وبأحاديث لها طابع تاريخي، معلومات عن أحداث مهمة، تأريخ دول، أسباب الحروب المهمة، والصراعات الكبرى في التاريخ.. الخ.

ولكن من المؤكد أن النزلاء لم يكونوا جميعاً بالرغبـة الجامحـة نفسـها فـي القـراءة والبحـث، والسبب هو أن القراءة بهدف تكوين تراكم ثقافي يستلزم شروطاً ذاتيـة وموضـوعية عديـدة، ولـيس ضرورياً أن يكون الجميع علـى درجـة واحدة مـن الاهتمـام، نعم، إن الثقافـة العامـة مهمـة، بيد أن العمل في قطاع التكنولوجيا مهم أيضا، ثم أليس البحث في علـوم الهندسـة والطـب مهـم، بديهي أن هذه الاتجاهـات مهمـة، ومـن المؤسـف أن بعض الأخـوة مـن النـزلاء ممـن لـديهم اهتمامـات علميـة صـرفة تعـذر علـيهم متابعـة تخصصـاتهم بسـبب الظـروف المحيطـة، إذ يصـعب وجـود مختبـرات علمية أو ورش عمل تكفي طموحهم، وإن كان بعضهم قد أقدم على محاولات جريئة منهم الأخ د. محمد الخياط، الذي أنجز ترجمة بحث مهم عن موضـوع كنت أمتلك معلومـات بسيطة عنـه وهـو زراعة الكمأة، وكنت أتصور أنه سر من أسرار الطبيعة، وأنه لا يزرع أبداً.. وكذلك الأخ الدكتور معن محمد رشاد، الذي أنجز بحثاً عن إمكانية تأسيس معمل بسيط للماء المقطر.

كـان وجـود الأدبـاء والكتـاب فـي السـجن نـادراً أذكـر مـنهم: المرحـوم القـاص العراقـي الكبيـر محمود جنداري، و د. جليل كمـال الـدين، أستاذ الأدب الروسـي ومتـرجم لعدد كبيـر مـن الأعمـال المهمة منها الرواية الرائعة: وداعـاً غولسـاري، لجنكيـز أتمـاتوف، والكاتـب والأديـب شـوقي كـريم حسن، كما كان أخ فاضل وأديب من آل الأعسم وآخرون برزت أعمـالهم فـي مراحـل لاحقـة مـنهم الأخ نعيم شـريف، وسـعدون عبـد الأميـر جـابر، وعلـى حـد علمـي، فـأن الأخ المرحـوم محمـود جنداري، كان يعمل داخل السجن وأنجز بعض الأعمال، وكذلك الأخ شـوقي كـريم حسـن. كمـا أن الأخ د. عبد الكريم هاني (طبيب) أنجز ترجمة رائعة عن تـاريخ حضـارات المكسيك، وعـن لغتـه الإنكليزية الرائعة قدم للمكتبة العربية كتاباً مهماً للغاية، سيكون مؤسفاً للغاية إن لم يطبع.

وأعرف أن زميلاً كريماً من دبلوماسيي وزارة الخارجية في السبعينيات سجن لمدة تزيد على عشر سنوات كان قد ترجم أعمـالاً مهمـة وهـو الأخ الأسـتاذ عطـا أمـين، وربمـا هنـاك مـن لـم يطـرق سـمعي اسـمه الكـريم أو أعمالـه، ولكـن عـدا هـذه الأسـماء، كـان هنـاك مـن يبـدي اهتمامـا بـالمطالعة والقراءة الجدية، وربمـا هنـاك محـاولات كتابيـة: شـعر، قصـه قصـيرة، رسـم، محـاولات بحثية، وكان بعضهم موهوباً حقاً ولكن الموهبة بها حاجـة إلـى التواصـل والتصـميم، مثـل الأخـوة: أحمد الصافي، وفالح مكطوف، وأحمد عبد الستار، وأزهرعدنان، وسعدون عبد الأمير، وعـامر غـانم، وفـؤاد الطرفـي، ورزكـار عزيـز، وفـؤاد توفيـق، وعبـد الـرزاق سـعد حـرج، ونشـأت فـرج سـموعي. ونعيم شـريف، ويشـار عمـر، وكـان شـباب آخـرون يحـاولون أن يخلقـوا شـيئاً كـالأخوة الأعزاء محمد الحلو، وواثق كـريم راضـي، يهتمـون بمطالعـة الصـحف والمجلات بهدف التسـلية وقضاء الوقت أو مطالعة كتب ودراسات ذات طابع ديني.

واليوم، وبعد أن خرجنـا إلـى الحريـة، يسـألني الكثيـرون عن سر مقاومتنـا لعسـف السـنين الطويلـة، والقـدرة علـى تجـرع كـم خرافـي مـن الآلام، فـأني لا أمتلـك إلا إجابـة واحـدة: القـراءة والكتابة. نعم، وبها فقط لم ندع الكرة الحديدية الهائلة تسحقنا، بل واصلنا البناء في ظروف صعبة، معقدة، خارجية وداخلية، وبذلك قلصنا الخسارة إلى حد كبير... ولكن من ينكر أن ليس هناك شيء أروع من الحرية؟... ولكن القراءة والكتابة كانت تتيح لي التحليق بعيداً، بعيداً، بعيداً عن أسوار

سجن أبو غريب وأحداثه المؤلمة... كانت الجسر العظيم إلى الحرية المفقودة، كانت صراعاً مع قضبان السجن، تأكيداً للذات، وقد انتصرت في هذا الصراع.

والاتجاه الثاني، الذي كان ممكناً في السجن هو الكتابة: والكتابة بطبيعة الحال أصعب من القراءة، ذلك أن الكتابة هي ممارسة ذاتية، أي أنك تدون آراءك وأفكارك، وهل هناك أخطر من الآراء والأفكار في الشرق المعتاد على مصادرة الآراء والأفكار!! وتنطبق علينا مقولة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض): "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

وبتقديري، فأن العبودية هنا ليست العبودية المملوكة فحسب، بل هي العبودية بأشكالها كافة: الطبقية/ الاجتماعية، والفكرية/الثقافية، حتى أضحى إنسان هذا العصر محاصراً حتى خلايا الدماغ، مقيد بالأغلال من كل مكان. تتفاوت طبيعة الأغلال، ولكنها أغلال على أية حال، وأسوأ تلك الأغلال هي ما يشتريها المرء بنقوده التي كد ليحصل عليها، ويضعها بيده وفي عنقه بسرور وفرح! وليس نادراً أن توضع الأغلال في الفكر فتمنعه من القراءة والكتابة... ألم يحل روجيه غارودي في فرنسا إلى المحاكمة بسبب أفكاره في ختام القرن العشرين؟

عندنا في الشرق... فالأغلال واضحة وقاسية، فالمرء يخاف، ولا بد له أن يخاف.. من أبيه وشقيقه الأكبر، أما الفتاة فتخاف حتى من جدران البيت، ثم لابد له أن يخاف من وجهاء العشيرة والمحلة، ومن أهل النفوذ والحظوة، ويخاف من مدير دائرته، ثم لابد أن يخاف عندما يسمع بعض الإذاعات، أو يقرأ صحفاً وأشياء ممنوعة، ثم لابد أن يخاف القانون (خوف وليس طاعة) ثم الأمن والمخابرات، ووزير الداخلية، وضع ما شئت من العناوين، فكل ذلك يحيلك إلى كائن تملؤه الهواجس والمخاوف من الذي يأتي ولا يأتي:"فتقرأ التقويم بحيلة المغلوب، فآه ثم آه" *

(*هذه أبيات للشاعر الكبير، صديقي وأخي عبد الوهاب البياتي، أبو علي رحمه الله).

الكتاب الممنوع، حيازة وتداول، خطورة، ولكنها لا تنطوي على عواقب وخيمة، سواء كان داخل السجن أم خارجه على أساس القاعدة: ناقل الكفر ليس بكافر، ربما ملعون فقط! وعقوبته بسيطة، أما الكتابة، فأنها تمثل موقفك ورأيك في الأحداث، الماضي منها والحاضر، وربما المستقبل. وهذه تضعك تحت طائلة الحساب، وما أدراك ما الحساب. والحساب هو المادة 208 في القانون العراقي، وهي مادة مطاطة شاملة تحت عبارة قصاصات ورقية. وكانت هذه المادة من جملة المواد التي أحلت بموجبها إلى محكمة الثورة بسبب مقال وجد معي وكان بعنوان **"النداء الأخير قبل غرق السفينة "**، وإنني أعتقد أن هذا المقال هو السبب الحقيقي للقسوة البالغة، التي جوبهت بها، وأثارت حفيظة ذكريات قديمة ومخاوف السلطة.

والمقال لم يكن ينطوي على شتائم أو تهجم (إنني بصدد عرض حجج ولست في معركة كلامية)، بل كان نظرة إلى أعماق النظام الشرقي/ الإسلامي، بصفة عامة. والمقال وإن لم يتضمن تفاصيل أو مشروع برنامج لما ينبغي أن يكون عليه النظام، ولكنه كان يشير إلى ثغرات خطرة في أنظمتنا العربية/ الإسلامية. وبتقديري، أن هذه الثغرات عامة، ولكن بهذه الدرجة أو تلك من الخطورة، وبهذا الوضوح أو ذاك. والمقال وإن كان لما ينجز بعد (ثلاث أو أربع صفحات)، إلا أنه كان مزعجاً أشد الإزعاج للسلطات (التحقيق والمحاكمة)، على أن هذا الهاجس يلح ويطرح أسئلة كثيرة.

والحقيقة، أن الأسئلة المحيرة كثيرة جداً في تاريخنا السياسي العربي/ الإسلامي، بل أن الإجابة عن بعض تلك الأسئلة محرجة وتستلزم مواجهة مع الذات، أنفسنا جميعاً، ونحن نعلم أن مواجهة الذات أصعب المواجهات وتتطلب الشجاعة والصراحة، والمعرفة الدقيقة بالأحداث، والكفاءة على صعيد إجراء التحليل. والحاكم، الذي حكم على الفقير لله أبو فراس ضرغام عبد الله الدباغ، لم يفهم أو لم يتفهم أو أن يحاول الفهم، أن جدية الهموم هي التي دفعتني لكتابة ذلك المقال، ولم يفهم من المسألة سوى: "ها... أنت تقصد أن الوضع الحالي في العراق سيء" مع العلم أن أسم

العراق لم يرد في المقال، وذلك كله بعصبية وصخب وضجيج، ختمها بالحكم علينا بالإعدام شنقاً حتى الموت، قائلاً: "يالله روح أطلع".

ويا للأسف، لو كان من سمع ندائي ونداء غيري، ورأيي وآراء غيري لربما كان بالإمكان تجنب ما كان، صراعات دموية ذات تكاليف باهضة. والآن ألا نتمنى جميعاً أن نحل مشكلاتنا باللجوء إلى العقل والحكمة والعلم والسياسة والدبلوماسية؟ نعم بالتأكيد، إن مثل هذه الإمكانية متوفرة، ولكن العقل الشرقي مغرق بالفردية والتسلط، في حين أن تاريخنا ثري، ثري للغاية وأن القراءة الصحيحة للشريعة تتيح لنا المرونة والتوصل إلى حلول لا إلى أزمات معقدة. ألم يقل الأمام الشافعي قبل أكثر من 1200 عاماً: "إن اختلاف الرأي لا يفسد في الود قضية" وهو القائل أيضاً: "رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب، ومن جاء بأفضل من قولنا قبلناه"، ولكن ترى هل من يسمع النداء؟...... إني أعتقد، جازماً، لو أن علماء الأمة العظام، لو بعثوا، اليوم، فسوف تطاردهم الناس ويشتمونهم ويكيلون لهم أصناف التهم.

كانت مثل هذه الهواجس والأفكار تملأ فكري حتى ما قبل السجن بما لا يقل عن السنتين، وأي مراقب ذي رؤية علمية يكاد أن يرى بوضوح، سلفاً، مآل هذه الصراعات الدموية والتوظيف السيء للتناقضات، التي يميل الكثيرون إلى تصنيفها كتناقضات تناحرية لا تؤدي، في النهاية، إلا إلى محطة واحدة: مجازر وخسائر لا داعي لها، ثم في الختام لا غالب ولا مغلوباً، في حين أن الكثير منها لا يستحق (من وجهة نظر علمية بحتة) حتى كلمة تناقضات، فأنا لا أرى للأسف في هذه الصراعات التي دارت، أو أنها مازالت تدور، حتى اليوم، إلا جانباً كبيراً من الدوافع الذاتية التكتلية (هكذا..) حتى أقل من سمات معركة نقابية، مقابل جانب بسيط جداً مما يستحق تسميته تناقضاً، وهو تناقض ثانوي على أية حال، وليس تناقضاً رئيساً أو تناحرياً، فنحن، للأسف، لا نتقبل أي كلمة أو تصرف من بعضنا بعضاً وتضيق الصدور ولا يتحمل أحدنا الآخر، نتباهى ونفتخر بالتطرف والعصبية، ونشهر الأسلحة لأتفه الأسباب، ويتطور الأمر إلى صراعات دموية، يطل بعدها الثأر الشرقي والكرامة والقيم، التي هي خليط بين القيم العشائرية والإقطاعية على المشهد فيزيده دموية، فمن أجل جثة واحدة تجدنا مستعدين للتضحية بألف جثة جديدة، مستعدين للتفاهم مع الأجنبي القوي، وبعضهم صار يتبجح بذلك، ونتساهل... وما أدراك ما التساهل؟، ولكننا نقف مواقف جدية متصلبة، تحت عناوين من البطولة والمبدأية العالية.. ليس في بلادنا فقط، بل في بلاد الشرق عامة.

اشتركت مرة في إقامة الصلح بين شقيقين تخاصما في زنزانة الإعدام، وكنت أكبر الموجودين سناً، فطلبوا مني إقامة الصلح بينهما قبيل صلاة الجمعة. وأمام الجميع حدثتهما بهذه الواقعة: حدث مرة ما يكدر الخاطر بين سيدنا الحسين وسيدنا محمد بن الحنفية، وكلاهما من أبناء سيدنا الإمام على بن أبي طالب، فلما عاد سيدنا محمد بن الحنفية إلى داره كره أن يكون قد أزعج أخاه الأكبر الحسين فكتب إليه رقعة يقول فيها: "من محمد بن علي بن أبي طالب أبن خولة الحنفية، إلى أخي الحسين بن علي بن أبي طالب أبن فاطمة الزهراء (يريد بذلك أن يذكر أخاه الحسين بأنه أعلى مقاماً): أطلب إليك، فور تسلمك رقعتي هذه أن تأتي إلى داري وتسترضيني ولا تجعلني سابقك بالفضل". وبالطبع هرع الحسين الكبير إلى أخيه واسترضاه، وكنت وأنا أروي هذا للشقيقين المتخاصمين في زنزانة الإعدام (وكلاهما ملتزم دينياً)، والدموع تنهمر من عيني لعظمة هذا المثال الأخلاقي، وهو مثال تقشعر له الأبدان، وكنت أتوقع أن ينهار كلا الشقيقان، فإذا بهما يواصلان السباب والشتائم، فتأمل كم نحن قساة القلوب، لذلك تكونت لدي فكرة بالتدريج وبمرور الأيام، أن التطرف والتعصب ليس معناه التمسك بالعقائد، أو بالحق، بقدر ما هو تصلب لا داعي له حيثما تكون المرونة ضرورية، والمرونة حيثما يكون التمسك بالحق والمبادئ مهماً.

كانت هذه الأفكار والهواجس تدفعني إلى الغوص في بطون التاريخ والوصول إلى أعمق نقطة، وقد قرأت كتباً عدة: كانت محرضة لي على هذا الغوص، منها: تاريخ الملوك والبلدان، للطبري ذو الأجزاء العشرة، ثم كتاباً رائعاً مع تحفظي على بعض أجزائه للكاتب البريطاني/ لبناني الأصل البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، فابتدأت رحلة طويلة، منذ العام

1988، للاهتمام والتركيز والتخصص في دراسة الشريعة ـ المعاملات ـ الفكر السياسي العربي/ الإسلامي. وهناك الكثير من الكتب التي مثلت مصابيح هادية قوية منها: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، للماوردي، والسياسة الشرعية في أصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، وروح الدين الإسلامي، لعفيف عبد الفتاح طبارة، وكتاب الخراج للقاضي أبو يوسف والمقدمة لابن خلدون، والسيرة النبوية لابن هشام، وغيرها مئات من الكتب العربية والأجنبية أبرزها موسوعة تاريخ العرب (أربعة أجزاء) لمجموعة من العلماء الألمان (وقد ترجمتها بنفسي إلى العربية)، وكتاب تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، لكلود كاهن.

والقراءة الكثيفة مع تسجيل الملاحظات والاستنتاجات والتوصل إلى أفكار جديدة، يدفع، كما هي الحال في عملية خلق فكري، إلى استنباط وسائل لطرح هذا الموضوع أو ذاك واكتشاف اتجاهات لم يشبعها الباحثون بحثاً، ثم تخلق آراء جديدة، وهكذا وجدت أن البحث يستلزم سبر غور وغوص عميقين إلى الجذور الحقيقية للفكر العربي الإسلامي، تعود إلى أسس الحضارة، التي قامت في الأمصار العربية: وادي الرافدين، بلاد الشام، وادي النيل، الجنوب العربي، اليمن وحضرموت ووسط شبه الجزيرة العربية، والفهرس الذي توصلنا إليه، جهد أنتج مؤلفاً من جزئين بعنوان: تطور نظريات السياسة والحكم العربية في العصر القديم (قبل الإسلام) والوسيط (بعد الإسلام)، ثم تطورت البحوث والاستنتاجات، حول الموضوع، فكان أن وضعت مؤلفاً بعنوان: تحليل نظام الخلافة العربي/ الإسلامي.

وهذه الدراسات والأبحاث، بوصفها تتناول تاريخاً قديماً، كان العمل فيه لا ينطوي على مخاطر، لذلك كانت المصادر تردني إلى السجن، بسهولة، تقريباً، وهي كتب غير ممنوعة في غالبيتها العامة باستثناء كتاب ابن تيمية في السياسة الشرعية وتفسير في ظلال القرآن للسيد قطب، وقد استعرتهما من زملاء معنا، وكذلك كان كتابا البرت حوراني، وتاريخ الحركات السرية في الإسلام للدكتور محمد إسماعيل ممنوعين، وفيما عدا ذلك كانت الكتب التاريخية مجازة وتباع في الأسواق العراقية، على أنني حاولت العمل في بحث أحاول فيه دراسة جذور الفكر اليساري في الإسلام، ولكنني سرعان ما أدركت أن البحث في هذا الموضوع ينطوي على مخاطر حيازة كتب ممنوعة، حديثة وقديمة، بالإضافة إلى أن مسألة اليسار مرعبة للجميع. ولكنني مع ذلك بلورت تلك الأفكار في مؤلف يحمل عنوان (مباحث في الفكر العربي الإسلامي) درست فيه أفكار ثلاثة علماء: الماوردي، ابن خلدون، ابن تيمية، وثلاث حركات: المعتزلة، القرامطة، والزنج، ثم أضفت إليه لاحقاً مباحث أخرى عن ابن أبي الربيع، وابن الأزرق، وحركات الخوارج والمرجئة..

وبنتيجة هذه الدراسات، وبعمل كان استغرق مني وقتي بأجمعه (كنت أعمل بين 10 - 12 ساعة يومياً)، كان اهتمامي بالفكر السياسي قد بلغ وتوصل إلى تبلورات جديدة وأفكار كثيرة قادت إلى إحداث مقارنات مع الفكر السياسي، الذي نقرأه في الجامعات، القديم منه والحديث: (الإغريقي ـ الروماني ـ المسيحي/ عصر النهضة ـ الليبرالي ـ عصر التنوير وتطوراته)، قاد ذلك إلى وضع منهج لدراسة في الفكر السياسي المقارن: الفكر السياسي الرافديني/ الإغريقي ـ العربي الإسلامي/ المسيحي الليبرالي، والعمل يحمل عنوان: الاستهلال والاستكمال، وقد عملت فيه زمناً طويلاً كلفني جهداً كبيراً، إذ استغرق تأليفه ما يزيد على السنتين ونصف السنة.

وباستثناء هذه الأعمال ذات الطابع الفكري والسياسي، كانت هناك أعمال غير مثيرة للسلطات: مثل الدروس الأساس في اللغة الألمانية، وكذلك: تعلموا الألمانية وهذان كتابان في تعلم اللغة من خلال خبرتي في تدريس اللغة الألمانية، وكراس بقرابة 60 صفحة: تحليل عمل البعثة الدبلوماسية البريطانية في العراق 1958 – 1959 ، وكراس عن العولمة (الإمبريالية الجديدة). وإني أعتقد أن العولمة تلطيف لواقع الإمبريالية الجديدة، بالإضافة إلى أعمال أدبية، فقد كتبت خمس مسرحيات، كانت تنطوي على مغزى نقدي، لذلك كنت أخفيها بدقة وأسربها إلى خارج السجن فور الانتهاء منها وهي: تغريد بلابل متعبة، أيها السادة يرجى الانتباه، إفادة شاهد عيان، مختصر الحكاية، حكاية عطب بسيط، وهناك أشعار لبعضها دلالات سياسية، وإن كنت لا أكتب الشعر كثيراً ولكن تلك الأبيات تمثل وتعكس الموقف الوجداني والسياسي ولم أفكر يوماً بنشرها.

إذن، كانت مساحة الكتابة واسعة، وفي الواقع أن دراستنا الجامعية في ألمانيا أسهمت، بالطبع، في حيازة الأسس المعرفية والمنهجية في التعليم وكتابة البحوث. فهناك قواعد في القراءة المفيدة، وكذلك قواعد في الكتابة، وهي تمثل الأسس الموضوعية للجهد البحثي، ثم يليه أو يأتلف معه الجهد الذاتي المتمثل في القراءة المكثفة الموجهة والمركزة، وامتلاك الرؤية العميقة والاختصاص في موضوعة البحث.

وإلى جانب الكتابة، كانت هناك إمكانية متاحة في عمل الترجمة، التي كانت، بالنسبة لي، تمثل مكاسب عديدة في آن واحد. فالترجمة كانت تضعني على تماس مباشر مع اللغة الألمانية، التي لم أكن أريد أن أخسرها، فهي بالنسبة لي عمل لا يستطيع أن يفصلني منه أحد، يا إلهي كم أن بي حاجة إلى عمل لا يفصلني منه أحد!... الفصل.. يا لها من كلمة مرعبة ولكنها كانت في حياتي عادية جداً، وباعث آخر مهم، فقد كانت معظم الكتب، التي ترجمتها مهمة للقراء العرب.

وكنت، قبل السجن، قد ترجمت مقالات عديدة بعضها مهم للغاية، ولكني ترجمت كتاباً رائعاً عن أحداث الحرب الأهلية الأسبانية، وأنا أعلم كم هي كبيرة حاجة المثقفين العرب إليه. وبعد سنة من وجودي في السجن، طلب مني ترجمة كتاب ميكانيكا وقيادة السيارات والإشارات الدولية في جزأين، ثم وقعت بين يدي، مصادفة، رواية لكاتب أقدره كثيراً وهو الكاتب التقدمي الأمريكي جاك لندن مؤلف رواية العقب الحديدية، وقد أهداه إليّ الأخ نزار القاضي، الذي غادر السجن وهي رواية (عصيان على السفينة الزينورا)، ولكني، بعد ذلك، ولمدة تجاوزت السنة عملت بصفة مرهقة جداً في كتاب هو من أروع الكتب في تاريخ العرب، لمستشرقين ألمان بأربعة أجزاء. وكان عملاً مرهقاً لبصري وصحتي بعامة، ولكنه كان عملاً يستحق التعب، وبعد ذلك، ترجمت كتاباً عن حضارة الأزتيك والمايا والأولميك في المكسيك، (وقد ترجم الأخ الدكتور عبد الكريم هاني، فيما بعد، عملاً مهماً عن حضارة المكسيك)، ثم ترجمت رواية مهمة من أدب المقاومة للكاتب الألماني كلاوس مان بعنوان (هروب إلى الشمال) وكان هدية من الأخ الدكتور رشدي طالب الرشدي المختص بدراسات أدب المقاومة، ورواية أخرى من أدب المقاومة لكاتب ألماني مشهور وهو هارالد هاوزر بعنوان سفير بلا تفويض.

ثم وقعت بيدي مجموعة كتب بالألمانية ترجمت منها روايتين لكاتب ألماني مشهور هو هاينز كونزاليك، وهذا الكاتب غزير الإنتاج، ويكتب بأسلوب يشبه أسلوب إحسان عبد القدوس، ويثير إعجاب قطاعات واسعة من القراء والروايتان: طريق إلى الجحيم، تدور أحداثها حول ثورة عمالية في البرازيل، والأخرى: مسرح الجبهة، تدور أحداثها في الحرب العالمية الثانية في جبهات الاتحاد السوفياتي والنرويج، وهي ذات طابع إنساني/ مقاومة، ورواية ثالثة وجدانية لكونزاليك أيضاً.

ولكن، قبيل خروجي من السجن بأشهر، ترجمت مقدمة لترجمة القرآن الكريم للأستاذة الألمانية المعروفة آنا ماريا زيشل (45) صفحة، وعمل آخر جميل هو دفتر تخطيطات مايكل أنجلو للأستاذ الألماني ديتر شمت، وهو (كما أعتقد) لا غنى لطلبة معاهد الفنون الجميلة. وأكاديمياتها عنه، إلى جانب دراسات في تاريخ الفن.

لاحظ أن جميع هذه الترجمات لم تكن خطرة (على صعيد الإدارة والأمن) ولكنها بالنسبة لي، فأن أي مساهمة مهما كانت صغيرة في التأثير على مستوى وعي الناس وثقافتهم مكسب كبير لقد عملت لمدة ستة عشر عاما متواصلة مع القراءة والكتابة والترجمة من دون توقف، وكنت أحياناً أعمل لساعات طوال وليس من مواد مساعدة سوى قاموس شريجلة وموسوعة دودن الألمانية Duden، وكان لهذا الكتابان قيمة لا تقدر بثمن وكذلك كتاب المنجد، وأريد بذلك القول إن بإمكان المرء أن يعمل حتى في ظروف تقارب المستحيل، وكانت الإدارة تمنع الكتب وتصادرها، ولكنها كانت تعيد الكتب غير الممنوعة، بما في ذلك كتباً صادرة عن دار التقدم في موسكو (وهي دار نشر غير مرغوبة) وبذلك كان بإمكان النزيل أن يشغل وقته، وما أكثر وقته، إن شاء استغلاله استغلالا حسناً في ظروف ومعطيات معقولة.

في ظل نظام منع الراديو عن النزلاء (برغم وجود عدد لا باس به من أجهزة الراديو لدى السجناء بنحو سري، وكان اكتشافه يعرضهم للعقاب أو المصادرة)، لذلك كان وجود التلفزيون مهماً، بل حاسماً في حياة النزلاء ولا يمكن تصور الآثار السلبية لغيابه، وإن كان بعض الأخوان من النزلاء لا يقدرون هذه المسألة حق قدرها، فالتلفاز كان الجهاز المدهش الوحيد، الذي نستطيع عبره أن نشاهد الطبيعة والماء والبحار والأشجار والحيوان، والأرض والعلوم والألوان، الأخبار السياسية والثقافية والعلمية والفنية وموسيقى وأفلام، نحن الذين لا تمتد أبصارنا إلا بضعة أمتار فقط، مقطوعي الصلات مع العالم الخارجي بكل ما فيه، إلا عبر هذا الجهاز، وبوساطته نطلع على الأخبار، ثم على الصور والأفلام السينمائية، وبعضها رائع وجميل ومفيد، وفعاليات رياضية.

فالتلفاز كان شيئاً مهماً للغاية، ومن دونه لم يكن لدى النزيل إلا الفراغ التام، الذي تكمن فيه جوانب سيئة، مدمرة للشخصية، وإنني أعتقد، وإن كنت لست من مدمني مشاهدة التلفاز بسبب انغماسي التام في القراءة والكتابة، أن التلفاز يتيح لك مشاهدة أحداث مهمة ومتابعتها ويجعلك على صلة بالأحداث العالمية، وكنت لا أفوت مشاهدة نشرة الأخبار والمتابعات الدولية والثقافية، لذلك كنت أسعى بكل قواي أن لا يحرم النزلاء من هذا المصدر الثقافي الذي من دونه تستحيل حياة السجن إلى فراغ هائل ومطحنة رهيبة لعقل الإنسان.

كانت إدارة السجن تسمح بوجود تلفزيون كبير الحجم، يوضع للجميع في الممر، وكان النزلاء يجمعون التبرعات لشراء التلفاز، وبالإضافة إلى ذلك كانت تسمح (بسهولة أو بصعوبة، وغالباً عن طريق المافيا) بإدخال أجهزة تلفزيون خاصة يضعها النزيل في غرفته، كما شاعت، في الآونة الأخيرة، تلفزيونات صينية صغيرة الحجم زهيدة الثمن لا يتجاوز ثمنها 40,000 دينار أو أقل (20) دولاراً، كانت المافيا وقياداتها الجبارة تتولى إدخال هذه الأشياء (ثلاجة ـ مجمدة ـ مكيفة هواء) مقابل (أتعاب) معقولة، وهكذا كان التلفاز من الفقرات المهمة في حياة النزيل.

والتلفاز العراقي كان يبث أربع قنوات: العامة، الشباب، الفضائية العراقية وقناة الرياضة، وإذا ضربنا صفحاً عن المواد الدعائية الشخصية، فإن هذه البرامج كانت تتيح مجالاً لا باس به من المتابعات الثقافية. ولكن اهتمامات النزلاء متفاوتة، بالطبع، فكان هناك من يحرص على متابعة المواد الثقافية وآخرين يهتمون بالأفلام والغناء، وهناك من يتابع الرياضة.. وهلم جرا.

الرياضة كانت من بين الفعاليات المهمة سواء على صعيد المشاهدة أم متابعة للأخبار، ومشاهدتها في النقل التلفازي، ولكن كانت هناك فرصة لممارسة أنواع عديدة من الرياضة في مقدمتها كرة القدم والكرة الطائرة وكرة السلة ورياضة كمال الأجسام وكرة الطاولة، كما شاع بين النزلاء أيضاً تعلم الرياضات القتالية، كراتيه، وتايكوندو وبوكسينك، وكان هناك من يدعي أنه مدرب أو بطل، أو صاحب باع طويل. ولا شك أن بعضهم كان حقاً على دراية واسعة بهذه الرياضة، وكالعادة فالسجن يزخر بالمدعين، وبمن يبالغ في تقدير إمكانياته، وبعضهم لم يكن يعوزه الخيال، فيروي قصصاً خيالية، ربما شاهدها في الأفلام، فيختلط عنده الحلم بالحقيقة.

كانت هناك فرقاً رياضية منتظمة للألعاب الجماعية، وهناك دوري لكرة القدم وكؤوس وجوائز، وهو عمل يستحق الإشادة. وإلى جانب هذه الألعاب، كان النزلاء يشعرون، بصفة عامة، بأهمية الرياضة للجسم والصحة، فكان الجميع يمارس الرياضة بما يقدر عليه وما يعرفه، ومن ذلك، الهرولة أو السير لمدة طويلة، وكان بعضهم يمارس التمارين التكوينية (وهي من تمارين اللياقة للقوات الخاصة). أما النزلاء الذين تجاوزوا سن الشباب، فقد كان الهدف من ممارسته للرياضة هو الحفاظ على لياقة بدنية معقولة، كما أن التجربة أثبتت عدم امكانية وجود صحة سليمة مع جسم خامل لا يتحرك، والآم الظهر والمفاصل والعظام، إنما هي نتاج للمكوث الطويل من دون حركة في الغرف، لذلك ومهما كانت المساحة ضيقة، لا بد من ممارسة الرياضة يومياً ولو لدقائق معدودة وهذا ما كنا نفعله، وربما أن السر يكمن هنا في خروجنا من السجن بوضع قادرين فيه على مواصلة الحياة بدرجة نشاط معقولة.

مثلت الطقوس الدينية جانباً من النشاط الثقافي للسجين. والفعاليات الدينية تتمثل بصفة أساس، بالصوم والصلاة وقراءة القرآن. وكان كثير من النزلاء يسعون إلى إتقان قراءة أو تلاوة وبعضهم يحاول التجويد، ممارساً ذلك في مجالس الفاتحة، التي يقيمها النزلاء، عند وفاة قريب لهم، كما أن عدداً لا بأس به من النزلاء حفظ القرآن.

النزلاء، بصفة عامة، يحافظون على الصلاة، إذ أن عدداً كبيراً من النزلاء من التيارات الدينية وغيرهم، يعدّون الدين جزءاً مهماً من الهوية، لذلك كانت ممارسة الطقوس الدينية تتم على هذا الأساس وأيضاً على أسس دينية/ سياسية / ثقافية.. الخ وهناك من لا يعدّ الدين من اهتماماته الشخصية، سواء كان ذلك داخل السجن أم خارجه ولكن عدد هؤلاء قليل.

كان شهر رمضان رائعاً في السجن، إذ يطول السهر ويكثر السمر ودعوات الإفطار وسماع القرآن وصلاة التراويح، وكثرة الأطعمة وتنوع الحلويات. ففي رمضان تعمل الأفران بطاقة مضاعفة (وهنا تضرب المافيا طبعاً ضربتها من أصحاب الأفران) ثم يحل العيد بعد رمضان، وهناك تقاليد خاصة إذ يزور صغار السن الكبار، وأحيانا يتلطف الكبار بروح أخوية ويزورون من هم أصغر منهم، وفي الأعياد يتصالح المتخاصمون، وتقام الولائم والأطعمة الفاخرة من الأسماك والدجاج وتشيع أجواء الفرح والبهجة برغم أن السجن ثقيل على نفسية النزلاء ومعنوياتهم. وكانت المواجهة تتم، عادة، في ثاني أيام العيد، وأنا، وإن كنت محروماً من مقابلة عائلتي طيلة المدة (أمضيت 31 عيداً في السجن يضاف إليها 8 أعياد محجوزاً في البيت)، إلا أنني كنت ألاحظ، بألم شديد، مقابلة النزلاء لأبنائهم وعائلاتهم في هذه الأيام المجيدة... إنها آلام تدرج على رصيد فائض الألم، الذي لا طائل منه... أنه لأمر مؤسف إلى أقصى درجة....

كان هناك نزلاء يحاولون تداول العلم والثقافة، فيما بينهم، بوسائل مختلفة، وكنت أجد لدى العديد منهم، رغبة في التعلم، وعند آخرين منهم الفكرة عن نقل بسيط للثقافة. إن التعلم والثقافة عملية تطول سنوات كثيرة جداً، ربما تستغرق العمر كله. **إن الإنسان لا يقرأ لكي يقال عنه أنه مثقف، بل لكي يجيب عن أسئلة العصر المعقدة**، وبسببها أصبحت الثقافة معقدة أيضاً. والمرء يقرأ لكي يستطيع أن يتنبأ ما يمكن أن يحدث سياسياً/ اقتصادياً/ ثقافياً، وتشعبت الاتجاهات وتعددت، وتشعبت سبل التعليم والثقافة ووسائلهما، ولكنني كنت أقابل كل رغبة في التعلم بإيجابية قدر الإمكان، فالطموحات العلمية لبعضهم تتجاوز قدراتهم، ثم أني كنت أتجنب الخوض في القضايا السياسية الحساسة، وقد علمت أن أحدهم قد أبلغ الإدارة بأني كنت أوجه هذه الجهة أو تلك، وقد كتبت عني تقارير كثيرة جداً ولحسن الحظ، أنها كانت متناقضة جداً، فقد كتب عني أنني من البعث اليسار، وشيوعي، ولكن لحسن الحظ، التناقض أبطل مفعولها. بل كتبوا عني أنني الموجه لتيار السيد الصدر، وفي الواقع أن المنتمين إلى هذا التيار كانوا يتجهون للقراءة والثقافة، والعلم، ومن هنا كانت علاقتي بهم أخوية وودية.

ولما كانت المحاضرات ممنوعة بالطبع، إذ أن التجمعات ممنوعة، وكان للإدارة عيونها وآذانها بين النزلاء، لذلك فالتجمعات خطرة جداً، ولكن ذلك لم يكن ليمنع أن يجلس اثنان أو ثلاثة في مكان قصي من الساحة، في أوقات مناسبة، ليتحدثوا بعفوية أو شبه عفوية في موضوعات ذات طابع سياسي/ ثقافي مهم، وأساساً لم يكن هناك الكثير من المؤهلين (اختصاصاً) لخوض موضوعات كبيرة وبجدية، وأحاطته بما يستحقه كمحاضرة أو كندوة.

ومن القليل النادر، الذي حدث، جلسة أو جلستين أو ثلاثة، شبه عفوية في مناقشة لكتاب الرأسمالية الجديدة، د. فؤاد مرسي، وهذا الكتاب وجد في الأسواق العراقية في أواخر الثمانينات وطبع في الكويت، وأدخلته إلى السجن وطالعه بعض الأصدقاء، وجرت مناقشة لهذا الكتاب الممتاز، الذي كانت معطياته وبياناته تطرح استنتاجا مفاده أن الأقطاب الرأسمالية تشهد حركة واسعة إلى الداخل والخارج، وإن شدة التمركز في الولايات المتحدة تطرح تكاثف حالات استقطاب جديدة. كما جرت، في مناسبات أخرى، مناقشة موقف الطاقة/ النفط وحركة الأسواق وتقلبات الأسعار. وربما في مناسبة أو أخرى حول موضوعات مماثلة. ويرغم أن موضوعات هذه

المناقشات لم تكن خطرة، ولكن مجرد اجتماع ثلاثة أو أربعة أشخاص معاً سيثير مغزى غير مقبول، ويتبعه على الأغلب إجراء ما.

فالمحاضرات والندوات كانت تعدّ نوعاً من أنواع التجمع، وإلا كان من الممكن تحقيق برامج ثقافية في السجن إذ كان بيننا عدد لا بأس به من الاختصاصيين في مجالات متعددة: طب، هندسة، سياسة، شريعة، جيولوجيا، آداب، طيارون، قادة وضباط ركن...الخ ولكن تلك هي من الفرص الضائعة أيضاً.

وإذا كانت المحاضرات والندوات محظورة، لكن الأحاديث العادية ذات طابع الدردشة، كانت توفر معلومات لا بأس بها مما يثير اهتمام النزيل. فعلى سبيل المثال، كان لوجود ضابط طيار كفء وألمعي (المقدم الطيار عبد الله، أبو محمد) قرب سريري، مناسبة لكي يروي يومياً عن أحداث وقصص الطيران، بل شرح لي بدقة تامة، وهو معلم طيران، كل شيء عن هذا العلم، وكان بالإمكان الاستفادة من فرص كهذه في شتى الاتجاهات العلمية والمهنية حتى لو كانت بسيطة وغير مهمة. ولكن كما ذكرت في غير مكان من هذا الكتاب، قسوة ظروف السجن، وكانت مطرقة السجن، هائلة، قاسية، مدمرة، وكان الكثير من النزلاء يئنون تحت قسوته، ترى هل هناك فسحة للثقافة، بل أن تتعب نفسك لكي تحصل على بصيص نور، كوة صغيرة تطل منها، نعم كان ذلك ممكناً، لأنه الممكن الوحيد. ولكن النفوس مرهقة ومتعبة، نعم بوسعك أن تنصح وأن تحث على الصمود، وتقوية الذات وتنوير الطريق، ولكن ليس بوسعك أن تعاتب المتعب والمرهق.

كنت أحدث الأخوة النزلاء بمنطق العارف، بل الخبير بالمشكلة: افترض أنك سقطت من حاجز سفينة مبحرة في وسط المحيط الأطلسي... فمواصلة السباحة حتى البر مستحيلة نظرياً، فأمامك بضعة الآف كيلومترات ووراءك بضعة آلاف كيلومترات، ولكن من المستحيل أن تسدل ذراعيك وتتعمد إغراق نفسك! أسبح... أسبح حتى تتعب، وعندما تتعب أسبح... لا أعرف ماذا سيحصل، ولكني أعرف إن عليك أن لا تستسلم، فربما ستجد قطعة تطوف عليها، أو ربما ستمر سفينة وتلتقطك، ولكن ليس عليك أن تستسلم!

وكان تخصصي في العلوم السياسية والتاريخ، يغري الكثيرين للاقتراب مني وطرح أسئلة سياسية، ولكني، وإن كنت أرحب بتطوير الوعي السياسي للأخوة النزلاء، وكنت أفعل ذلك طالما أن الأمر لا يتناول موضوعات حساسة، ولكني كنت أفضل العمل في موضوعات مفيدة ولكنها غير خطرة، تعليم اللغة مثلاً، فهي مفيدة للغاية، ولا تنطوي على مخاطر، مفضلاً الطالب الجاد المصمم، ذا الإرادة القوية. وقد درست نحو 150 نزيلاً اللغة الألمانية كان 25 – 30 منهم بمستوى طيب جداً، بعضهم أتقن اللغة قراءة وكتابة، ولكن المشكلة كانت في المحادثة، حيث لم تكن هناك أي أمكانية (تقريباً) على الحديث باللغة الألمانية، لكني علمت، فيما بعد، أن عدداً من النزلاء، الذين غادروا السجن قبلنا، استفادوا حقاً من هذه الدراسة استفادة كبرى، وكان صديق عزيز، وهو المهندس فؤاد توفيق، يدرس اللغة الفرنسية، كما كان الأخ المهندس السيد حامد يدرس اللغة الإنكليزية والأخ يشار عمر اللغة التركية. كانت هناك أمكانية ممتازة لتعلم اللغة، ولكن بدرجات من الجودة والحزم متفاوتة بين الطلاب والمدرسين، كان هناك من يبدأ، ولكنه يترك الدراسة، بعد مدة وجيزة، فالأمر يستلزم الدراسة والتعب والاجتهاد، ولم يكن الجميع على هذا القدر من العزم.

الثقافة كانت ممكنة، والدراسة كانت ممكنة وكذلك التعليم، كنت أحث الأخوة النزلاء على الدراسة والقراءة، لأنني متأكد أن لا شيء يمكن إيقاف مساعي الهدم من الخارج إلا مساعي بناء من الداخل، وأنه صراع بين الفرد والقوى الخارجية أي كانت مسمياتها... القوى الغاشمة المسلطة على الإنسان كثيرة، وعلى حريته ولكن على فكره أيضا، وكذلك وضعه الاقتصادي. ولا شيء يطلق الإنسان حراً من قيوده السخيفة، فيعلو ويسمو عليها، إلا الثقافة وبها يترفع عن التعصب والتطرف، فيدرك أن قيمة كل شيء إنما يكمن في فائدته لأكبر عدد من الناس، وعندما يجتهد ويتعب الإنسان لكي يصبح راقياً يدرك كم هو صعب الارتقاء إلى المستوى الرفيع، لذلك

سيتخلى عن التعصب، لأن التعصب يحشر الإنسان في زاوية يأبى الخروج منها، ويدرك أيضاً، أن التعصب حتى للحق إنما هو خطأ.. فإنك وصلت للحق بمشقة وتعب وقوة، قد لا يملكها غيرك.

ولكن تحدي الكرة الحديدية كان يستلزم الشجاعة والذكاء والصبر وقوة الإرادة.

7

أجمل البحار... تلك التي لم نذهب إليها بعد..
أجمل الأطفال... هم الذين لم يولدوا بعد..
أجمل الأشعار... تلك التي لم أقلها بعد..
وأجمل الأيام... تلك التي حتماً سوف تأتي.......

ناظم حكمت

أطلاق السراح - بغداد - السفر

كانت الدولة تصدر بين مدة ومدة (سنتين أو ثلاثة، عادة) مراسيم عفو عن النزلاء بعامة. وكانت هذه المراسيم تشمل السجناء السياسيين، ولكن دائماً مع وجود استثناءات في هذه المراسيم، معظمها في الجرائم الجنائية، ولكن في السياسية أيضاً.

وقد أصدرت الدولة قراراً ثابتاً يستثني (الجرائم) السياسية، الأحكام الخاصة الماسة بالأمن الخارجي، من الشمول بما يسمى بالإفراج الشرطي، أي إطفاء 25% من مدة الحكم إذا أثبت السجين حسن السيرة والسلوك داخل السجن وأغلب الظن أن مثل هذا النظام معمول به في كثير من بلدان العالم، ربما بمدد وشروط متفاوتة. ولكن شمول السجين بهذه الميزة، يستدعي نيل موافقة إدارة السجن وتأييد الباحث الاجتماعي، والمحكمة، التي أصدرت حكمها على هذا النزيل. وفي العراق، كان النزيل ينال هذه الميزة تلقائياً، على وجه التقريب، أي من دون الرجوع إلى رأي إدارة السجن والباحث الاجتماعي، وحسناً فعلوا، وإلا كان في ذلك قناة جديدة مضافة للابتزاز والرشوة. على أية حال، كان النزلاء السياسيون مستثنون من ميزة 25% ما عدا سجناء قضايا الأمن الداخلي، وهؤلاء كانوا يعدون على الأصابع!.. ولذلك فالحبس المؤبد كان يعني قضاء 20 سنة كاملة، فيما كان نزلاء الجنائية يمضون 15 سنة، وخمس سنوات ليست بالأمر البسيط!

وبالإضافة إلى هذا الاستثناء القاسي (أكمل عدد كبير من النزلاء مدة الحبس المؤبد 20 عاماً في السجن السياسي، (لاحظ الملحق). كانت مراسيم العفو تستثني من الأحكام السياسية قضايا: التجسس والمحفضين من الإعدام، فيما كانت المواد المستثناة من الجرائم العادية هي: المخدرات، الزنا بالمحارم، اللواطة. ويضاف إلى القائمة، جرائم القتل العمد (لاسيما تلك التي لم يحصل فيها تنازل من ذوي المجني عليه) والسرقات الليلية، اختلاس أموال الدولة. وفي بعض السنين أضيفت قضايا التزوير (العملة بصفة خاصة).

وقد عاصرت، شخصياً، حالات عفو كثيرة كان القاسم المشترك الأعظم فيها بالنسبة للسجن السياسي (قسم الأحكام الخاصة): التجسس، وبدرجة أقل المخفضون من عقوبة الإعدام، وقد حدث في عفو العام 1991 أن شمل نزلاء مخفضين من الإعدام، ثم علمت من مصادر خاصة، أن شمولي بذلك العفو كان أمراً مقرراً (وكنت قد أمضيت 5 سنوات كاملة) وكان اسمي مدرجاً في قوائم العفو، إلا أنه شطب بتوجيه من جهات عليا، وكنت، بصفة عامة، يائساً من مراسيم العفو، ثم تتالت، بعد ذلك، أحداث مشابهة. وكان عفو 1991 كبيراً إذ لم يبق في السجن إلا اقل من 4% من السجناء السياسيين، وعلى وجه التحديد، قضايا التجسس، وبعض المخفضين، وتأخر العفو التالي أربعة سنوات، ففي تموز من العام 1995 صدرت مراسيم للعفو، لم يبق في السجن إلا أقل من مائة نزيل، ربما 94 نزيلاً. ثم مرت سبع سنوات طويلة، تدور في خلاله الشائعات والأخبار وتفوح روائح العفو ومؤشراته، ويبدأ النزلاء بالمراهنات، وتروج المشاريع والمخططات، وما إلى ذلك من مشاعر لا يعرفها إلا من عاناها، فحقاً قيل:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

في تموز من العام 2002 صدر، فعلاً، مرسوم عفو لا بأس به يشطب أكثر من نصف محكومية النزلاء، لكنه مع ذلك استثنى المواد المعروفة، وكنت قد أمضيت 16عاماً في السجن، أي أكثر من ثلاثة أرباع الحكم، ولم يكن العفو ضمن حساباتي، لذلك كان التأثير النفسي بسيطاً، ولكن الشائعات تواصلت وتفاقمت، بل أن عناصر من الإدارة كانوا يروجون هنا وهناك، أن عفواً

قادماً سوف يشمل الجميع من دون استثناء، لكن ذلك لم يكن يهزنا، أو قل لم نكترث له كثيراً، فقد أنهيت 16 جولة من المصارعة، أو الملاكمة منتصراً، أو بالأحرى لم أهزم فيها، ولم يبق إلا القليل... القليل...... أربعة سنوات، تخيل عندما تصبح الأربعة سنوات بسيطة!.......

يوم الأحد 20 – 10 – 2002 ، كنت قد دعوت أحد الأخوة (عصام من الحلة) إلى طعام الغداء، فجاء من يطلبني إلى باب القسم فذهبت، وإذا بأحد المقربين للإدارة يخبرني، أن العفو قد وصل السجن وسوف يذاع قريباً، فاستعد وإلا فأنك لن تجد الوقت لرزم حقيبتك. وبعد دقائق أخبرني أحد زعماء المافيا، أن القرار سيعلن خلال نصف ساعة من الآن وأكد الخبر بما لا يقبل الشك وقال مشدداً: أن اسمك من بين أوائل الأسماء، إذ سوف يطلق سراح 500 فرد حالاً والبقية غداً. وبدهشة وحيرة ممزوجة بشعور بالعجز. فأنا مثلي مثل قدامى النزلاء (سجين قديم): مصطلح يطلق على النزيل بعد 5 نزلاء فأكثر، لدي أغراض لا تكفيها إلا سيارة حمل بيكب 1,9 طن: ثلاجة مليئة بالأطعمة، وتلفزيون ملون ومبردة هواء وخزانة ملابس، وكم هائل من الكتب، ومستلزمات الكتابة، وأشياء أخرى كثيرة، ولكن لابد من التفكير بسرعة، إذن، نأخذ ما لا يمكن التخلي عنه. وطبعاً بالنسبة لي هنا: الكتب والدفاتر والأوراق، وشيء بسيط من الملابس وكيس الأدوية، وتركت كل شيء... ورائي.

وسط حيرة وذهول، وصراخ وزعيق، وتوديع وضجة، ناداني أحدهم باللهجة البغدادية الحبيبة: "يالله دكتور تره صارت هيته"، كما شاهدت الأخ المهندس فؤاد توفيق، الذي لم ينس أن يهتف قائلاً: "يالله دكتور قبل أن يبدلوا رأيهم". فخرجت أريد الممر، أو بالأحرى حاولت الخروج إلى الممر، فكان مشهداً قد يراه المرء مرة واحدة فقط في حياته الطويلة، أو لا يراه مطلقاً.. كان الممر مكتظاً بالبشر وكأنه علبة سردين (وكانت إدارة سجن أبو غريب قد جلبت إلى قسم الاحكام الخاصة، بضع مئات من السجناء العاديين من القضايا الجنائية)، لا يمكنك أن ترى إلا الرؤوس ويستحيل الخروج من الباب والانضمام إلى هذا التيار.

وكنت قد اختصرت كل ما أمتلك (وكان يكفي حمولة سيارة بيكآب) بكيس يدوي، وحقيبة يد صغيرة، كيس متوسط الحجم، تكرم أحد الأخوة بمساعدتي، وكنت أعاني، منذ سنتين، من متاعب صحية (ربو وحساسية) وكنت مستمراً على تناول جرعات قوية من العلاج (كورتيزون ومشتقاته) الأمر الذي أضاف المتاعب إلى وضعي الصحي، فارتديت بدلة رياضية (تراكسوت) مع حذاء رياضة، وغادرت القسم إلى الممر من باب جانبي عبر الساحة.

كانت ساحة قسمنا (المسمى ق1) في وضع عجيب لا يصدق، الفوضى كانت عارمة، وهناك من ترك قدر الطعام على الطباخ وخرج، وهناك من غادر لتوه، وأكواب شاي لم ترتشف بعد ويتصاعد منها البخار، الثلاجات والمجمدات والتلفزيونات مبعثرة في كل مكان، وكل شيء يصيب المرء بالذهول، ولا أظنني قادراً على وصفه بنحو دقيق، إنها فوضى خيالية، فوضى لا تصدق: لقد فتحت أبواب السجن جميعها، وقالوا للجميع، هيا أذهبوا إلى بيوتكم! هكذا.. من دون قراءة أسماء ومن دون قيود، ربما أن شيئاً مماثلاً لم يحدث في التاريخ إلا نادراً.

وعندما أصبحت خارج السجن، هذه المنطقة المحرمة.. حراً للمرة الأولى، منذ ستة عشر عاماً، بلا حراس، بلا قيود في اليدين، وفي الساحة أمام الباب النظامي للسجن السياسي (قسم الأحكام الخاصة) شاهدت هناك الأخوة د. صادق عرفات، والأخ عبد المنعم النوري أبو حكمت، وهما مثلي حائران، وفي هذه الدقائق الحرجة، برز أخوة وأصدقاء يقدمون المساعدة، آه.. ما أطيب العراقي وما أكرمه...

وهناك من اقترح أن ننتظر قليلاً لعل الزحام يخفّ بمرور الوقت، وفي تلك اللحظات شاهدت مجموعة من مطلقي السراح من قاطع الإعدام بلحاهم الطويلة (الحلاقة ممنوعة في قاطع الإعدام)، وهم بحالة ذهول تام، فقد أطلق سراحهم من زنزانة الإعدام إلى الشارع، بصرف النظر عن التهمة، قتل عمد أو تجسس، ذلك أمر لا يستوعبه المرء بسهولة.

كانت الساعة الرابعة عصراً، عدت وألقيت نظرة على ممر السجن، كان خالياً حتى من الأشباح، وكأنه مكان مهجور، منذ قرن من السنين، ولا أعتقد أن الأشباح والجن تختار أبو غريب

مكاناً لنشاطها. وإلى ما قبل دقائق كان هذا الممر يعج بالسجناء الحالمين بالحرية، أما الآن فالجميع يزحف إلى الخارج كأرتال النمل وكل يحمل ما يقوى على حمله، وهناك أصناف عجيبة من البشر، فقد شاهدت من يحمل ثلاجة كهربائية كبيرة على كتفه وسط ازدحام يوم القيامة هذا.. وأنا نفسي أردت أن ألقي نظرة على هذا المكان، الذي أمضيت فيه ستة عشر سنة من العمر. وكان آخر من رأيته يسبح في التيار صديقي وأخي العزيز الشيخ ستار البهادلي، وودعنا بعضنا بنظرات الود والمحبة، من دون أن نتمكن من الوصول إلى بعضنا لنتعانق.

في الساحة أمام باب السجن، كنا ننتظر، نحن بعض الذين لا يقوون على مصارعة الأمواج وتحمل هذا الصخب الخانق... سمعت حواراً باللغة الألمانية بين شاب وشابة، أثار بالطبع انتباهي واهتمامي، كانا صحفيان يتحدثان باللغة الألمانية ثم علمت بسرعة، بعد دقائق، أنهما من ألمانيا الاتحادية (يتحدث النمساويون والسويسريون اللغة الألمانية أيضاً): إنهما يتحدثان فيما إذا كان السجن قد خلا فعلاً من نزلائه، هممت بالمشاركة في الحديث، ولكني تذكرت المآسي، التي حدثت من جراء اتصالات كهذه وهي ربما بريئة المقصد، فقلت لنفسي: لك يا أبو فراس، لم يمض على خروجك من السجن سوى دقائق، وها أنت تبحث عن المتاعب... هيا امض، عانق الشمس والقمر.. عانق الحرية... وكنت مصمماً على كتابة شيء، أوراق للأجيال عن الأحداث في سجن أبو غريب قسم الأحكام الخاصة، للمستقبل ذكرى وعبرة.

استدرت إلى العدد القليل من الأخوة، الذين ينتظرون مثلي أن يخف الزحام وكان نزلاء الأحكام الطويلة قد بدأوا يتقاطرون، زحفاً باتجاه الباب النظامي النهائي لسجن أبو غريب.. فنحن مازلنا لحد الآن ضمن أسوار سجن أبو غريب الكبير، فاقترحت عليهم، وكان عددنا لا يتجاوز الخمسة أو الستة، اقترحت عليهم، أن نقذف بأنفسنا في التيار على وفق مقولة: الحشر مع الناس عيد.

كنت طيلة مدة السجن، أتخيل خروجي من السجن، في حالة الخروج العمودي (يعدّ النزلاء في ضرب من المنطق الهزلي، أن لابد من الخروج يوماً، عمودياً إذا خرج ماشياً على قدميه، أفقياً، إذا توفي داخل السجن، فهو سيغادره إلى الحرية محمولاً وهوميت) ترى ما هو اليوم، الذي سنخرج فيه، وبأي صورة؟ في أي شهر؟ وأي سنة؟ ماذا سنرتدي؟ ماذا لو؟.. مئات من الأسئلة، تعبر كلها، طبعاً، عن شوق وتوق إلى الحرية ليس إلا... والواقع سيخالف التصورات كلها... وهكذا كان... أن نخرج فجأة خلال دقائق... وعلى هذه الصفة غير المعهودة وغير المسبوقة، فهذا ما لم يكن بالحسبان..

فعليك أن تجتاز (طبعاً حاشاك!..) جداران وبوابتان، الجدار الأول غير شاهق وغير مهم، وهو يفصل فقط المديرية العامة لإصلاح الكبار عن سائر مباني السجن، والجدار الثاني شاهق وسميك (يليق أن يكون جدار سجن... كسجن أبو غريب) وبوابته تطل مباشرة على الشارع العام القديم بغداد ـ فلوجة، وكان الوصول من قسم الأحكام الخاصة (السجن السياسي) نحو 200 متر، سهل نسبياً، ولكن المسافة بين البوابتين إلى الشارع العام، وهو طريق عرضه نحو 8 أمتار وطوله لا يتجاوز 100 متر أو ربما أقل من ذلك، فقد كان اجتياز هذه المسافة تمثل صعوبة خيالية...

وبعد أن صرت وسط اللجة، ندمت أشد الندم على إقدامي على هذه المغامرة، ولو بقيت في مكاني حيث كنت بباب قسم الأحكام الخاصة ساعتين أو حتى خمس ساعات لكان أفضل كثيراً، وقد لا يصدق أحد، أني تمنيت لو أعود إلى سريري في الزنزانة رقم (4) في (ق1) ولو طلب أحد مني ذلك لما ترددت في العودة، فقد شعرت أن المائة المتر الأخيرة هذه أشبه بمسيرة الألف ميل الصينية المشهورة، فقد أفارق الحياة ولا أنجزها... أليس غريباً أن تختصر 100 متر رحلة عمرك كله.. السياسي والشخصي...... نعم.

نعم... أنها مائة متر فقط... ولكنني احتجت للوصول إلى قرب هذه البوابة 16 عاماً... أي أطول بكثير من زمن المسيرة الكبرى!.. 16 عاماً... مقابل ماذا؟... فقط لأننا فقدنا الرضا.. فقط لأننا لا نجيد الحوار والاستماع... هذه العذابات كلها.. لماذا؟ إن الإنسان أثمن من أن يعذب

ويسحق... نعم مائة متر... وكان على أن أقطعها برغم الإرهاق والمرض والربو والصدمة ووجوهنا تصافح الحرية... أشاهد السيارات لأول مرة، الطريق، أسير من دون حراس ولا قيود في اليد، كنت متعباً إلى درجة خيالية، إنها مائة متر فقط ... وعليك أن تقطعها يا أبا فراس، لا تفكر كثيراً (جوز من سوالفك) هيا حث الخطى، استجمع قواك كلها... هيا استعن بقوة أبطال الأساطير، كما كتبت أنت مرة!...

لن أبالغ إذا قلت، كان هناك الآف البشر يدخلون عبر البوابة الكبيرة، عرضها 4 – 5 متراً، والآف من الخارجين (لاحظ رجاء أرقامي المتواضعة) وهذه الآلاف (ليس أقل من عشرة ألاف) من البشر، كانوا من النساء، فتيات، والأطفال والشباب والشيوخ، وقد اختلط النزلاء الأحرار، بذويهم، أو بألوف الناس المحتشدين للتفرج أو ربما للمشاركة بالفرحة، أو ربما بعضهم أدرك أنه سيشاهد شيئاً خيالياً، ومن المؤكد أنه منظر يستحق الفرجة، وهذه أشياء لا علاقة لها بالإنسانية، انه منظر فريد.. أن تشاهد الآف الوجوه المخبولة من الفرح وآلاف مذهولة، وآلاف مصدومة، وآلاف لا تعرف بعد ما الخطب؟..

كان هناك من يضحك، وآخرون يبكون.. كنت تسمع الزغاريد، والصياح.. هستيريا، في ملحمة بشرية لا مثيل لها حتى في الأفلام الهندية... ذلك كله تشاهده حراً في الهواء الطلق في بث مباشر Live ألا يستحق العناء؟

القادمون كانوا أضعاف بعشرات المرات من السجناء الخارجين، كان الزحام شيئاً لا يصدق، ولا يمكن تخيله، ومن المؤكد أن من يسقط على الأرض سيلاقي حتفه حتماً دهساً تحت الأقدام، أما إذا سقط منك شيء فلا تغامر بالتقاطه... وهكذا كانت هناك تلال من الأحذية والنعال، لذلك كان كثير من الناس يسيرون حفاة، بعد أن فقدوا أحذيتهم ونعالهم ولكنهم كسبوا حريتهم، إن كانوا من السجناء أو من الناس فهذه المشاهد المذهلة لا يمكن أن تنسى كمنظر.

ثم إني كدت أن أسقط على الأرض مرتين بسبب التدافع ولكني سارعت ووضعت الكيس الكبير تحت ركبتي، وبذلك أنقذت نفسي من موت محقق، وخيل لي إن المائة متر هذه، أو قل هذا الطريق الذي لا يريد أن ينتهي... أبداً، فيه نهايتي...

كنا في الواقع لا نسير، بل تحملنا الأمواج البشرية أمتاراً إلى الأمام ثم تعيدنا موجة أخرى قوية منها متراً واحداً إلى الخلف، فتذكرت كتاب لينين الشهير "خطوتان إلى الأمام، خطوة إلى الخلف"، فضحكت مع نفسي وقلت: "والله ما تجوز من سوالفك" وواصلت السباحة في بحر البشر.

في هذه الملحمة الخرافية، شب نزاعان أو ثلاثة، أحدهما تطور إلى ما هو أكثر من الشتائم إلى تبادل اللكمات، وما تيسر بأيديهم، أما أنا... فقد أحسست أن أنفاسي تقطعت واجتاحتني نوبة ربو، حاولت إخراج البخاخ، الذي أحتفظ به في جيبي، إلا أنني تذكرت أنه في الحقيبة اليدوية، فكم ندمت لأني لم أضعه في جيبي، وشعرت أن كمية الهواء في الرئتين قد نفدت، وأنا على وشك الدخول في إغماءة، ولكني شاهدت البوابة وكانت قد أصبحت قريبة جداً، ربما عشرة أمتار فقط، فقلت لنفسي: "لك أبو فراس لا تسويها وتموت، معقولة تموت من العطش وقد وصلت إلى حافة النهر؟".

كنت أدرك أنها أمتار فحسب، وفي تلك اللحظات العصيبة المليئة بمختلف المشاعر، كان سر الحياة قد غدا مكشوفاً، ها أنت في الحرية... هذا هو اليوم والساعة التي تنتظرها 16 عاماً، وها أنت تلعب على الدقائق!.. تذكرت رواية جان بول سارتر، دروب الحرية. ففي الجزء الثالث، الحزن العميق، مقطع كنت أحب إعادة قراءته: في أحداث الحرب العالمية الثانية، كان ماتيو بطل الرواية مكلفاً بحماية رأس جسر وعليه أن يعطل تقدم العدو ويمنح زملاءه الفرصة بالانسحاب... كلفه القائد: 15 دقيقة فقط... أصبحت حياة ذلك المجند المناضل المثقف تساوي 15 دقيقة فقط، عليك أن تصمد فيها يا ماتيو، إنها ضرورية لشرف الوحدة العسكرية، لشرف الجيش، لشرف فرنسا وشرفك الشخصي.. إنها 15 دقيقة فقط عليه أن لا يدع أحداً من الأعداء أن يعبر ذلك الجسر اللعين.. لماذا لم ينسفوه!.. هيا هذه الأسئلة، الآن، سخيفة، هيا أطلق النار على ذلك الجندي الذي يريد أن يعبر الجسر، وعلى ذلك ذي الشعر الأشقر الوسيم 14 دقيقة، وعلى ذلك الضابط المتباهي

بناظوره 13 دقيقة، وعلى ذلك الفارس 12 دقيقة، على تلك العربة 11 دقيقة، كان يطلق النار ويطلق على.. على ... الغراميات الفاشلة، على... أحلامه، التي لم تتحقق، علي هذا وعلى ذاك، استمر ماتيو يطلق النار 15 دقيقة، وسقط ماتيو، وكان حراً وكان تقياً وكان أبياً.

تذكرت هذا المقطع.. كان لابد أن أقطع هذه الأمتار القليلة الباقية.. اللعنة على الربو، وتذكرت، في تلك اللحظة، رفيقاً مناضلاً قلت له مرة: إذا أردت أن تخفف من ألم التعذيب في أثناء التحقيق، تذكر أوبرا الشرق أحمر الصينية، (وكانت هذه المسرحية فقرة أساساً في إعادة التثقيف في الصين أبان الثورة الثقافية وهي زاخرة بالصور والمعاني)، فضحك صديقي ولم يجبني.

وبين هذه الفكرة وتلك، قذفتني الموجة العاشرة وما أكرمها (عطفاً على لوحة آيفوزوفسكي الموجة العاشرة!..)، إلى خارج البوابة الكبيرة، وأول ما فعلته، أن تنفست بعمق، مرة ومرتين، ثلاثة، أربعة، شهقات سريعة متلاحقة، ثم أسرعت بكل ما بقيت لدي من قوى وكانت ضئيلة للغاية، إلى الرصيف، الذي يقف عليه مئات الناس، تدافعت وخرجت إلى ربما مسافة عشرة أمتار من الشريط البشري الذي يحاذي الشارع العام القديم بغداد ـ فلوجة، قذفت بنفسي إلى أرض عشب فيها مهملات كثيرة دفعتها بقدمي، وارتميت على الأرض، غائباً عن الوعي تقريباً.

وبعد دقائق، استعدت قواي، واستخدمت البخاخ، الذي يعين مرضى الربو على فتح مجاري التنفس، تناهى إلى سمعي، الكثير من التعليقات المهولة المبالغة من حولي، فدهشت... للمبالغات، ترى ماذا سيقول الناس بعد 50 سنة من الآن؟ فسألتني امرأة مسنة: عيني أنت من المساجين؟ فأجبتها من دون تفكير بالنفي. فإن هذا السؤال سيعقبه مائة سؤال آخر. ثم خطر على بالي أن أسير صوب بغداد، فالبقاء هنا لن يؤدي إلى شيء، الحركة حتماً الأفضل دائما.. ألم يقل برشت: لا تقف على الشاطئ، أقذف بنفسك إلى الأعماق..

كنت قد نسيت كم هي المسافة إلى بغداد، مع أني كنت قد قطعت هذه المسافة عشرات المرات، شاهدت سيارات كثيرة من مختلف الأصناف، وفكرت أن أطلب الركوب في أحدها، شاهدت سيارة أنيقة، سألت قائدها أن يوصلني، وكانت سيارته فارغة ولكنه أبى ذلك.. فشكرته، ثم أدركت أي طلب هذا في مثل ملحمة كهذه!.. وبينما أنا سائر، بل أشبه بالهائم على وجهه، وللمرة والأولى في حياتي، أشعر إني لا أفكر ولا أعرف ماذا أفعل لا رأي عندي، متعب، مذهول، مصدوم، ولو أن طفلاً اقترح على التنحي والجلوس لفعلت!

وبينما أنا سائر، أسبح في لجة هذه الحيرة التامة، بين إحساس فظيع بالحرية، ورؤية أشياء لم أرها، منذ ستة عشر سنة، لدرجة إعادة الاكتشاف، والاستغراب والدهشة فإذا بي أسمع صوت أخي الحبيب هشام أبو أيمن.. ثم رأيته يهجم عليّ وكأنه غير مصدق أن يراني حراً أسير على قدمي، وهو الشهم، الذي لم ينقطع عن مواجهتي طوال 16 سنة من السجن، وكان هشام قد عرض نفسه للأذى والمضايقات بسببي منذ العام 1970، بما في ذلك الاعتقال والطرد من الجيش، وأخيراً أحالته على التقاعد، قبل بلوغه رتبة العقيد بأيام.

تلقفني هشام بالأحضان وهو في قمة ارتباكه، فهو يقبلني تارة، ويأخذ ما في يدي تارة أخرى، وأنا أعلم أنه يعاني من الآم مبرحة في ظهره، حمل أكياسي على ظهره، شكراً لك أخي الحبيب، وقال لي أن صديقنا القديم وجارنا الوفي أبو أحمد، العميد الدكتور عامر المختار بانتظارنا في سيارته، ولم يكن بوسعه الوصول إلى السجن، ثم كان اللقاء مع الأخ عامر أبو أحمد، وانطلقنا صوب بغداد. قلت انطلقنا والأصح بدأ زحفنا البطيء للغاية، فاستغرقت السفرة بالسيارة من قرب السجن إلى البيت، والمسافة لا تتجاوز 10 كيلو مترات، نحو أربع ساعات.

الطريق إلى بغداد على قصر المسافة، كان يعج على جانبيه بكل شيء: سيارات من الأصناف والأحجام كافة، وبشر يسيرون على الأقدام، بعضهم يحمل أشياء تافهة مثل مخدة أو بطانية، بعضهم حفاة، نساء وأطفال... أشياء غير مفهومة..... ولماذا الفهم؟.. ها أنك تشاهد عيانياً كل شيء: المعقول واللامعقول، فليأت ويشاهد كتاب مسرح المعقول واللامعقول، مناظر إنسانية رهيبة، ومناظر وحشية، قل ما تشاء وتصور ما تشاء، فهذه ساعة لا ينفع فيها العقل والتفكير

والمنطق... إنه حدث من الأحداث النادرة، وبالفعل كان هناك الكثير من الإعلاميين، عراقيين وعرباً وأجانب، بل وحتى كانت هناك طائرة عمودية (هليكوبتر) واحدة أو اثنتين، تحلقان فوق المنطقة، علمنا فيما بعد أنها كانت تصور هذه اللوحة الفريدة من الجو.

المشهد بباب البيت كان شيئاً لا يصدق، وأنا لم أشفق على نفسي، بل والله أشفقت على هؤلاء الأصدقاء والأقرباء كلهم الذين سببت لهم هذا التعب النفسي والبدني. كان لقاء عاطفياً إلى أقصى حد، فسرعان ما تقاطر الأهل والأصدقاء والجيران. والجميع أدى واجبه وأبدى المحبة والود الكثير. بل أن بعضهم أجهد نفسه ليجد مسكن أخي هشام. كالصديق الوفي الدكتور عبد الكريم هاني، والدكتور هلال عبود البياتي، والدكتور محمد الخياط، أما شقيقتي الدكتورة سهام أم غسان وزوجها الدكتور لؤي العاني وأخي نجاح حياوي، فقد خرجوا بسياراتهم يبحثون عني في طريق أبو غريب الذي تحول إلى مجاهل الأمازون وأفريقيا. واستغرقوا ساعات حتى نجحوا في إيجادي، وكنت في دار أخي هشام.

بدأت باستعادة وثائقي المهمة وكانت كلها قد فقدت أو صودرت، واستغرق ذلك وقتاً وجهداً برغم المساعدات، كنت أتصرف بدقة، من دون تسرع أو أرتباك، والواقع كانت بغداد الحبيبة الساحرة أروع من أن يسرع المرء بمغادرتها، وكنت بين شوق لعائلتي يشدني بقوة، وبغداد من جهة أخرى ولكن!....

أمضيت ستة وعشرين يوماً في بغداد، شاهدتها من جديد، تعرفت على شرايين روحي، بغداد هي بغداد لن يتغير فيها شيء، وهكذا ستجدها بعد ألف عام، إن طابع الأشياء الأصيلة لن يتغير، والمدن ليست حجارة واسمنت واسفلت للشوارع، إنها أشياء تشكلت في جينات الناس:

لك هلو عيني... أين تسمع هذه الجملة سوى في بغداد؟..
لك فدوه أروحلك..
بشرفي أموت عليك!..
لك داد والله مشتاق لك!..

والله والله...... لن أقوى على الكتابة أكثر، فقد امتلأت عيناي بالدموع..

وعندما ركبت السيارة، كان أخي الدكتور لؤي وصديق العمر وأخي نجاح حياوي والأخ الدكتور محمد الخياط في وداعي ليلاً في ساحة حافظ القاضي، الوجهة:عمان/ الأردن. كنت ما أزال تحت وطأة مشاعر متنافرة، كنت لا أزال تحت تأثير إطلاق السراح المفاجئ، والسفر السريع إلى الخارج، وها نحن في السيارة، في الطريق... مررنا بالقرب من سجن أبي غريب، لكن.. كان الظلام يلفه، **والقمر لا يبزغ فوق أبو غريب.. حزين وفي حالة إضراب عن البزوغ... القمر في مخيلتنا هو رمز الحب والعاطفة والشوق، القمر جميل... ولكنه حزين في أبو غريب.**

كنت قد أبلغت السائق، بعد أن اقتربنا من الحدود الأردنية وكانت الساعة بلغت نحو الواحدة فجراً... كنت قد طلبت منه أن يخبرني عند عبورنا خط الحدود العراقية، وبعد دقائق شعرت أن السائق قد نسي ما طلبته منه، وعندما سألته ذلك، استدرك: لقد عبرنا للتو الأراضي العراقية، ليش عمي؟.... ليش؟..ليش ناسي شي؟... كيف لي أن أقول له ليش؟

استدرت إلى الخلف ملتاعاً، ولكن الليل كان يلف كل شيء.... فاستودعت الله بلادي الحبيبة بلهجتنا البغدادية: وديعة الله يا عراق، يحفظك الله يا عراق...

في طريق الجو، بالطائرة، كانت الشاشة في دماغي تعرض عشرات الصور دفعة واحدة، تتداخل، تتشابك، تتصارع، تتصالح، تتعاتب، تضحك، تبكي، ما أكاد أتبين الوجوه والأشكال حتى تشتبك مع صور كثيرة.. فقد تخيلت هذه الدقائق ملايين المرات، لكن الواقع له نكهة أخرى، له إيقاع آخر، له إيقاع آخر، له صوره الخاصة ولن يستطيع إنسان أن يعرف ما يخبئه القدر. الطائرة متجهة إلى ألمانيا...

الآف الليالي في السجن 5690 ليلة، نستقبل النهار الجديد.. النهارات كلها عبر القضبان، وها هي أشعة الشمس تغمر الطائرة، مشاهد كثيرة تمر بسرعة، تقترب مني صور وتبتعد أخرى، ثم يقفز الفكر إلى مسألة أخرى، لا أستطيع الاستقرار على لقطة... وأبرر لنفسي هذا التشوش، بكم العذاب الهائل... ولكن الذكرى تشدك، وأحياناً تفرض عليك شخصيات ووجوهاً معينة، بحضورها القبيح أو الجميل، المحزن أو المفرح، أستغرب حضور بعضها، أنا لم أستدعها، هي تطفلت واقتحمت شاشة الرؤية، الأمر يدور كالأحلام...

أي نعم، كالأحلام أنت لا تتدخل في حضورها أو اختفائها.

أنظر من نافذة الطائرة إلى السحاب الأبيض والسماء الزرقاء، ومع أنني قرأت فرويد بدقة، إلا أنني في دهشة متواصلة، تذكرت واستحضرت وجوهاً وصوراً، رفاقاً، وأصدقاء وأخواناً، والكثير منهم غيبه الثرى شهيداً في هذه المسيرة الطويلة، وأخوة من جميع الاتجاهات، فهي أولاً وأخيراً خسارة للبلاد.

وعندما كانت الطائرة تقترب من مطار تيغل Tegel في برلين، وأشاهد البحيرات التي تحيط ببرلين وهي المناظر الأخيرة نفسها، التي شاهدتها في برلين لآخر مرة، تذكرت أحداث يوم 15/ أيار / 1983، في ذلك اليوم غادرت بيتي ببرلين صباحاً من دون أن أوقظ أطفالي من النوم، لم أقبلهم إذ كنت أخشى إيقاظهم تجنباً لإصرارهم على الحضور معي إلى المطار، الرحلة لسبعة أيام فقط، ولكن أحد الأوغاد من الذين يتملقون السلطات، من أنواع الطفيليات الموجودة دائماً للأسف.. كان قد أتفق مع السلطات أن يبذل جهده معي لإعادتي إلى العراق.. فأساء لي وللسلطة وأحرق نفسه ولا أدري ماذا كان الثمن؟.. ربما الثمن أن يبقى مستمتعاً باحترافه الانتهازية والتملق.

عندما حطت الطائرة في مطار برلين... كان ابني الأكبر فراس أول من رأيت ثم أخاه فواز وأمهما. وأنا فارقتهم منذ 20 عاماً... فراس رفع قبضته عالياً.. ولكن أرجوك لا تسل كيف عرفته... لأنني أنا بنفسي لا أعرف كيف؟.. هناك أشياء نعرفها بالإحساس.

وعندما دخلت بيتي، بعد عشرين سنة من الغياب، كنت أشعر بالفوز أخيراً، وأنا سعيد..

سعيد لأنني مخلص بما آمنت، وفيما عملت وفيما تحملت. ولا يسعني أن أختم هذه الرسالة إلا بقول الكاتب المسرحي النرويجي هنريك أبسن:

" السعادة تتكون قبل كل شيء من أحساس هادئ بالبراءة والبعد عن الذنب"

ليحم الله بلادنا العراق وشعبنا

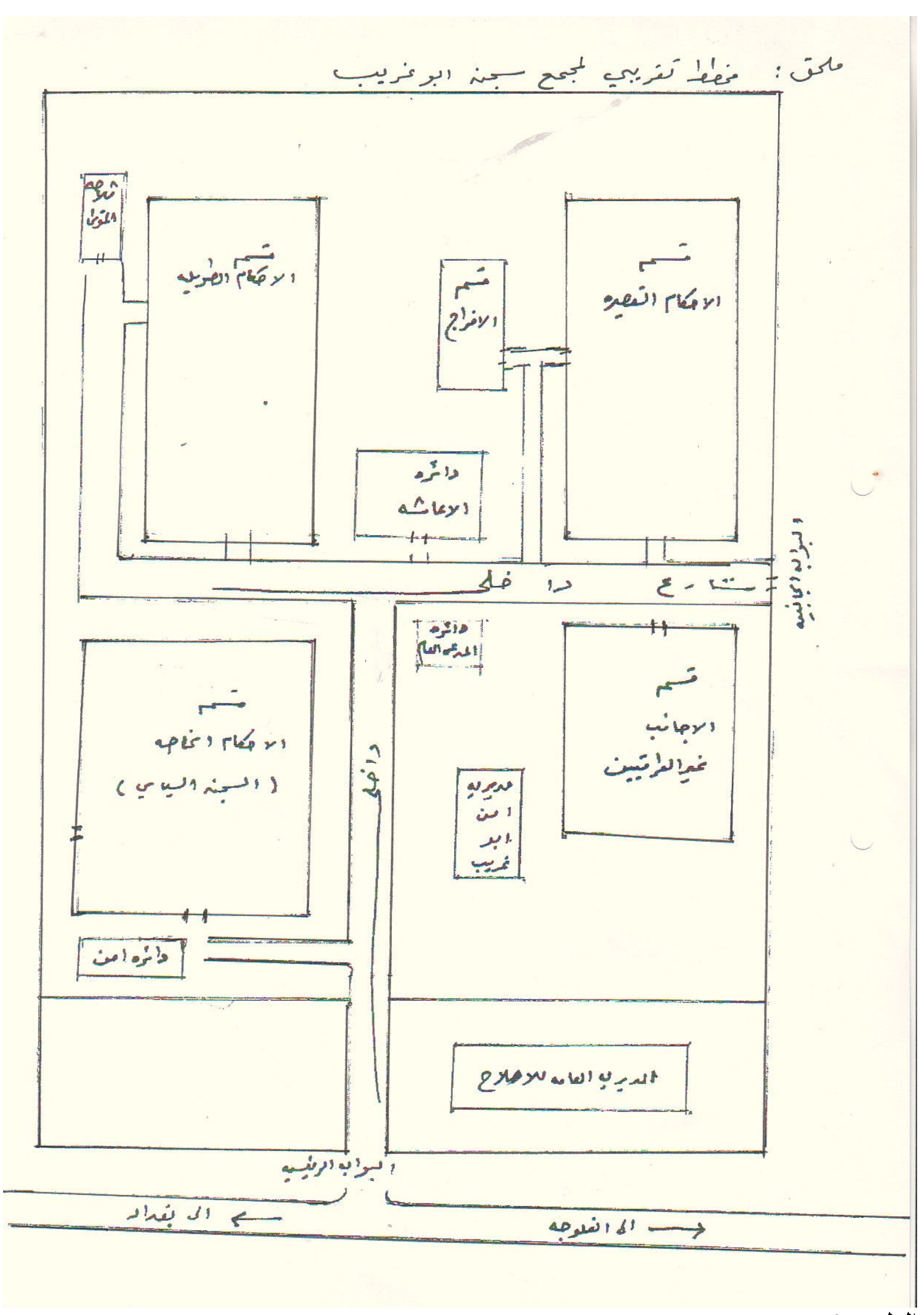
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ملاحق

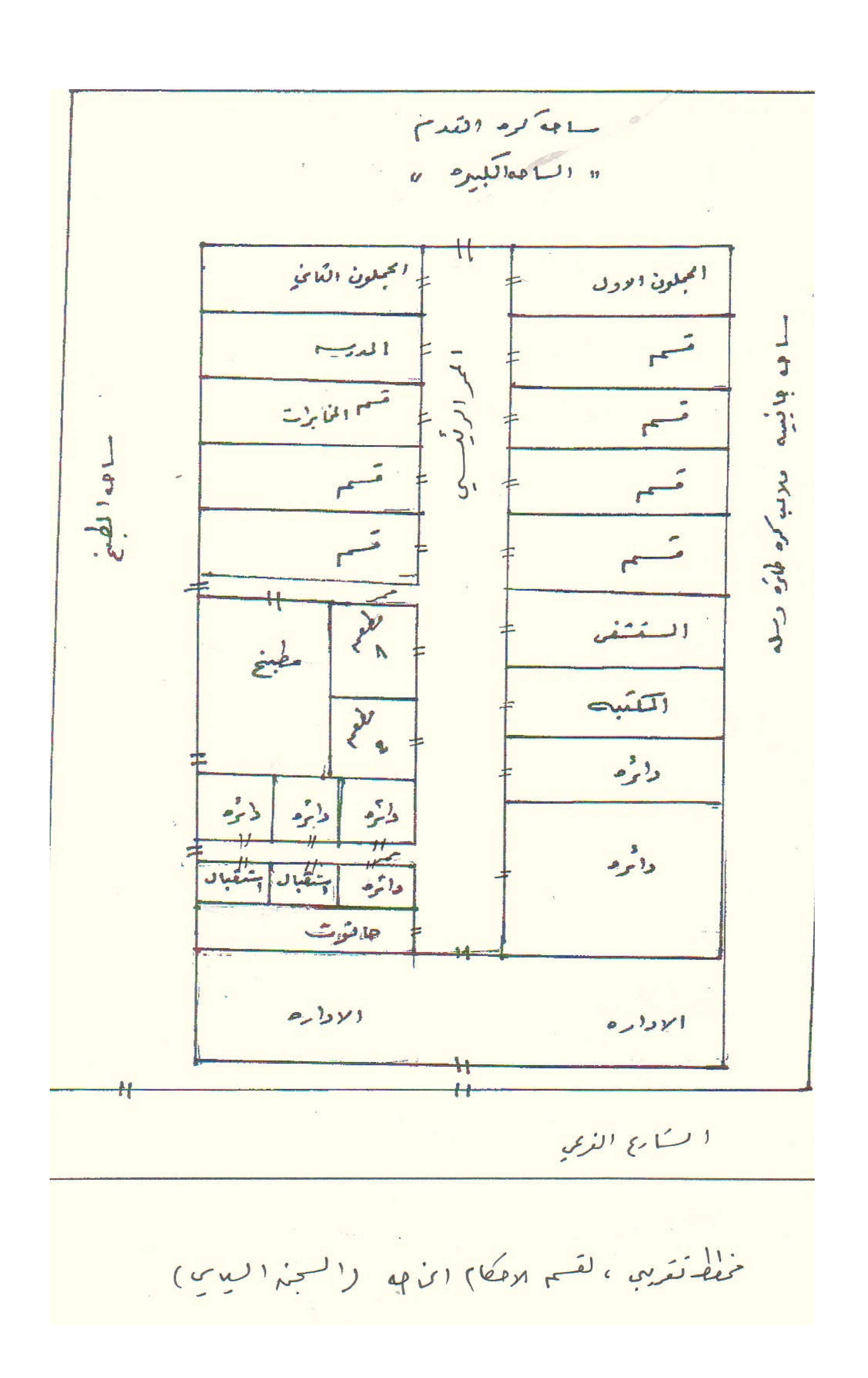
1. مخطط قسم الاحكام الخاصة.
2. لعبة الكريات الحديدية.
3. رسالة العزيز فراس.
4. أسماء النزلاء الذين أمضوا 20 سنة.
5. أسماء النزلاء الذين أمضوا أكثر من 15 سنة.

الملحق 1

مخطط آ سجن أبو غريب



الملحق 2
مخطط ب قسم الأحكام الخاصة


ساحة كرة القدم
" الساحة الكبيرة "
الجملون الثاني
الجملون الاول
المدرسة
قسم المخابرات
قسم
قسم
قسم
قسم
قسم
قسم
الممر الرئيسي
مطبخ
مطعم ١
مطعم ٢
المستشفى
المكتبة
دائرة
دائرة
دائرة
دائرة
دائرة
دائرة
استقبال
استقبال
حانوت
الادارة
الادارة
ساحة الطبخ
ساحة جانبية ملعب كرة طائرة وسلة
الشارع الرئيسي
مخطط تقريبي، لقسم الاحكام الخاصه (السجن السياسي)

ملحق 3

لعبة الكريات الحديدية

قصة قصيرة لملحمة طويلة ..

تتألف السنة من 12 شهراً، والشهر الواحد من 30 - 31 يوماً عدا شهر شباط، الذي يتألف من 28 يوماً، عادة، إلا إذا كان حظك رائعاً مثل حظي، فتزيد يوماً واحداً لتصبح 29 يوماً ولتصبح السنة، آنذاك، سنة كبيسة .

ثم أن الشهر الواحد يتألف، أكثر من أربعة أسابيع والأسبوع يتألف حتماً من سبعة أيام واليوم الواحد من 24 ساعة، والساعة من 60 دقيقة والدقيقة من 60 ثانية، وبذلك تصبح أنت بلحمك الغض أمام آلة الزمن المعقدة، التي تتألف من سنوات وأشهر وأسابيع وأيام وساعات، ودقائق وثواني، ريشة في مهب الريح.

وللزمن سطوته وسلطته، فلا تستطيع استعادة الزمن الضائع، أو تجميده، أو تأخيره، ولذلك عليك أن تكون دائماً في أتم اللياقة البدنية والفكرية، لكي لا تتأخر حضوراً أو فكراً.

ولكن من أنت؟... أنت ذلك المخلوق الذي ليس بوسعه أن يعطل قدوم أي لحظة ولا استعجالها، وبعبارة أخرى، ليس عليك سوى الانتظار والقبول بمعادلات الأمر الواقع سواء كانت قاسية أم لا. ولكن لماذا لا؟... إنها دائماً قاسية بدليل أنها لا تستأذنك، بل أن الأحداث والوقائع تحصل في كثير من الحالات من دون تدخل مباشر منك، وقد يكون في حالات نادرة أو مصادفة لصالحك أو أنك قد تدخلت، بهذه الدرجة أو تلك، في صنع الأحداث، أو في ما يؤدي إليها. ولكن في معظم الحالات فأن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن. فما عليك سوى الانتظار وإبداء حسن الاستسلام وأدبه.

أما إذا كان حظك رائعاً، (وإني سأفترض ذلك لكي نمضي في القصة قدماً) وتحتم عليك أن تصارع الفولاذ والزمن لمدة 20 عاماً، فأنك، بعد تأمل، ستجد نفسك أمام آلة رهيبة من الأرقام المخيفة، وهي عبارة عن معطيات مجردة لا جدال في دقتها وواقعيتها، عليك أن تتحملها بأي وسيلة كانت، بل أن مقدرتك وشجاعتك تعتمدان على تحمل معطيات هذه الآلة، فأنت أمام عشرين عاماً من السجن، قضت فيها السلطات بمصادرتك لأنك مصاب بعمى الألوان، أو لأنك دسست أنفك فيما لا يعنيك، أو ربما لأنك لست بمستوى الذكاء المطلوب... تصور المطلوب!...

والعشرون عاماً هذه تمثل ثلث عمر الإنسان، وإذا اعتبرنا أن الثلث الأول من عمره 20 - 1 هي سنوات تحضيرية ليس إلا، وأنت لست مؤهلاً فيها بعد على خوض المعارك واتخاذ القرارات، بين طفولة ومراهقة أما العمر الحقيقي فأنه يبدأ من سن العشرين فصاعداً، وهكذا فأن مدة الحكم 20 سنة تمثل نصف العمر على أساس أن الإنسان يعتزل العمل ويحال على التقاعد بعد سن ال،60 سنة ويرتكز نشاطه الحقيقي على مراجعة الأطباء والمستشفيات.

وإليك هذه التفاصيل المزعجة (أذكرها لك فقط لكي لا تؤخذ على حين غره): 20 سنة = 240 شهراً، وهي أيضاً = 1020 أسبوعاً، وتساوي، 7200 يوماً (تصور سبعة أضعاف ألف ليلة وليله)، و= 172,000 ساعة و= 7,320,000 دقيقة، و = 199,260,000 ثانية، ترى ما هي القيمة العملية الواقعية لهذه المعطيات الفلكية؟... ولماذا هذا الحساب الدقيق للسنوات والأشهر والأسابيع والأيام؟...

سنوات؟... عندما استولت عليك السلطات وصادرتك باسم القانون، قالوا لك: تفضل رجاء، مجرد خمس دقائق!... ولكن لاحظ كم استغرقت هذه الدقائق الخمسة، والمسألة هي في النسبية!...

كانت زوجة العالم الرياضي آينشتاين، تجهل ويا للغرابة مفهوم النظرية النسبية. وفي لحظة صفاء وهناء مع زوجها، قالت له: أليس من الغرابة أن تكون هي زوجته، وأن لا تعرف النظرية النسبية، التي وضع زوجها أسسها؟، وهنا احتار العالم الكبير، كيف له أن يوضح نظرية لا تخلو

من التعقيد، وبعد هنيهة من التفكير، قال لها وهو يحاول بالطبع أن يقرب الأمر إلى أقصى درجة من مستوى تفكيرها ومصالحها أيضاً!..

قال لها متسائلاً إن كانت تذكر مرحلة خطوبتهما وكم كانت رائعة بالنسبة له قائلاً: كانت كل ساعة أقضيها معك تمضي بسرعة وكأنها دقيقة أو ثانية واحدة. ابتهجت زوجة العالم وأجابت مبتسمة، أن نعم. فاستطرد آينشتاين قائلاً: ولكن بعد مرور سنوات طوال على زواجنا أصبحت كل دقيقة أقضيها معك، تعادل ساعة من الزمن. ومع أن ملامح الفرح والابتهاج غادرت ملامح الزوجة، إلا أنها استوعبت بدقة النظرية النسبية التي أجاد زوجها العبقري في شرحها لها. فزواجه منها قد لا يبدو لي من نتائجه المنطقية كارثياً، لكنه قد تحول إلى ساعة زيتية ثقيلة. إذن، بماذا يمكننا أن نشبه حياة السجن؟...

سأقول لك، قولة المجرب العارف، الذي لم يفقد عقله، إذ أن هناك من يرى الوهج الفتان، ولكنه يخسر عقله فلا يقدر، بعد ذلك، على وصفه. وهناك من يقابل الوحش الخرافي، ولكنه لن يقدر على وصفه، لأن الوحش، ببساط، سوف يلتهمه ولن يبقي منه شيئاً. ولكنني مازلت صافي الذهن متقد الذاكرة، واضح البصر والبصيرة، برغم أني أنهيت ثلاثة أرباع المباراة (16 جولة).

دعني أشرحها لك: السجن عبارة عن مطرقة هائلة يحملها وحش خرافي، هل لاحظت، يوماً، في الأخبار التلفازية صورة الكرة الحديدية الهائلة المستعملة في هدم العمارات والأبنية، إذ تنهال هذه الكرة المطرقة على من تصيبهم تهشيماً وتحطيماً وسحقاً. وبقدر الصلابة (ذاتياً) في من تصيبهم المطرقة لمدة معلومة من السنوات (أتحدث هنا عن عشرين عاماً) وهناك من يتمكن من مقاومة المطرقة أو يتفاداها، ولكنه قد لا ينجح كلياً في مساعيه تلك، فيبدأ بالتداعي والتهشم، بعد خمس سنوات أو عشر أو خمس عشرة، فيخسر قدراً من تكوينه، كلياً أو جزئياً وينتهي الأمر به محطماً، كسيحاً.

موضوعياً، يعتمد الأمر أين تقع ضربة المطرقة، فإن أصابت الضربة الأولى الرأس كان مستوى الضرر، الذي لحق بالمصاب كبيراً (وبالطبع أني أقصد بالرأس هنا ما أقصد!!...) أو أن لا تصيب الضربات منك إلا الأطراف، الأيدي والأرجل، فيكون مستوى الضرر أقل، أو عندما ينجح الفرد بتغطية رأسه وأطرافه، فلن تكون تأثير الضربات خطرة، فتنتهي المباراة (وبحسب عدد الجولات)، بأقل قدر من الأضرار.

لنفترض أن هناك لوحة سريالية من فكر سيغموند فرويد وريشة سلفادور دالي، (كان دالي متأثراً، فعلاً، بفرويد)، لنفترض أن الكرة الحديدية تروح وتعود في حركة بندولية رتيبة، ولكنها قاتلة، تزيل فيها دائماً الصف الأعلى من الجدار (طابوق أو حجارة أو بلوك) ولكنك إذا كنت ذكياً أو خبيثاً (لسنا بصدد هذا الموضوع الآن)، عليك أن تدرس، بدقة متناهية، آلية عمل الكرة الحديدية الهائلة وحركتها، ثم تسجل حركتها بالثواني، أو ربما بأجزاء الثواني وقد تبدو لك العملية، لأول وهلة، معقدة وصعبة، وقد لا تخلو من الملل أيضاً، ولكن ما العمل؟.. أنك مرغم على ذلك في إطار الحفاظ على النفس والنوع أيضاً!.. فهناك مخاطر الانقراض للحيوانات النادرة، أو تلك التي لم يعد وجودها شائعاً!...

بعد أن تسجل بدقة، ومتناهية، كما قلنا، ستجد، لاحقاً، وبعد أن تعتاد على هذه العملية المعقدة حتى من دون الاعتماد على الحاسوب، إنك قادر على الانتصار على هذه الكرة الحديدية الهائلة بسهولة ويا للعجب!.. ولكن ليس قبل أن تصبح في قمة لياقتك البدنية والفكرية، بحيث أنك ستجد أن من المشين، أو المثير للسخرية أن تدع هذا الوحش ينتصر عليك، آلة حديد تنتصر على إنسان؟..

لنعد إلى الموضوع... ها أنت قد أعددت تصوراً واضحاً، وجدول توقيتات مفصلة عن الحركة البندولية القاتلة للكرة الحديدية، ووضوح الهدف ودقة الخطة. أمران في غاية الأهمية لنجاح خطة الإفلات من الوحش الحديد، وهدفك يتناقض مع هدف الكرة الحديدية، أنت تريد أن تمضي قدماً في بناء الجدار، فيما هدف الكرة هو تقويض

الجدار حتى الأساس، مبتدءاً من الصفوف العليا للجدار (من رأس الجدار، حسب أرقى نظريات التقويض)، وبإجراء عملية حسابية (ربما تستغرق بعض الوقت) تحسب فيها الزمن، الذي تقطعه الكرة الحديدية من أعلى ذروة لها شمالاً إلى أعلى ذروة لها جنوباً، ولا بد أن يكون حاصل قسمة الزمن على اثنين هو أقصى مدى تصل إليه الكرة في حركتها إلى الأسفل، وهي نقطة ملامسة الكرة لأعلى صف من الطابوق في الجدار. وهنا عليك أن تقيم سباقاً مع الزمن .

سباق مع الزمن؟... هذا مصطلح لم يخطر على بالي قط حتى عند شروعي بشرح آليات العمل المقاوم للكرة الحديدية. إن قدرات الإنسان تتضاعف بنحو مثير وتفوق التصور، والمهم هو إرادة العمل. إني لأرجو من القارئ الكريم أن ينتبه إلى مصطلح سباق مع الزمن، لأنني سوف أعود إليه بمزيد من التركيز والتفصيل.

في السباق مع الزمن، وأنت الآن تتنافس في ذلك مع الكرة الحديدية الهائلة عليك أن تناضل من أجل تشييد صفين اثنين يومياً ليرتفع الجدار، فالكرة تزيل صفاً في صعودها وصفاً عند نزولها، وإذا نجحت في بناء صف واحد فقط، فهذا يعني أنك سوف تخسر المباراة، بعد مدة معينة، بحسب ارتفاع جدارك أصلاً.

إلى هنا يبدو الأمر محتملاً، صحيح أنك، تخسر ما تشيده إلا أنك، بالمقابل، لم تسمح للآلة أن تحطمك نهائياً. ولكن لابد من الاعتراف أنها أوقفت عملية النمو في جدارك. أما إذا شيدت صفين فأنك متعادل مع الكرة الحديدية، أما إذا نجحت بتشييد ثلاثة صفوف، فستزيل منها الكرة اثنين، فيبقى لك دائماً صف جديد، أي أنك تسجل انتصاراً ولو بسيطاً في المباراة .

ولكن هناك احتمالات أخرى للوضوح، أقصد إيقاظ الوعي، هو أنك لو كنت عارفاً بقواعد الاقتصاد السياسي فأنك ستعلم أن هناك مصطلحاً يسمى الإنتاجية، إنتاجية العمل، أي أن قدراتك الإنجازية يمكن أن تتصاعد تلقائياً، أو بالحث، مع إتقانك العمل. في حين لا يحتمل أن تغير الكرة الحديدية (أخلاقها) آليات عملها وإيقاعه لأن في ذلك فساد نوعها!..

وبناء على ذلك، فأن ارتفاع معدلات التشييد أو الحذاقة في توزيع الجهد، فأن بناء ثلاثة خطوط أو أكثر خلال حركة البندول صعوداً أو هبوطاً، يكون معدل البناء أعلى من معدل التقويض، أي أن الكرة لا تكف في الواقع عن التقويض، ولكنك لا تكف أيضاً عن التقدم وإحراز الانتصارات.

أحقاً ذلك ممكن؟... نعم بالتأكيد ، أقولها لك بلهجة الواثق المجرب.

ولكنني أريد أن أقول لك أمراً آخر، دعنا نشبه التجربة بشيء آخر. لنقل أنك قد حشرت في زاوية أمام رماة ذوي وجوه حجرية. وأنني إذ أسر لك نبأ الرجال ذوي الوجوه الحجرية، كي لا تضع أي قدر من الاحتمال بمناشدة ضمير الرماة أو رحمتهم. قلت لك أن وجوههم حجرية وذلك ما يمكنك رؤيته والتبين منه بوضوح، وما لا تراه ببصرك، هو أن قلوبهم حجرية أيضاً وذلك مؤكد بدرجة مماثلة، لذلك، وكما يفعل رياضيو اليوغا، لا تحاول التركيز على وجوههم وضمائرهم، بل ركز على نفسك وضميرك، عليك أن تنسى، أو تحاول نسيان أن هناك شعيرات حساسة وشرايين ناقلة عبر الدماغ تجعل المرء يشعر بالألم، عليك أن تغير الكثير من المفاهيم. ليس هناك ما يدعو إلى الألم بفعل عوامل خارجية. إن الألم، باعتقادي، يحدث، فقط، عندما يشعر الإنسان بتأنيب الضمير، هذا هو الألم فحسب، وليس هناك شيئاً آخر، أما الوخز والألم الخارجي، فهو محض هراء .

أذن، فأنت أمام رماة ذوي وجوه حجرية، أو بالأحرى قلوب حجرية، وبأيديهم بنادق صيد رائعة، وكلاب صيد مذهلة وكمية هائلة من الخرطوش. وكما تعلم ربما، أن الخرطوش يتألف من عبوة تحتوي على كرات حديد، رصاصية، صغيرة أو كبيرة، حسب عيار الخرطوش فقد تضم الخرطوشة 12 كرة رصاصية أو أكثر، 24 أو 50 أو ربما ثلاثة أو أربعة كرات فقط إذا كانت مخصصة لصيد حيوانات قوية مثل الفيلة أو الأسود والنمور.

والخرطوش له أسماء وأرقام كثيرة ومعرفتها، ومعرفة آليات انطلاقها مهمة جداً لكي تخفف من وقعها عليك. فهناك سنة بسيطة وسنة كبيسة وأسماء أثني عشر شهراً وسبعة أيام وأربعة فصول وأزمنة، ساعة ودقيقة وثانية، هل تعلم ما وقعها عليك؟...

لن أغضب، إن كنت تجهلها، فأنا نفسي، الذي أجلس في قدر الضغط العالي سنوات طويلة، لم أكن أدرك حركتها المحورية الدقيقة. وإليك مثال على ذلك: قالوا لك يوم القي القبض عليك (يوم مصادرتك)، إن الأمر لن يستغرق أكثر من خمس دقائق، وها هم يعتصرونك، ويتعاملون معك وكأنك رقماً لا قيمة له ولا معنى هنا للألم النفسي وتوجه لك الإهانات في مسرحية هزلية لا نهاية قريبة لها، وأنت تنتظر نهاية هذه المهزلة، مهزلة تعرضك إلى ألم خارجي تافه (هم يعتقدون أنهم يلحقونها بك).

وقد ينهال عليك أحد الأوغاد مستخدماً، كالقرود المتطورة، أطرافه العليا والسفلي، هو إنسان في هيئته الخارجية، ولكنه تحول إلى حيوان متوحش ضار، بسبب المهنة والتربية والجو المحيط به، ربما بسبب إعجاب دفين بالمهنة وعداء كامن للجنس البشري، أو ربما بسبب خطأ عابر من الوالدة!!.. والله أعلم!..

ها أنت تقف، الآن، أمام سد من سدود الرمي وميادينه، أمام دريئة (إن كنت عسكرياً، فسوف تفهم معنى هذه المصطلحات)، ويبدأ الرماة بالتصويب عليك، وينهال عليك الخرطوش من العيارات كلها، سنوات، فصول، تمر عليك، أشهر، أسابيع وأيام وساعات في أوضاع ومواقف كثيرة، ودقائق طويلة.. طويلة، وليس نادراً ثواني يكون فعلها كالثواني، التي مرت على آينشتاين!...

ما العمل؟.. كيف تنجو من خراطيش مليئة بكريات حديد أو رصاصية كثيرة من الأحجام كافة، ورجال حجريين، وبنادق ممتازة؟...

هل سترتدي سترة واقية من الرصاص؟.. كلا، بالطبع، لأنك لا تمتلك واحدة منها، بل لأنهم فتشوك، وجردوا مقتنياتك البسيطة ليتأكدوا أنك لا تمتلك شيئاً يجعلك قادراً على صنع طائرة مروحية!...

قلت لك قبل قليل، إن الألم الخارجي شيء تافه ووهم كبير. إن من يسلط عليك هذا الألم يريد أن يوهمك أنه العنصر الأهم في العملية، في حين ينبغي عليك أن تستوعب أن ذلك ما هو إلا فخ لك ولبصيرتك، وهنا تكمن عناصر قوتك أن تتجاهل الألم الخارجي تماماً، وقدرتهم على توجيه الإهانة لك، وأن تصرفها عن ذهنك نهائياً وأن تفصل نفسك ومشاعرك وأخلاقياتك، بصفة نهائية، عن هذا الوسط المنحط، الذي يراد منه دفعك إليه، تجاهله تماماً، أنني سأجعلك تنظر إلى المسألة برمتها بصفتها لعبة، وكلما أتقنت ممارستها سيتوقف عليها انتصارك أو اندحارك وهزيمتك.

لاحظ ...إن معظم التقاويم الجدارية تتألف من ورقة واحدة، الأشهر فيها مرتبة على أساس رباعي وتكون بذلك ثلاثة صفوف أو على نحو ثلاثي، وبذلك تصبح أربعة صفوف، ليس ذلك مهماً، فأي كانت الحال علينا أن نقطع هذا البحر سباحة اعتمادا على قوة الذراعين فحسب.

عندما ينتهي الشهر الأول (كانون الثاني)، يبدأ الشهر الثاني (شباط)، آنذاك، سيكون عليك قطع الشهر الثالث فقط لأنك تسبح في الشهر الثاني ومع نهاية الشهر الثالث تكون قد أنهيت ربع السنة، وأنت تمارس هذه العملية (واقعياً أنت في الشهر الرابع)، وبمرور أيام معدودة فقط تكون قد أنهيت الشهر الرابع، وهو ما يمثل ثلث السنة، حينئذ، لك أن تقرع على صدرك العامر، وتقول: ها أنت قد أنهيت ثلث السنة، فيما تكون أنت في الشهر الخامس، الذي، بمجرد انقضائه تكون في الشهر السادس، آنذاك، لك أن تصرخ بجذل: ها أني قد أنهيت نصف السنة، وبانقضاء نصف السنة فأنك تكون قد نحرت السنة في الواقع، تدغدغ مشاعرك في شهر تموز، الذى مع نهايته تكون في الشهر الثامن، الذي يمثل ثلثي السنة، ولم يتبق منها سوى ثلث واحد فقط.

وفي غمرة هذه المشاعر اللذيذة، تكون قد أنهيت الشهر الثامن، ومع بداية الشهر التاسع تكون قد أنهيت ثلاثة أرباع السنة، أي أنك قد وضعت السنة خلف ظهرك، وأنهيت بكل اقتدار جولة جديدة

من الملاكمة أو المصارعة انتصرت فيها لتقول: إن ما بقي لي هو أقل بكثير مما قد مضى، أو: إن الأمر كان في غاية البساطة وإذا كانت الجولات المقبلة كلها على هذه الشاكلة فالأمر بسيط حقاً.

نعم بسيط حقاً، لأنك لا تملك خياراً آخر... هذا، إن أردنا أن نكون واضحين ونتوخى الدقة في أحكامنا، وغير ميالين إلى التلفيق، كما يفعل بعض الذين لا تحمر وجوههم خجلاً، ولكن دعنا لا نركز على هذه النقطة أفترض انك كنت مبحراً على ظهر باخرة، ثم سقطت فجأة من سياجها، وها أنت وسط المحيط الأطلسي، فالسباحة حتى البر المقابل هو خيار مجنون، طبعاً، ولكن ما العمل؟... إن الخيار الآخر هو أكثر جنوناً، فأنت لا تستطيع، ببساطة، أن ترخي يديك وتسدل ذراعيك وتدع نفسك تغطس كصخرة إلى قعر المحيط، لا سيما أنك تجيد السباحة. تخيل الأمر، أنت في وسط المحيط تسبح على سطح الماء وتخيل كم هو عمق المياه تحتك والوحوش، التي يزخر بها المحيط، تخيل وحشة الليل وأنت تضرب بيدك على صفحة المأء، تخيل كم سفينة مرت قربك أو بعيداً عنك ولم تلتقطك لأنك لا تمتلك ثمن التذكرة، أو لأنك نسيت جدول ضرب (9)، أو أحد الأناشيد المهمة هذه الأيام...

لا فائدة من الحديث كثيراً، فذلك يضيع طاقة أنت بأمس الحاجة لها... واصل السباحة ثم ضع عينيك تجاه عيون الرجال الحجريين، وإن لا فائدة ترجى من ذلك، ولكن لتعرف نفسك، في الأقل، أنك لم تهزم لأنك لم تصبح حجرياً ولكي تعرف، من الآن، أنك المنتصر في المباراة والجولات كلها!.. كيف؟.. نعم، أنك أنت المنتصر، لأنك: لم تصبح حجرياَ، أولاً، ولأنك لم تشايعهم ثانياً، ولأنك لم تؤيدهم ثالثاً، بل لأنك عملت ضد الحجر!!!... قطب نفساً وواصل السباحة في المحيط الأسود.

الآن، وبعد أن تمتعت بوجبة عامرة منحتك شحنة معنويات، استعد لالتقاط الكرات الحديد أو الرصاصية المصوبة نحوك وكلما تقدمت في إتقان اللعبة سوف يستخدم الرجال الحجريين ضدك خراطيش من عيارات ثقيلة، على أساس معرفة بدائية أكتسبها الحجريون، أن الخراطيش ذات الكريات الناعمة لا تنفذ في جلدك.

ومثل أبطال الأساطير، عليك أن ترقب وأن تقدر الوقت بين إملاء بندقية الصيد والتصويب ثم أن تقدر بدقة جهة التسديد، تمد يدك وتلتقط بكف يدك الكرة الرصاصية، قبل أن تلامس جسدك ثم تضعها في جيبك، أو أن تضعها في أي مكان ولكن إياك أن تبتسم بشماتة، فذلك يغيظ الرجال الحجريين ويزيد عدوانيتهم وشراستهم.

لا تحسب الأمر معقداً، هكذا هي الأحوال، في البدء نظنها أشياء صعبة ولكنك سوف تعتاد عليها بحيث أنها تصبح، بمرور الوقت، السلوى الوحيدة لك في هذا المحيط الأسود أو هذه الصحارى القاحلة، وأنها الوسيلة الوحيدة لإثبات نفسك وذاتك، وهذه الكرات الحديدية، صغيرها وكبيرها هي بمنزلة صخور ضخمة تحملها كل يوم إلى قمة الجبل، إذ تسقط من جديد إلى السفح. ليس هناك هدفاً محدداً، الهدف هو مواصلة اللعبة فحسب. هذا هو قدر سيزيف في الألفية الثالثة وليس لهذه العملية من نهاية وليس لك أن تلوم أحداً حتى ذلك الوغد، الذي خانك وقبض ثمن خيانته منصب مدير عام ماسحي الأحذية.

واصل البناء، واصل السباحة، واصل التقاط الكريات الحديدية، واصل إظهار احتقارك وإدانتك للقتلة والخونة والمرتشين والقوادين وممتهني دعارة السياسة والسماسرة والجواسيس. ليس لهذه العملية من نهاية، ليس لك أن تلوم أحداً، فأنت طرحت نفسك هكذا رقماً غير قابل للصرف، منتوجاً لا سعر له، ورأساً ينبت مثل ذنب الأفعى كلما تعرض إلى البتر. عمرك ملايين من السنوات، إنك لست لحماً ليشوى ويؤكل، أو كومة عظام لتسحق وتطحن... لست عشباً يابساً لتحرق وتذروك الرياح... فكن على قدر هذه القضية وقدرك....

فكر!..

أرجوك...

تحياتي

أيار/ 2002

ضرغام عبد الله الدباغ
سجن الأحكام الخاصة/ سجن أبو غريب
بغداد المنصورة

ملحق: 4

رسالة فراس العزيز

بسم الذي انتظر منه الفرج

الى والدي العزيز دكتور ضرغام المحترم

سلامي لك سلاماً أعجز عن وصفه وللأسف فإني
لم أسلم عليك لأن حلاوة الشهادة أخذتني سريعاً،
أسألك الدعاء يا والدي العزيز

فراس

٩٧/١٢/٢٤

ملحق : 5

أسماء النزلاء (26 سجين) ممن أكملوا الحبس المؤبد (20) عاماً:

وليد محي حسين الحداد/ بغداد
رمضان كاطع/ بصرة
علاء العاني/ الأنبار
جميل عباس/ الموصل
حمود خليفه/ الأنبار
إسماعيل ـ أبو أحمد/ الموصل
صفوك عبدالله/ بغداد
نشأت فرج/ بغداد
د. قاسم مهاوي/ بصرة
فائز/ الأنبار
عقيل/ بصرة
عزيز/ بصرة
علي حميد/ الموصل
صالح برشوت/ موصل
خلف جرجري/ موصل
منير برهان/ كركوك
الحاج نهاد/ كركوك
محمد زهدي/ كركوك
محسن جوبان/ كركوك
أسعد رشيد/ كركوك
جليل فاتح كهربائي/ كركوك
طارق مدحت/ بغداد
صلاح النجار/ كركوك
شهاب الكويتي/ الكويت/ عراقي

اثنان أمضيا الحكم المؤبد 20 سنة، وكان من المقرر إطلاق سراحهما بعد يومين!
فلاح/ أبو فواز الموصل
صالح عبيد الموصل

ملحق: 6

أسماء النزلاء ممن أمضوا أكثر من 15 عاماً (32 سجين): *

السيد محمد الطباطبائي/ النجف
حاكم ثجيل/ الناصرية
صاحب/ النجف
فؤاد بشو/ بغداد
حسيب عبد الله/ الموصل
عبد المنعم النوري / فلوجة
حسين علي عكاب/ الناصرية
أبو دخيل/ الموصل
سعد قاسم راضي/ بغداد
صارم بديوي/ الرمادي
عادل مخلف/ الرمادي
كامل عبود/ بغداد
بيرج كراكوسيان/ بغداد
د. ضرغام عبد الله الدباغ/ بغداد
سلام مدلول/ كركوك

شمو/ سنجار ـ الموصل
سليمان بحري/ سنجار ـ الموصل
حسن بحري/ سنجار ـ الموصل
أبو خالد/ سنجار ـ الموصل
بركات خضر/ سنجار ـ الموصل
أحمد عبد الحافظ/ البصرة
سامي طعمه / بغداد
محمد خلف الجبوري
جمعة حاجي/ الشيخان ـ الموصل
عرب/ الشيخان ـ الموصل
حاج قاسم/ الموصل
فاتح/ أبو رعد: توفي/ كركوك

---

* معن وهيب: أعدم بعد 16 سنة سجن/ بغداد
* خضر عبد الله: توفي بعد 19سنة سجن
* صلبي غربي: توفي بعد 19 سنة سجن/ الموصل
* السيد قوجوه: توفي/ كركوك
* فاتح/ أبو رعد : توفي/ كركوك

---

* الحكم بالسجن المؤبد في القانون العراقي، هو 20 عاماً، ولكن السجين إذا أثبت أنه حسن السلوك والسيرة يعفى من 25% من محكوميته لتصبح 15 عاماً، وقد استثني من ذلك المحكومون بجرائم الأمن الخارجي، لذلك أمضى عدد محدود العشرين عاماً في السجن، وأعتقد لا يوجد غيرهم في تاريخ السجون العراقية، وهي قائمة الملحق 4، أما الملحق 5، فهي تضم أسماء من تجاوز الـ15 عاماً، أي أكثر من الحكم بالمؤبد.